

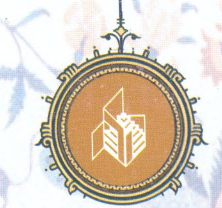
الفلاكة والمفلوكون

محمد الجمل

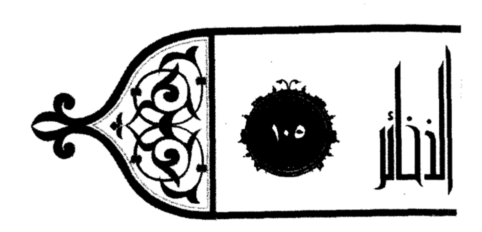
تأليف الإمام العالم العلامة الورع الزاهد
خاتمة الحفاظ والمحدّثين مولانا شهاب
الملة والدين أحمد بن علي الدلجي
طاب ثراه
آمين

قدّم هذه الطبعة

د/ زينب محمود الخضيري
كلية الآداب - جامعة القاهرة



الهيئة العامة لقصور الثقافة



الفلاكة والمفلوكون

تأليف الإمام العالم العلامة الورع الزاهد
خاتمة الحفاظ والمحدّثين مولانا شهاب
الملة والدين أحمد بن علي
الدلجي طاب ثراه
آمين

قـــدّم هذه الطبعة
د/ زينب محمود الخضيري
كلية الآداب - جامعة القاهرة



الهيئة العامة لقصور الثقافة

الذخائر (١٠٥)
نصف شهرية

إصدار
أول أكتوبر ٢٠٠٣

الفلاكة والمفلوكون

تأليف
أحمد بن على الدلجى

تقديم
د. زينب محمود الخضيرى

تصميم الغلاف
محـــمد بغدادى

رقم الإيداع : ١٧٨٣٧ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى :
I.S.B.N. 977 - 305 - 596 - 5

الشركة الدولية للطباعة ٦ أكتوبر
ت : ٨٣٣٨٢٤٠

المراسلات باسم سكرتير التحرير على العنوان التالى
١٦ أ ش أمين سامى قصر العينى - القاهرة
رقم بريدى ١٢٥٦١



بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف

- ١ -

عزيزى القارئ . . لهذا الكتاب الذى بين يديك ، ولتقديمه فى سلسلة (الذخائر) قصّة أراها - من وجهة نظرى - نافعة ، وأرجّح أنك ستراها كذلك . حوالى شهر يناير ٢٠٠٣ م التقيت بالزميلة الفاضلة الأستاذة الدكتورة زينب الخضيرى ، لقاءً عاديًا بحكم الصداقة والزمالة فى العمل. وكعادة المشتغلين بالعلم تطرّق الحديث إلى بعض مايُنشر بصفة عامّة، ومماينشر فى (الذخائر) بصفة خاصة. . وانتقل على نحو طبيعى بفعل سؤال متكرّر من جانبى : **ماذا ترشّحون للنشر فى (الذخائر)** ؟ أجابت الزميلة الصديقة: كتاب (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا) ، وكتاب (الفلاكة والمفلوكون) .

وعلى الرغم من أنها ذكرت كتبا أخرى فإن ما استوقفنى كان هذين الكتابين. **أما أولهما** فلأنه كان مثْبتا ضمن خطة النشر بالسلسلة من قبل، **وأما الثانى** فلغرابة عنوانه وموضوعه.

أوّل الكتابين أثار ذكرُه ارتياحى ، وذلك للتوارد مع الزميلة على أهميته . . **وثانيهما** أثار فضولى وحبَّ الاستطلاع من جانبى لمعرفة

المزيد عن الكتاب والتعرّف عليه .

سجّلتُ عنوان الكتاب واسم مؤلّفه فى مذكرتى ورُحت أتحيّن الفرص للاطّلاع عليه فى أى مكتبة يتاح فيها، تعرف أن الأمور ليست سهلة ، وأن واجبات العمل والمسئولية الأدبية نحوه لاتترك لنا الكثير من الوقت لكى نُمسك بما نريد من أسفارِ تراثنا الذى تثبت الأحداث كلَّ يوم أننا لانعرف الكثير عنه. ثم مرّ بعض الوقت.

فى أوائل أغسطس الماضى قابلتُ الزميل الأستاذ الدكتور سيد عشماوى أستاذ التاريخ بآداب القاهرة، كان هو البادئ بالسؤال : **لماذا لاتنشرون كتاب الدّلجى (الفلاكة والمفلوكون)** ؟ قلت: إذًا أنت مع الدكتورة زينب فى ترشيح الكتاب والتأكيد على أهميته، جاءت كلماته تيّارًا دافقا من الحديث عن الكتاب والتحمّس لنشره، إذْ يرى فيه - وهو المؤرّخ - واحدًا من الأعمال المحدودة التى تلقى الضوء على الشرائح الدنيا فى المجتمع، وتتناول قضايا وظواهر خلافَ ماتُعنى به كتب التاريخ العام، التى تجعل همّها غالبا تسليط الضوء على الأحداث من أعلى ، وتتّجه بعنايتها إلى القمم مزْورّة غالبا عما يدور فى القاع.

جاءت كلمات الدكتور عشماوى عن الكتاب مكمّلة لكلام الدكتورة زينب التى لفتها البعدُ الاجتماعى فى نظرة المؤلف ، كما لفتها الموقعُ التاريخى للكتاب فى إطار دعوات الإصلاح، إلى جانب الصدور عن الأفكار الكلامية والفلسفيّة.

قلت للدكتور عشماوى : ولكن الكتاب ليس فى مكتبتى وأجد صعوبة فى الحصول عليه، ردّ قائلا: عندى نسخة الكتاب، بوسعك أن

تراها غدًا، فى اليوم التالى . . كنت جالسا لموعد الدكتور عشماوى فى إحدى حجرات قسم اللغة العربية بآداب القاهرة، جاء الزميل فى موعده، قدّم إلىّ نسخة الكتاب، قلت له : سأحكى ماحدث للدكتورة زينب، وأطمئنها على أن ترشيحها للكتاب فى طريقه لأن يدخل مرحلة التنفيذ، ثم نتفق على مَنْ منكما يتولّى كتابة مقدمته.

انصرف الزميل مشكورًا، وماهى إلاّ دقائق معدودة حتى رأيته عائدًا بصحبة الدكتورة زينب!! كان حضورها على غير موعد، أبديت سعادتى ممزوجة بالدهشة. قالت : ليس ثمة موعد، بل ولاحتى نيّة سابقة للحضور إلى الكليّة، مجرّد ملابسات غير متوقعة جاءت بى إلى هنا لألتقى بالدكتور عشماوى الذى أخبرنى بوجودك وأطلعنى سريعًا على مادار بينكما ... تذكرتُ كلمة سمعتها لا أعرف على التحقيق مصدرها (إن الله سبحانه إذا أراد شيئا يسّر السبيل إليه) .

وبرز السؤال : مَنْ من الأستاذين الكريمين يكتب مقدمة الكتاب لطبعة الذخائر؟

أبدى كلّ منهما استعداده مع حماسته فى الوقت نفسه لإيثار زميله على نفسه، كنت عرفتُ من قبل أن الدكتورة زينب لها بحث عن الكتاب شاركت به فى أحد المؤتمرات، كما عرفتُ من الدكتور عشماوى أنها هى التى دلّته على الكتاب، ثم أضيف إلى ماتقدّم دواعى الحاجة العملية، أعنى الرّغبة فى سرعة تقديم الكتاب للطبع. وهكذا ترجّح لدى ثلاثتنا أن تكون كتابة المقدمة من نصيب الأستاذة الدكتورة زينب الخضيرى.

وتسألنى - عزيزى القارئ - لماذا كلّ هذه الحكاية؟ وأقول لك : **إنّ وراءها رغبةً فى الوفاء بالدين والعرفان بالجميل، هذا إلى رغبة فى تأكيد خُلق** أراه ضروريا لكل من يمتّ إلى الاشتغال بالعلم بسبب، هذا الخلق هو الأمانة التى قدمتْ زينب الخضيرى مثلا رائعا لها عندما أخبرتنى أن الفضل فى معرفتها بالكتاب يعود إلى زميلنا وصديقنا المشترك المرحوم الأستاذ الدكتور محمود رجب أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة الذى فقدناه فى العام الماضى[١] .

- ٢ -

وإذا كانت هذه هى قصة معرفتى بالكتاب فإنها قادت إلى بداية تعاملى معه. كان علىّ أنْ أبدأ بفهم العنوان الذى لاشك فى أنه أول مايلفت المتصدى للكتاب، لا للسبب الطبيعى من وروده فى البداية وتصدّره للقارئ ، وإنما لغرابة الكلمتين اللّتين يتكون منهما. كنتُ قد قرأت فى بعض المصادر أن كلمة (الفَلاكة) كلمة فارسيّة، ثم قرأت قول مؤلفنا إنه تلقّى الكلمة من العجم [ص ٣] فدفعنى هذا إلى استشارة الصديق الأستاذ الدكتور السباعى محمد السّباعى أستاذ اللغة الفارسية وآدابها، فتفضّل بإفادتى أن كلمة (فلاكتْ) - بالتاء المفتوحة ساكنةً - كلمة فارسيّة فى أصلها، وإن جاءت فى عنوان الكتاب على صورة الكلمات العربية وببعض أوزانها - كالخَطابة والمهارة والشجاعة ... إلخ - وأن الكلمة تعنى : العجز والمذلّة والفاقة وسوء الحظّ.

---

(١) توفى - رحمه الله - فى ٢٠٠٢/٨/٢٨ .

تحققتُ على الفور من صدق مؤلف الكتاب ، ومن دقته فى اختياره لفظ (الفلاكة) ، وتفضيله على ألفاظ : (الفاقة) و (الإملاق) و (الفقر) ، معلّلا ذلك بأن «هذه الألفاظ الثلاثة ونحوها نصٌّ وصريح [هكذا] فى مدلولها، بخلاف لفظة (الفلاكة) و (المفلوك) فإنه يتولّد منهما بمعونة القرائن معان لائقةٌ بالمقامات على كثرتها وتفاوتها» [ص ٤] .

والواقع أن من يقرأ الكتاب ويتأمل مظاهر الفلاكة وجهاتها التى يُؤتى منها المفلوك، وكيف تتعدّد هذه المظاهر والجهات يدركْ أنّ أيًّا من الألفاظ العربيّة الثلاثة التى رفضها المؤلف لايمكن أن يقوم مقام لفظ الفلاكة . . . ذلك أن كلاّ من هذه الألفاظ، بل كلّها مجتمعة لاتخرج عن معنى العُدْم، والعُدْم فى المال غالبًا، ويقوم معنى (الحاجة) أو الاحتياج كقاسم مشترك فى معانى الألفاظ الثلاثة، بحيث ترتبط معانيها بالنقص وعدم الوجود الذى غالبًا مايتعلّق بالمال .

أما لفظ (الفلاكة) فلفظ فضفاض المعنى ينطبق على حالات لا تُحصى من سوء الحظّ وعدم التوفيق فى المال والعلم والصداقة والعمل وعلاقة الفرد بأبناء مجتمعه من المواطنين العاديّين والحكّام، وهى وجوه، أو جهات، تتعدّد مستوياتها ومظاهرها وتتضمن كلّ المعانى التى تحملها الكلمات الثلاث مجتمعة، وزيادة. وإن كنا نلاحظ تباين موقف المؤلِّف من كلّ من اللفظيْن (الفلاكة) و (المفلوك) .

فهو مع **الكلمة الأولى** يسلّم بأعجميّتها لفظا ومعنى، أما مع **الكلمة الثانية** فإنه يتبنّى موقفا مزدوجًا، إذْ ينظر بعين إلى معناها،

وبعيْن إلى اشتقاقها، فمعناها فى استعماله الذى ارتضاه متولّد عن مصدرها الأعجمى (فلاكتْ)، أمّا اشتقاقها فقد بذل المؤلف جهده لتأصيله عربيّا وربْطِه بلفظ (الفلَك) .

يتناول الكتاب - إذًا - أحوال شريحة خاصة من أفراد المجتمع ، هى أولئك الذين عاندهم الحظ وزوى عنهم وصادفهم النحسُ من حيث لم يحتسبوا . وعلى هذا يبدو موضوع الكتاب لافتا، بل غريبًا؛ ولكنّ هذا هو الانطباع الأول الذى لايلبث أن يزول حين نعرف أن تراث التأليف عند العرب زاخر بهذا النوع من المؤلفات التى تتناول جوانب وأحوالاً من حياة المجتمع ، وفئات ليست من النوع المشهور أو البادى على السطح مما يشدّ إليه أقلام الكتاب والمؤرخين.

لقد كتب المؤلّف العربى فى العاهات والأخلاق والقدرات العقلية ، وفى أوضاع المرأة ، وفى حالات خاصّة من النّسب ، وفى صور خاصّة من نهاية الحياة. . كتب الجاحظ فى البُرصان والعُرجان والحُولان والعميان، وكان الهيثم بن عدىّ قد سبقه إلى هذا الطريق. كما كتب الجاحظ عن السّود والبيض والجوارى والغلمان، ولحقه آخرون فكتبوا فى هذين المجالين، وبالمثل كتب عن البخلاء ، ليتحدّث أبو هلال العسكرى عن الكرماء. . ليكتب الخطيب البغدادى فى (التطفيل وحكايات الطفيليّين . .) . كذلك تحدث الجاحظ عن النّوْكَى والحمقى، وتبعه ابن الجوزى فى (أخبار الحمقى والمغفّلين) ليتحدث فى المقابل عن (الأذكياء).

وبينما يكتب محمد بن السّائب الكلبى (كتاب الموءودات) يسجّل محمد بن حبيب (أسماء المغتالين من الأشراف فى الجاهليّة

والإسلام) ، ليكتب محمد بن عبد الله المسبّحى كتابا فى (الغَرَق والشَّرَق) فى ذكر من مات غرَقا أو شرَقا . ويكتب السجستانى عن (المعمَّرين) خاصة ، ليكتب ابنُ الجوزى فى (أعمار الأعْيان) بصفة عامّة. وكما كتب محمد بن حبيب عن (مَنْ نُسب إلى أمّه من الشعراء) ، كتب الفيروزابادى (تُحفة الأَبِيه فيمن نُسب إلى غير أبيه) .

أمّا الأحوال الخاصّة بالمرأة فممّا كتب فيها: (أدب النساء) لعبد الملك بن حبيب، و (المردِفات من قريش) [وهن النساء اللائى تزوجن زوجا بعد آخر] لعلى بن محمد المدائنى، و (النسوة المتعبّدات الصوفيّات) لأبى عبد الرحمن السّلَمى و (نساء الخلفاء) أو (جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء) لعلىّ بن أنجب المعروف بابن الساعى.

هكذا نرى اهتمام المؤلّف العربى بهذه الشرائح والفئات التى لم يكن لها - غالبا - حظّ غيرها من الضوء والشهرة وعناية أصحاب التاريخ العامّ .

ليس غريبا - إذًا - أن يجىء الدّلْجى ليكتب كتابا فى (المفلوكين) وفى الصّوَر المختلفة التى تتبدّى فيها الفلاكة، خاصّة إذا عرفنا أن هناك كتبا عالجت الجانب المضاد - أعنى جانب السعد والتفاؤل - مثل كتاب (المكافأة) لأحمد بن يوسف الكاتب، وكتاب (الفرج بعد الشدة) ، وهو العنوان الذى تنافس عدد من المؤلفين فى تصنيف مادّة تندرج تحته وتحمل العنوان نفسه، منهم ابن أبى الدنيا وعمر بن أبى عمر . . . محمد بن يوسف . . . بن زيد بن درهم

القاضى، وأبو علىّ المحسّن بن أبى القاسم على بن محمد ...
التنوخى صاحب كتاب (المستجاد من فعلات الأجواد) ، لقد كتب
كلّ من هؤلاء المؤلفين - وربما آخرون غيرهم - كُتبا تحمل عنوان
(الفرج بعد الشدّة) وهو العنوان الذى يوحى - رغم ماقد يكون من
اختلاف مذاهب المؤلفين - بعكس مايوحى به العنوان الذى اختاره
الدّلجى لكتابه.

وهناك سبب آخر - لعلّه أهم - لنزع الغرابة عن موضوع مؤلَّف
الدّلجي، ذلك هو العصر والمجتمع اللذان صدر في إطارهما
الكتاب، لقد عاش المؤلِّف - الذى كان حيّا ١٢١٠ هـ / ١٧٩٥ م -
من الناحية الرسميّة فى ظل الحكم التركى، أما من الناحية العملية
فقد كان هناك المماليك الذين كانوا قد بلغوا الغاية فى العربدة
والعبث بمقدّرات المواطنين فى كلّ نواحى الحياة، وكأنما جاء
الكتاب استجابة أو ردّ فعل لتلك الأحوال المتدهورة التى كان يعيشها
المواطنون، والتى رأى المؤلف بنظرته الثاقبة أن حدوثها ليس بأمر
غيبىّ مجهول ، أو لقضاء وقدر ليس إلى دفعه سبيل؛ إذْ هو مؤمن
بأن الله سبحانه «جعل لكل أجل كتابا، وللمسبّبات أسبابا، وربط
المسبّبات بالأسباب وهو خالق الأسباب والمسببات» [ص ١] .

للمسَبَّبات أسبابُها، وهى - أى المسبّبات - مرتبطة بالأسباب .
هذا هو مفتاح تفكير الدّلجي فى كتابه، وهو - كذلك - علة انبناء
كتابه على هذا النحو دون غير، وعلة المواقف الفكرية التى تبناها.

يقع الكتابُ فى ثلاثة عشر فصلاً آخرها يتضمّن مجموعة من
الوصايا «يُستضاء بها فى ظلمات الفلاكة» - كما يقول المؤلف -

وهو فصل غيرُ ذى بال ويكاد يحمل موقفا محايدًا بعكس بقية المواقف التى يقوم عليها الكتاب.

باستثناء الفصل الأخير يمكننا أن نقسم الفصول الاثنى عشر إلى أربع مجاميع يمكن ادّعاء التجانس بين فصول كلّ منها، بصرف النظر عن عدم التتابع بين هذه الفصول.

المجموعة الأولى: تضم فصلا واحدًا، وهو فى التأسيس اللغوى لكلمتى (الفلاكة) و (المفلوك) .

المجموعة الثانية: تضم الفصلين الثانى والثالث، أولهما فى التأسيس الكلامى ، وثانيهما فى التأسيس الصوفى.

المجموعة الثالثة: تضم الفصل الخامس والسادس والسابع والثامن والعاشر والحادى عشر وهى فى تشخيص ظاهرة الفلاكة ، وتعليل غلبتها على فئات كثيرة من المجتمع، خاصة المشتغلين بالعلم منهم.

المجموعة الرابعة: تضم الفصول الرابع والتاسع والثانى عشر، وتتناول التداعيات النفسيّة والاجتماعية، وربما السّياسيّة، للفلاكة.

ولا أجد حاجة للوقوف عند المجموعة الأولى ذات الفصل الواحد، فهى - كما سبق القول - فى التأسس اللغوى للكلمتين اللتين يضمهما العنوان، وقد استخدمتُ كلمة (التأسيس) وليس (التأصيل) نظرا لاعتراف الرجل باستمداد الكلمة الأولى من العجم، ثم لتراوحه فى الكلمة الثانية بين الدلالة المستقاة من الكلمة

الأعجمية ، والاشتقاق الذى سعى إلى إكسابه صبغة عربيّة، وفى صنيعه الأخير شبهة تأصيل، لكن جهده مع الكلمتين معًا يهدف إلى تحقيق الاتّفاق على معنى يمكن الاطمئنان إليه والصدور عنه، مما غلّب أن تكون كلمة (التأسيس) هى الأقرب.

أما المجموعة الثانية - التى تضم الفصلين الثانى والثالث - وقد قلت : إنها فى (التأسيس) الكلامى والصوفى. الفصل الأول من هذين الفصلين يدور حول (خلق الأعمال وما يتعلق به) وهو يعرض للقضية الكلامية التى تكرّر الحديث فيها، والتى تتمثل فى السؤال: أنحن مخيّرون فى أفعالنا نأتيها بإرادتنا أم مسيّرون مدفوعون إلى هذه الأعمال؟ .

وليس من شأنى الدخول فى تفاصيل الإجابة ، ولا التعرّض للفرقتين الكبيرتين اللتين تبنّت كلٌّ منهما إجابة مختلفة - أعنى المعتزلة والسّنّة - **يكفى هنا القول** : إن اختيار الدّلجى، أو لنقل: مَيْلَهُ كان مع المعتزلة فى القول بمسئولية الإنسان عن أفعاله، لأنه يأتيها بإرادته، وهو موقف نابع من إيمانه الذى تضمّنه قولُه السابق: إن للمسبَّبات أسبابَها وهى - أى المسبَّبات - مرتبطة بهذه الأسباب.

أما الهدف من تبنّى هذا الموقف والتسلّح به فهو - بعبارته - «إقامة الحجة على المفلوكين وقطع معاذيرهم، وإلجامهم عن التعلّق بالقضاء والقدر. . ولو سُلِّم أن ذلك من باب القضاء والقدر والصّرْف، أو فرضت فلاكة سماوية صِرفة ، فكلماتُ العلماء فى مجارى أبحاثهم طافحة بأن القضاء والقدر لايحتجّ به . . . وإذا ثبت

أن القضاء والقدر لايحتجّ به فى المعاصى فغيرها كذلك، إذ لا قائل بالفرق؛ لأن العلة التى اقتضت المنع من الاحتجاج بالقدر فى المعاصى مطّردة فى غيرها من أقداره تعالى » [ص ٧].

الإنسان إذًا قادر على أفعاله وهو مسئول عن حظّه من الفلاكة وقادر - لو شاء - على تغيير هذا الحظ.

هذا الموقف الكلامى الصادر عن تبنّى أحد الموقفين الرئيسيين من مسألة الاختيار والجبر.. يتمشى مع موقف المؤلف من مفهوم (التوكّل) و (الزهد)، وهذا هو موضوع الفصل الثالث الذى جاء واضحًا تماما فى عنوانه : «إن التوكّل على الله لايُنافى التعلّق بالأسباب، وإن الزهد لايُنافى كون المال فى اليدين».

ومعنى (التعلق بالأسباب) : الأخذُ بها واصطناع الوسائل وسلوكُ السُّبُل الطبيعيّة المفضية إلى تحقيق المطلوب. وكلّ ذلك - كما يقول الدّلجى - «لاينافى التوكّل بمعناه الاصطلاحى، وهو (دوام حسن ملاحظة القضاء والقدر فى جميع الحوادث دون اقتصار النظر على الأسباب الطبيعيّة) ؛ لأن (دوام حسن الملاحظة) يُجامع (التعلّق بالأسباب) ولا ينافيها. وحينئذ فحركة العبد ببَدنِه، أو تدبيره، إما لجلْب نفع - كالكسْب، أو حفظه [أى حفظ النفْع] - كالادّخار، أو دفع ضُرٌ - كمقاومة الصّائل [= المهاجم أيّا كان] أو قطْعه [= إيقاف الضّرّ] كالتدّاوى . . . فإفضاء الأسباب إليه [أى إلى مراده] إما مقطوع به . . . وإما مظنون ظنّا يوثق به . . . وإما موهوم . . . فالمقطوع به لاينافى التوكّل، وإهمالُه مُراغَمَةٌ [أى معارضة] لحكمة الله تعالى فى نصْب الأسباب وعدم الاكتفاء بالقدرة المجرّدة، وجهلٌ بسنّة الله وعادته » [ص ٨] .

وكما أن التوكّل لاينافى الأخذ بالأسباب، فكذلك الزهد لاينافى وقوع المال فى اليدين (لا فى القلب) دون جزى وراءه أو إعراض متعمّد عنه، لأن المعرضَ عن الدنيا متعمّدًا شأنه شأن من يسعى وراءها جاهدًا . . كلاهما ليس بزاهد، وإنما الزاهد - فيما يرى المؤلّف - هو من يزول عنه المال أو يأتيه فلا يكترث له فى الحالينْ.

هكذا يطّرد الموقف الإيجابىّ للمؤلف، فكما لا ينبغى أن نعلّق فشلنا على القضاء والقدر. كذلك لا ينبغى أن نعلل تقاعسنا بدعوى التوكّل أو الزهد. وكما كان الهدف من الفصل الثانى إلجام المفلوكين وقطع حجتهم فى التعلّق بالقضاء والقدر، كذلك يجىء الفصل الثالث وهدفه «إلجام المفلوكين عن التعلّق بالزهد أو التوكّل فى انزواء الدنيا عنهم» [ص ١٤] .

أما المجموعة الثالثة، والتى تضم الفصول من الخامس إلى الثامن ثم الفصلين العاشر والحادى عشر، فهى فى تشخيص ظاهرة الفلاكة وتعليل غلبتها على فئات كثيرة من المجتمع خاصة المشتغلين منهم بالعلم.

الفصلان الخامس والسابع فى الإقرار بالظاهرة وتأكيد شيوعها، فى الفصل السابع نجد الفلاكة والإهمال والإملاق غالبة على نوع الإنْسان، بينما فى الفصل الخامس نجد الفلاكة والإهمال ألصق بأهل العلم وألزم لهم من غيرهم، هى إذن ظاهرة عامّة، ولكنها أكثر تحققًا وأوضح ظهورًا فى المشتغلين بالعلم.

الفصل الثامن يتحدّث عن الظاهرة وقد رسخت واستقرّت فى نفوس من يعانونها ، إلى درجة أن تصبح حالاً لازمة «ووصفا ذاتيًا للشخص فى أفعاله وأقواله دفعًا وتحصيلا، حُكْمًا وتعليلاً» حيث تدور «الفلاكة الحالية مع الفلاكة المالية وجودًا وعدما» [ص ٥٦] «يوضحّ ذلك أن المال عبارة عن ملك الأعيان والمنافع، والجاه عبارة عن ملك القلوب واستسخار أصحابها فى الأغراض والأعمال . . . والمفلوكُ لاجاه له ولا مال، وكلّ من لاجاه له ولا مال له فهو مسلوب القدرة لما أنَّ الجاه والمال من أعظم أسباب القدرة، أو هما أسباب القدرة، ومن لاقدرة له فهو عاجز عن الوصول إلى مطلوباته لما أنّ مقدورًا بلا قدرة محال» [ص ٥٦] .

هكذا تتحوّل الظاهرةُ فى الفصل الثامن من ظاهرة بسيطة إلى ظاهرة مركّبة. وتبقى أسبابها التى يمكن تقسيمها إلى أسباب عامة وأسباب خاصة.

الأسباب العامة تدور حول الصعوبات والعوائق التى تعترض طريق الإنسان إلى تحقيق السيادة والمجد والثروة والغنى سواء كانت مما يتحقق بالاكتساب عن طريق الحرف - كالتجارة أو الفلاحة ، أو الصناعة [ص ٥٣ ، ٥٤] أو كانت مما يؤول إلى الإنسان بالميراث، فكلا النوعين عرضة لألوان من العوائق الذاتيّة أو الخارجيّة التى تفرض النتيجة الحتميّة الى يقررها الدلجى وهى: « أن الفلاكة غالبة على نوع الإنسان وارثا كان أو كاسبًا» [ص ٥٦].

أما الأسباب الخاصّة فتبدو لصيقة بطائفة المشتغلين بالعلم وتعود إلى أسباب خاصّة بهم، وتدور حول تعارض مثاليتهم التى يعتقدونها

فى نفوسهم مع الاشتغال بالحرف التى يمكن أن تدر عليهم الكسب، كما تتصل بصور من عدم قدرتهم على التكيف مع طرق التعامل التى تجيدها الطوائف الأخرى.

على أن أوضح هذه الأسباب الخاصّة مما وقف عنده الدّلجى هو التحوّل الخطير فى قيمة العلم، وبالتالى فى مكانة المشتغلين به، وهذا مايحمله ، ويدور حوله الفصل السادس، وهو «فى مصير العلوم كمالاتٍ نفسانيةً وطاعة من الطاعات ليس إلاّ، بعد كونها صناعة من جملة الصناعات وحرفة من الحرف» .

وخلاصة الفصل هى التحول فى مكانة العلم والمشتغلين به بين قطبين ، أحدهما يمثل غاية الاهتمام بالعلم والحرص على رعاية أهله، فكانت ثمرةُ الاشتغال به مضمونة وعائده مؤكّدًا ووفيرًا، فى ظلّ ظروف سياسيّة واجتماعيّة شجعت على ذلك، حين «كان التقريبُ والتبعيد والضعة والشّرف على حسب الاستعداد والاستحقاق» ، وهو ما استلزم «كون العلوم والكمالات صنعة من الصنائع وحرفة من الحرف لما أنّ الناس كانوا يرون احتياجهم إلى العلماء فوق احتياجهم إلى الحاكة والباعة والصنّاع وباقى الحرف أضعافا مضاعفة، وكان العلماء يسترزقون بعلومهم ومعارفهم ويتخذونها ذرائع ووسائل إلى مقاصدهم فوق استرزاق الحاكة والخاطة أضعافا مضاعفة» [ص ٤٧] ذلك هو وضع العلم والعلماء إبّان نَفاقه ورواج سوقه.

أما القطب الآخر، أو لنقل : الحال الأخرى التى آلت إليها مكانة العلماء وثمرة العلم، فهى تحوّل العلوم، أو خروجها «عن كونها

صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف» وخروجها بالتالى «عن كونها مظنة الاستحقاق ومطيّة الاسترزاق» [ص ٥٠] أما السبب فهو كثرة «الحوادث السياسية والأمور العقلية المخالفة للشريعة واستغناء الحكام بعقولهم مما يقتضى طَىَّ بساط العلم ويفضى إلى عدم الاحتياج إليه» [ص ٤٩] إذ «العلوم من لوازم الشريعة وتوابعها . . . وإذا ضعف العمل بالملزوم [أى الشريعة] وتُسوهِل فيه، فأولى أن يضعف العمل باللازم ويُتساهلَ فيه . . . إذ الناس على دين مليكهم ، وهم بزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، وأن الملوك أسواق يحمل إليها ما ينفق فيها ، وأن الصنائع تدور مع النَّفاق وجودًا وعدما.

وأن وثوق المحترف من الباعة والحاكة والخاطة بإفضاء حرفهم إلى ثمرتها أكثر من وثوق العلماء بإفضاء علمهم إلى ثمرته الدنيويّة» [ص ٥٠] .

هكذا تغيّرت مكانة العلم ودوره - انحطاطا - ومعه مكانة المشتغلين بالعلم إلى حدّ أصبح معه الاشتغال بالعلم أقرب إلى التعبد وإلى مجرد إرضاء الذات دون انتظار لثمرته الدنيوية التى تجنّب المشتغلَ به التخبّط فى ظلمات الفلاكة .

ولأن الفلاكة لاتقتصر على العَوَز المادىّ فحسب وإنما تشمل صورًا تكاد لاتحصر من سوء الحظ وحلول النحس ؛ ولأنها - كما قال الدلجىّ - ألصق بأهل العلم منها بغيرهم ، يقدّم لنا المؤلف تراجم العديد من العلماء وأعلام الفكر والسياسة الذين لحقتهم الفلاكة ، فتقلصت عنهم دنياهم ولم يحظوا منها بطائل، وذلك فى الفصلين العاشر والحادى عشر، ويصرّح بأن ماذكره فى الكتاب من

هؤلاء مجرّد نماذج، وهو يبدأ الفصل الحادى عشر قائلا : «وأنا أذكر هنا طرفًا لائقا بمقصودى من ذوى النكبات» ويختمه بقوله : «والنكبات كثيرة لاتحصى، وفيما ذكرناه مقنع، فإن الكتاب كله أنموذج ومسوّدة فى بابه، والله تعالى أعلم» [ص ١٢٨] .

فى المجموعة الرابعة يتحدث الدلجى من منظور اجتماعى أولا وسياسى ثانيًا عن الآفات التى تقتضيها الفلاكة وتستلزمها فتنشأ عنها ، وتضمّ هذه المجموعة كلاّ من الفصل الرابع والفصل التاسع والفصل الثانى عشر.

الأول من هذه الفصول فى تعداد تلك الآفات ، والثانى تكملة له بذكر بعض عوائد المفلوكين وأخلاقهم ، وأما الثالث ففى أشعار أولئك العلماء التى تؤكد أن الفلاكة وماتعرضوا له كانت السبب وراء هذه الأشعار .

الآفات التى تنشأ عن الفلاكة وتعترى المفلوكين «أكثر من أن تحصىٰ» - كما يقول الدّلجى - ويتضمن الفصل الرابع كثيرا منها، من بينها: ضيق العطن والنَّزَق [أى انقباض الصدر والاندفاع عند الغضب]. ومنها الإحساس بالقهر، ومنها الحقد بسبب مايلقاه المفلوك من استهانة به وإذلال.

ومنها الغِيبةُ والطّعن فى أعراض الناس بسبب مجاملة الناس للمحظوظين ، حتى بالباطل ، وسترهم محاسنَ المفلوكين وكمالاتهم وإن كانت حقيقيّة .

وهناك الآلام العقلية وهى أقوى من الآلام الجسمانيّة، من هذه الآلام العقليّة تألمهم بسبب تشوّفهم وتشوقهم إلى المعالى مع حرمانهم منها، وتألمهم بذكر نقائصهم والمبالغة فيها، وتألمهم

بسبب اضطرارهم إلى الانفراد والعزلة بخلاف ماعليه طبيعة الإنسان من حاجته إلى التعاون والاجتماع مع غيره.

ومنها كثرة تنقلهم واضطرابهم فى البلاد كلّما ضاقوا ببلد وعجزوا عن التوافق مع أهله، إذ هم لايبالون بما يكون عليه البلد الجديد الذى ينتقلون إليه، فهناك احتمال أن يكون أفضل من البلد الأول، فإذا كان مثله فى السوء، من وجهة نظرهم، فهم لم يخسروا شيئا فى حالة تساوى البلدين فى السوء [الصفحات من ١٥ - ٢٢] .

ومنها تعلقهم [أى اعتقادهم] بالأسباب المستحيلة كالنجوم والكيمياء واحتراف بعض الحرف غير الشريفة ، كشهادة الزور مثلا.

على أن من أخطر ماتفضى إليه الفلاكة هو «تمنى المفلوكين تغيّر الدول وتشوّفهم إلى ذلك» تماما مثل عدم تمسّكهم بمكان واحد، فسواء عليهم المكان الذى يشعرون فيه بالذل ، والدولة التى لاتوفر عليهم كرامتهم، وسواء عليهم المكان الجديد مناسبا أو غير مناسب ، والدولة الجديدة ملائمة أو غير ملائمة ، «فإنَ الدولة الحاضرة كالبلد الأول، والدولة المتَمَنَّاة كالبلد الثانى، وقوة الرجاء وقيام احتمال الخير المتعلّق بالدولة الثانية حكمهُ حكمُ البلد الثانى . [ص ٢٢] .

هذه بعض النتائج التى تنشأ عن اختلال العلاقة بين المفلوك ومجتمعه، أخطرها كراهية المكان وكراهية النظام. وهو ماعبّر عنه الشاعر بقوله:

إذا لم يكن للمرء فى دولة امرئ　　　نصيب من الدنيا تمنّى زوالها

كيف يكون سلوك المفلوك عندئذ؟ الجواب فى الفصل التاسع، إن أحسن أحوال المفلوكين وأليق الصفات بهم وأفضاها إلى

مقاصدهم هى «التملق والخضوع وبسط أعذار الناس والمبالغة فى الاعتذار إليهم وإظهار حبّهم ومناصحتهم» [ص ٥٨] هذه أحسن الأحوال التى يلوذون بها لكى يتمكنوا من معايشة الآخرين. مسلك توفيقىّ له - دون شك - بواعثه النفسية.

وهناك سلوك من نوع آخر ينتمى إلى نظرّية التعويض المعروفة لدى النفسيّين، هذا السلوك هو التعويض بالقول، ذلك مانجده فى الفصل الثانى عشر، وهو «فى أشعار المفولكين... وبيان أن الحامل عليها إنما هو الفلاكة» .

وتؤكّد الكلمات التى بدأ بها الفصل سعة معارف المؤلف وعمقها كما تؤكد قوة ذكائه «اعلم أن الفلاكة إذا استولت على شخص وسلبته القدرة على الأفعال ... انتقل إلى الاسترواح والتّنفّس بالأقوال، وذلك لما أنّ فى الكلام راحةً وفرجًا وتنقيصا من ألم الباطن . . . وإذا اتضح أن فى الأقوال تنفّسًا وراحة ولذة وتنقيصا من آلام الباطن . . وضحت الحكمة فى انتصاب المفلوكين خطباء وشعراء وحكماء، فمرّة يسلّون أنفسهم بترجيح الكمالات النفسانيّة على الكمالات الماليّة بالأدلة الخطابيّة والتشبيهات الشعريّة، ومرة يذكرون عوارضهم اللازمة بمقتضى الفلاكة ، ويصوغون عنها أعذارًا وحكمة وتشبيهات رائقة وكلمات فائقة، تنقيصا من قبح صورتها، وليشغلوا الناس بما أوردوه فيها من محاسن الكلام عن الفكرة فى صورتها الشنيعة. ومرّة يسابقون إلى ذكر نقائصهم ويجعلونها رقة أدبيّة أو نكتة شعريّة أو كلمة هزليّة قبل أن يذكرها غيرهم عنهم ليصرفوا الناس عن الاشتغال بها» [ص ١٢٩] .

وتحمل عبارات المؤلف إدراكا سليما لدوافع حديث المفلوكين عن عوارضهم وكيف يتسابقون إلى التندّر بها والسخرية منها. إلى جانب ماتقدم يلفتنا بوعيه الدقيق **بإمكان صدور أشعار تعالج عوارض الفلاكة من أشخاص ليسوا فى عداد المفلوكين**، ويقول: إن ذلك إنما يكون منهم «بلسان المفلوكين وشرحًا لحالهم ونيابة عنهم ورحمة عليهم أو عند عارض فلاكة حقيقية» .

وهو بهذه الكلمات يضعنا أمام نظريتى الإبداع الكبيرتين : الخلْق والتعبير ، **الخلق** عندما يتمثل غيرُ المفلوك حالة المفلوك وأحاسيسه ويقول شعرًا يعادلها. **والتعبير** عندما يقول هذا الشعر لعارض فلاكة حقيقيّة، أى لمروره بتجربة فلاكة واقعية.

هذا، ويحمل الكتاب كثيرًا من آثار ثقافة المؤلّف ومطالعاته، ومن الواضح - على سبيل المثال - شدةَ تأثره بابن خلدون، كما أن من الممكن أن يلمح المتأمّلُ آثار مؤلفاتٍ سابقة عليه غير مشهورة، وذلك مثل كتاب **(مشاكلة الناس لزمانهم)** لأحمد بن إسحاق اليعقوبى (ق ٣هـ) وكتاب **(الآمل والمأمول)** الذى تتراوح نسبته بين الثعالبى والجاحظ.

وبعد فكتاب (الفلاكة والمفلوكون) يمثل نصّا شديد الجذب لكل من المؤرخ وعالم النفس وعالم الاجتماع وصاحب التاريخ وصاحب علم الكلام ودارس الأدب .

أضيف أنه بما تضمن من كلمات خاصة وصيغ لافتة يمثل نصّا جاذبا لدارس اللغة أيضا، وعلى سبيل المثال :

كلمة (الرهابين) جمع راهب [ص ١١].

كلمة (استهوانا) بمعنى استهانة، وهى غير شائعة [ص ١٥].
كلمة (الأقارير) جمع إقرار [ص ٣٤].
كلمة (مورِّق الكتب) وهى فصيحة ولكنها غير شائعة [ص ٣٥].
كلمة (الكمال الخارجانى) [ص ٣٨].
كلمة (العِياط) وهى كلمة مولّدة بمعنى البكاء [ص ٤٠].
كلمة (ظلمانيّة) : «نفوس الناس غالبا ظلمانيّة» [ص ٥٣].
كلمة (الاستسخار) بمعنى الانقياد والخضوع [٥٨، ٥٩].
كلمة (سيّبة) بمعنى : تركه وخلاه، وهى فصيحة مستخدمة فى العامية [ص ١٢١].
كلمة (تداريس) وهى كلمة غريبة فى صيغتها، وغريبة إلى حدّ ما فى معناها . «فالمترجمون يذكرون تداريس لا يُعبأ بها فى بعض التراجم» [ص ١٢١].

وقد قدّم الدّلجى فى الفصل الثانى عشر مجموعة شعرية عالية القيمة فى موضوعها، ومع مايبدو من كلامه من معرفته بالشعراء الذين اختار من اشعارهم. فإنه لم يذكر من أسمائهم إلاّ القليل كما لم يُحِلْ على مصادره فى اختياراته. . الأمر الذى يشير إلى حاجة الكتاب لتحقيق جدِيد يتلافى كلّ هذه المآخذ.

والواقع أن الحماس لنشر الكتاب قد غلب على التفكير حالّيا فى تحقيقه تحقيقا كاملا، وقد حاولتُ أن أتلافى كثيرًا من الشوائب فى الطبعة التى صُوّر عنها الكتاب، والتى صدرت عن مكتبة ومطبعة الشعب سنة ١٣٢٢ هـ ومن هذا القبيل:

- محاولة إبراز المواضع المهمة فى النص - بوضع خطوط تحتها أو كتابتها بالخط الأسود.

- توحيد الأقواس التى تضم عناوين الفصول.
- ضبط أكبر عدد من الكلمات التى كان من الضرورىّ ضبطها.
- تصويب عدد غير قليل من الكلمات التى طبعت خطأ من البداية.
- إتْباع نصّ الكتاب بملحق محدود يضم شرحًا لبعض المفردات وتعريفا ببعض الأعلام، فى محاولة لخدمة النص قدر الإمكان دون التدخل فيه ، وهى فكرة أشار بها الأستاذ محمد السيد عيد، حين حدثته عن استحالة التدخل فى صفحات النص المطبوع.

وبعد . . . **عزيزى القارىء** . . لم تكن الذخائر لتبذل هذا الجهد لولا إيمانها برسالتها ولولا حرصها على أن يصل إليك الكتاب فى أجمل صورة وأصحّها بعد اطمئنانها إلى أهمية مادته. فذلك هو حقّك عليها وواجبها نحوك دون مقابل اللهم إلاّ إفادتك وحسن استقبالك لما تقدمه إليك .

عبد الحكيم راضى

مقدمة هذه الطبعة

الأستاذة الدكتورة زينب محمود الخضيرى :

- تخرجت فى آداب القاهرة ١٩٦٦ .
- حصلت على الدكتوراه فى ١٩٧٩
- تدرجت فى سلك هيئة التدريس وحصلت على درجة أستاذ فلسفة العصور الوسطى سنة ١٩٩٥ .
- عضو لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- مقررة لجنة إعداد معجم مصطلحات الفلسفة الإسلامية بالمجلس نفسه .
- عضو لجنة الفلسفة والأديان بمكتبة الإسكندرية . .
- رئيس قسم الفلسفة بآداب القاهرة ٢٠٠١ .
- **لها من المؤلفات :**

* فلسفة التاريخ عند ابن خلدون .
* أثر ابن رشد فى فلسفة العصور الوسطى .
* ابن سينا وتلاميذه اللاتين، وقد حصلت به على جائزة الدولة التشجيعية فى الفلسفة .
* لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين .

الفلاكة والمفلوكون

تقديم

د/ زينب محمود الخضيرى

كل شىء عجيب فى هذا الكتاب، فمؤلفه أحمد بن على الدّلجى مصرى يكاد أن يكون مجهولاً بل هو مجهول بالفعل. لم يذكر الجبرتى عنه شيئا فى «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» ، أما بروكلمان فلم يذكر عنه إلا أمرين، يحتمل أولهما الصواب والخطأ ، وهو تاريخ وفاته فى ١٢١٠ هـ - أى ١٧٩٥ م - أمّا ثانيهما ، وهو أن كتابه اليتيم «الفلاكة والمفلوكون» فى الفقه الشافعى[١]، فخاطئ لكونه بعيدًا عن الفقه كل البعد، إذ إنه يعالج قضية اجتماعية شديدة الأهمية ، وهى قضية «الفلاكة» أى الإهمال والتهميش والفقر والحرمان . . إلخ.

وهو لم يكتف بطرحها كقضية اجتماعية وإنما طرحها أيضًا كقضية كلامية وأخلاقية ونفسية. والكتاب - الذى هو امتداد لمشروع ابن خلدون الذى مات ودُفن فى مصر والذى قرأ الدلجى مقدمته فى أغلب الظن - يحمل عنوانًا أعجميًا بحجة أنه أكثر إيحاءً

من المقابل العربى. ويصفه صاحبه بنعوت غريبة على القرن الثامن عشر فى مصر، فهو «تقرير»، وبحث فى «الأمور الدنيوية» ينأى عن الخلط بين الأمور العلمية والأمور الدنيوية، وهو «مسودة» ، و«أنموذج»، و«برنامج» فى هذا المطلوب (العلمى) و«فتح لباب عسى أن يلج فيه من حركه الله لذلك»[٢].

وتشيع فى الكتاب كله هذه الرغبة المحمومة فى الكشف عن عناصر «الفلاكة والإهمال والحرمان»[٣]، تلك الظاهرة أو الآفة التى لم يمنحها أحد من قبله هذا القدر من الاهتمام.

طرح الدلجي لأول مرة - حسب علمي - فى كتابه صغير الحجم عظيم الأهمية، مشكلة الفقر والإهمال والتهميش على بساط البحث العلمى، فاعلاً ذلك بوعى كامل، فى نهاية القرن الثامن عشر. ولنذكر هنا أنه توفى بعد قيام الثورة الفرنسية بست سنوات وقبل الحملة الفرنسية على مصر بثلاث سنوات، وقبل أن ينتهى أوجست كونت من محاضراته الشهيرة فى الفلسفة الوضعية بسبعة وأربعين عامًا.

استخدم الدلجى منهجى الاستقراء والقياس، وعول على دراسة الواقع وسبر غوره، ووظف التاريخ والتراث الإسلامى كله، وهو وإن استعان أحيانًا بالعقيدة تدعيمًا لآرائه، فقد حرص على المستوى النظرى على إعلان ضرورة الفصل بين المقدس والدنيوى.

وللكتاب مِيزة أخرى لابد من الإشارة إليها قبلَ الغوص فى تفاصيله، ألا وهى كونه دليلاً قاطعًا على أن مصر لم تخل أبدًا، فى أحلك العصور، من أبناء يصوغون من مشاكلها إبداعًا يستشرفون به حلاً وخلاصًا.

(١)
تعريف المفلوك وفلاكته

بدأ الدلجى كتابه بخطوة منهجية سليمة ألا وهى التعريف، تلك الخطوة التى عبر عنها بوضوحِ عنوانُ فصله الأول: «فى تحقيق معنى المفلوك». وكلمة تحقيق هنا توحى بأن كلمة مفلوك ليست كلمة شائعة، وأنها جديرة بالتوقف عندها لتحديد معناها، كما توحى بأن ثَمَّ اختلافًا بصددها.

ولذا فهو يفتتح هذا الفصل بقوله : إن هذه اللفظة جاءتنا من «أفاضل العجم ، ويريدون بها بشهادة الاستعمال : الرجل غير المحظوظ المهمل فى الناس لإملاقه وفقره»[٤]، ويقول : إن القواميس العربية لا تحتوى على مقابل لها مما اضطره لاستخدامها لقدرتها على التعبير عن الظاهرة المعقدة التى كرس كتابه لدراستها.

واختيار الدلجى البدء بتحقيق معنى المفلوك لا الفلاكة له ما يبرره فى رأيى. لم يكن الدلجى يهدف لدراسة ظاهرة الفلاكة المجردة

وإنما كان يطمع فى دراسة «حالة» المفلوك بكل جوانبها الاجتماعية والنفسية والأخلاقية ، بل والكلامية المتغيرة بتغير الظروف والأحوال ، والتى يتغير تعينها بتغير الإطار الذى تتحقق فيه وهو الدولة أو بتعبير أدق : السلطة. وجدير بالذكر أن الكتاب كله يشيع فيه هذا الإيمان الشديد بمفهوم التغيّر أو التطور الذى يشمل كافة جوانب الحياة أو الذى هو قانون يحكم كل الوجود.

ناقش الدلجى بمنهج علمى بالغ الدقة - بهدف تحقيق معنى كلمة مفلوك - إمكانية اشتقاق الكلمة من كلمة عربية هى الفلك، يقول : «والذى يظهر أنه - أى لفظ (مفلوك) - مأخوذ من الفَلَك الذى هو جسم محيط بالعالَم ، فكأنّ الفلك يعارضُ غير المحظوظ فى مراده ويدفعه عنه».

وهو يردّ على معارضى هذا المعنى الذين استندوا إلى ماتقرّر فى الكتب الكلاميّة من أن الله تعالى هو خالق كلّ شىء ، وأنه لا دخل لحركة الأفلاك فى السُّعود والنحوس. ويرى أن إطلاق كلمة (المفلوك) على غير المحظوظ هو من قبيل (المجاز العقلى)، من باب نسبة الشىء إلى زمانه .

ثم يقول : «فقد صحّ بهذا التقرير جوازُ أخذ المفلوك من الفلَك على معنى أنه الذى يعارضه الفلك فى مراده على جهة التجوّز . ولو سُلِّم أن السعود والنحوس لاتدور مع حركات الأفلاك دائما . . لم يكن ذلك قادحًا فى صحة التجوّز ؛ لأن إضافة الفعل إلى زمانه

مجازًا لاتحتاج إلى كون القضية دائمة كما فى قولهم : نهاره صائم وليله قائم وأمثاله مما لا يحصى » .

فإذا جاء إلى لفظ (الفلاكة) رأيناه يقرر أن اللغة اصطلاحية ، وأن الألفاظ التى يدير عليها أهل كلّ علم علمَهم - كالرفع والنصب للنحاة - اصطلاحيّة ، وأنه قد اختار لفظ (الفلاكة) على ألفاظ (الفاقة) و (الإملاق) و (الفقر) ونحوها . . لأن هذه الألفاظ الثلاثة ونحوها صريحة فى مدلولاتها المحددة ، بخلاف لفظ (الفلاكة) و (المفلوك) فإنه يتولد منهما بمعونة القرائن معان لائقة بالمقامات على كثرتها وتفاوتها » [٥] .

كلمتا الفلاكة والمفلوك إذن كلمتان أعجميتان اضطر لاختيارهما لثرائهما من حيث دلالتهما ومعانيهما المتعددة.

وقبل أن نمضى فى حديثنا نود الإشارة إلى أن الدلجى استخدم أحيانًا كلمة المفاليك بدلاً من كلمة المفلوكين (على سبيل المثال فى صفحات ٢ ، ٥٤ ، ٥٩) وكلمة المفلوكية بدلاً من كلمة الفلاكة (صفحة ٥٧ على سبيل المثال).

فى تعريفه للمفلوك خلط الدلجى بين هويته وحالته من جهة ، وبين أسبابها من جهة أخرى ؛ فهو عنده «الرجل غير المحظوظ المهمل فى الناس لإملاقه وفقره»[٦] . مما قد يعنى أن القطبين يتبادلان الأدوار فى الفلاكة فقد تصبح العلة معلولاً وقد يتحول المعلول إلى علة.

ومما فسر به ظاهرة الفلاكة التى رآها ظاهرة عامة تقصير المفلوكين فى عملهم وعدم إتقانهم له، فهم «يرمِّقون العيش ترميقًا» مما ينتهى بهم إلى «الإملاق أو فوقه بقليل»[٧].

ويضيف لنا عنوانُ الفصل العاشر عنصرًا جديدًا لهذا التعريف، فالمفلوكون هم: «الذين تقلصت عنهم دنياهم ولم يحظوا بطائل»[٨]. وعندما يختتم كتابه بدعاء الله بأن يجنبه الفلاكة والإهمال و«الحرمان»[٩]، فهو يضيف مرة أخرى عنصرًا جديدًا بهذا المفهوم المعقد لتعبيره عن ظاهرة شديدة التركيب.

ولم يكتف الدلجى بمحاولة التعريف الصريح المباشر بل لجأ أحيانًا لوسيلة الاستعانة على تعريف الشىء بنقيضه، **فيعرف الفلاكة بأنها نقيض «المجد والسيادة الكسبية»**[١٠]. المفلوك إذن هو الفقير غير المحظوظ والمحروم الذى لم يحقق مجدًا أو مكانة أو جاهًا، وهو الذى ساهمت الظروف مع تقاعسه وسلبيته، فى جعله غير متحقق، وغير مشارك، ومهمشًا.

والفلاكة عند الدلجى أربعة أنواع وإن جعل **أولها** - **وهي الفلاكة المالية** - علة للأنواع الأخرى. وهو يعرف صاحبها بأنه «غير محظوظ فى أمور الدنيا المالية»[١١].

والمفلوك المالى، نتيجة لصفاته النفسية، يصنع فلاكته، إذ يصبح عاجزًا عن كسب قوته بالوسائل «الطبيعية»، بل يميل إلى «التعلق بالأسباب المستحيلة مثل التنجيم والكيمياء»، وإلى الاشتغال

بِحرَفٍ غير مستقرة ولا تحتاج لجهد حقيقى، وهى تلك الحرف التى يسميها بـ «الحرف الهوائية الضعيفة الصدفية» من قبيل «صناعة الشهود لغير المعروف والدلالة لغير المشهود»، وهى حِرَف غير دائمة فقد تتيح فرص العمل وقد لا تتيحها. وهى لا تحتاج لبذل الجهد ولا لاكتساب مهارات حقيقية لامتهانها، وهى - وهذا هو الأهم - تتفق وطبيعة المفلوك الذى يقنع دائمًا «بالتمنى» لاعتياده الاعتماد على غيره، وعلى البحث عن السعادة من غير أبوابها[١٢]. فماهيّة المفلوك إذن هى التى تدفعه دفعًا إلى الفلاكة وإن بدا عليه أنه حر فى اختياره.

أما النوع الثانى من الفلاكة **فهو الفلاكة الحالية** التى تستلزمها الفلاكة الأولى - أى الفلاكة المالية - ويعرفها بأنها «تعذر المقاصد وانعدامها بحيث تصير الفلاكة حالاً ووصفًا ذاتيًا للشخص فى أفعاله وأقواله دفعًا وتحصيلاً، حكمًا وتعليلاً»[١٣].

وتفسير ذلك أن الفلاكة المالية إذا دامت طويلًا بات من الصعب التغلب عليها فتصبح هوية وكينونة ثابتة تحدد شخصية صاحبها وميوله وأفعاله. ولأن الفلاكة المالية - التى هى أساس الفلاكة الحالية - هى انعدام الجاه والمال ولأن كل ما لا جاه ولا مال له مسلوب القدرة، فإن المفلوك يصبح عاجزًا عن تغيير وضعه فيستقر فيه[١٤].

أما النوع الثالث من الفلاكة **فهو الفلاكة المعنوية** وقوامها «الأوصاف المخالفة للمحاسن الطبيعية أو لمحاسن الشريعة ، من الأفعال المحرمة أو الأفعال المكروهة والأخلاق المذمومة».

وقد خصص الدلجى الفصل الرابع لمعالجة «الآفات التى تنشأ من الفلاكة وتستلزمها الفلاكة وتقتضيها»، فأوضح فيه أن الفلاكة المالية علة للفلاكة المعنوية ومعلولة لها فى آن واحد، مما يعنى أن العلاقة بينهما علاقة جدلية.

وعناصر الفلاكة المعنوية التى هى افتقار للأخلاق والدين معًا «أكثر من أن تحصى»، وكلها ناجمة عن القهر والإكراه اللذين تفرضهما الفلاكة المالية. وجعل الدلجى على رأس عناصر الفلاكة المعنوية «الكذب وفساد الطوية والخبث والخديعة» إلى أخر هذه القائمة من النقائص التى سبق الحديث عنها عند حديثنا عن ماهية المفلوك(١٥).

ألا يعنى هذا أن الأخلاق عند الدلجى هى نتاج للعلاقات الاجتماعية - الاقتصادية؟

أما النوع الرابع وهو أقسى أنواع الفلاكة، وأكثرها إيلامًا فهى فلاكة أهل العلم التى يطلق عليها **الفلاكة اللفظية**. وهذه الفلاكة إذا ما استولت على «عالم أو فاضل أو نبيه لزمه بسببها آلام عقلية، ولا شك أن الألم العقلى أقوى من الألم الجسمانى»(١٦). وهى أيضًا نتاج للفلاكة المالية شأنها فى ذلك شأن الفلاكتين السابقتين، وإن

اختلفت عنهما فى أنها ليست نقصًا وفقرًا وافتقارًا فى أصحابها، إنما هى تعبير عن آلامهم التى تسببها لهم فلاكتهم المالية، وهى وسيلتهم للخلاص من هذه الآلام بالتنفس أو بالتنفيس بالأقوال تعويضًا عن العجز الذى لحق بهم نتيجة لسلب الفلاكة إياهم قدرتهم على الفعل.

يقول الدلجى: «فى الكلام راحة وفرج وتنقيص من ألم الباطن، فالأفذاذ وحدهم هم الذين يتحملون الكتمان والكبت». ولهذا يبرز من بين المفلوكين الموهوبين خطباء وشعراء وحكماء، يبررون فلاكتهم، أو يسخرون منها، أو يستخلصون منها الحكم والمواعظ، أو يرفعون من شأن أنفسهم بإبراز «كمالاتهم النفسانية» التى هى أجلُّ من «الكمالات المالية»[١٧].

وكان طبيعيًا أن يتوقف الدلجى طويلاً عند الفلاكة العلمية وأن يجتهد فى تأصيلها تاريخيًا. كانت العلوم فى العالم الإسلامى فى عصره الذهبى «حرفة من الحرف وصناعة من الصنائع» لاحتياجه لمنظومة هائلة من العلوم المتكاملة لفهم وتفسير وتفعيل «الكتاب والسنة والحكم الشرعى».

وتفسير ذلك أن المسلمين حرصًا منهم على شريعتهم «الناسخة لجميع الشرائع» والباقية الأحكام «بقاء الدهر»، انكبوا عليها دراسة ؛ فهى دستور حياتهم المحقق لسعادتهم دنيا وآخرة. وضمت هذه المنظومة العلمية علومًا لغوية وعلومًا قرآنية، وعلومًا عقائدية، وعلوم الأوائل من منطق وفلسفة طبيعية وميتافيزيقية ورياضة.

كانت الشريعة «مستلزمة للعلوم»[١٨]، إلا أن دوام الحال من المحال، ولذا تغيرت الأوضاع بسبب ما طرأ على السلطة الحاكمة من تغير. «تغير الأحوال إنما هو بتغير الملوك وتتجدد العوائد بحسب أحوال الملوك» .

هذا التفسير السياسى العميق للفلاكة العلمية يكشف عن قناعة الدلجى بأن السلطة واحتياجاتها تلعب دورًا مهمّا بل وأساسيًا فى قيمة ورواج العلوم أو تراجعها . ففى عصر الازدهار كان العلماء هم «ملوك الناس»[١٩] إذ كان الناس « يرون احتياجهم إلى العلماء فوق احتياجهم. إلى الحاكة والباعة والصناع وباقى الحرف أضعافًا مضاعفة. وكان العلماء يسترزقون بعلومهم ومعارفهم ويتخذونها ذرائع ووسائل إلى مقاصدهم . . فلذلك اتسع نطاق العلم ودونت الدواوين وصنفت الكتب وهذبت ورتبت وبسطت واختصرت»[٢٠].

يصوّرُ الدلجى العلم إذن على أنه حرفة وصناعة وبضاعة تتحكم فيها قوانين السوق ، وعلى رأسها قانون الاحتياج أو العرض والطلب شأنه شأن أى بضاعة أخرى. كما يصوره على أنه وسيلة من وسائل السلطة لتحقيق السيادة والسيطرة.

ما أشبه الأمسَ باليوم (وما أشبه هذا التحليلَ بتحليل الفيلسوف الفرنسى المعاصر ميشيل فوكو الذى عنى بتحليل السلطة وآليّاتها، والذى عُنِيَ أيضًا مثل الدّلْجِىّ - ويا للعجب - بالمهمَّشين) .

وينبه الدلجى إلى أن هذا الوضع والمكانة التى كانت للعلوم قد زالا. وكعادته يفسر هذا الانقلاب أو التبدل (وهما مصطلحان خلدونيان) بقانون خلدونى شهير، قانون يعبر فى جوهره عن حتمية التطور الذى ينتهى إلى الانهيار والفساد.

يقول الدلجى: «إن الحِرَفَ والدول لها شباب وهرم ولها عمر طبيعي كأعمار الحيوانات، والأمور المعنوية تتراجع وتتناقص عند التناهي كالأمور الحسيَّة»[٢١]. لقد تراجع الاهتمام الحقيقى بالعلوم التى تستلزمها الشريعة تراجعًا طبيعيًا يتفق وسنن الوجود الاجتماعى، لتحل محله اهتمامات أخرى كانت تتغير بتغيرات الواقع أى بتغيرات الاحتياجات.

ويستعرض الدلجى هذا التطور التاريخى قائلاً: «استعجم المُلْك وتجددت فيه أحوال فارس والعجم من الملابس الفاخرة والمساكن الأنيقة والحجاب. والوزراء. وأصناف أمراء ووظائف وأسماء لم تكن فى عصره - ﷺ - . وزالت أحوال البداوة من خوف المذمة وشدة الحياء والكرم والبذل فى المأكل والملبس والمركب. وحدثت الحوادث وكثرت الخوارج والمتغلبون على العباسيين» الذين كانوا قد استندوا فى سيادتهم وسلطتهم إلى «نسبهم إليه - ﷺ - ونزلت سيادتهم فى شريعته المستلزمة للعلوم». وبعد أن كان العباسيون «يديرون أفعالهم على محط الشريعة» جاء من بعدهم من «أدخل فيها جملة من السياسة».

والمقصود بالطبع هنا السياسة العقلية غير الشرعية. وتعاظم حجم التعويل على العقل فى السياسة إلى أن بلغ الأمر «بجنكيزخان» أن زعم أنه «يوحى إليه» أى أنه ادعى أنه صاحب شريعة بديلة » واستغنى الحكام بعقولهم عن الشريعة مما اقتضى «طى بساط العلم. (و) عدم الاحتياج إليه». ونتيجة لعدم الاحتياج للعلم الشرعى فتر الاهتمام به فلم يعد ينتج فيه جديد، فتحول إلى تراث غير فعال يكتفى «بالاستدلال به وروايته على سبيل الاستحلاء والاستحسان»[٢٢].

لمس الدلجى مشكلة التراث وأحسن تفسيرها ولم يعاند ولم يتصلب فيدعو إلى ضرورة التمسك به بشكل مطلق، كما يفعل البعض فى يومنا هذا، إنما تقبل ما آل إليه هذا الموروث إدراكًا منه أن الزمان لا يعود للوراء وأن البقاء لما يحقق مزيدًا من النفع للحياة. لم يعد هذا الموروث يؤتى «ثمرته الدنيوية»[٢٣] فتراجعت فاعليته لتراجع احتياج الناس إليه.

ويختتم الفصل السادس وعنوانه: «فى مصير العلوم كمالات نفسانية وطاعة من الطاعات» بإشادة بالعلماء وبدورهم الجليل ولسان حاله يقول: «ما أبعد الشقه بين ما ينبغى أن يكون وبين واقع الحال المتردى » . ويفسر ما جاء فى الحديث النبوى من أن العلماء «كالنجوم» بأن «النجوم يقتدى بها فى ظلمات البر والبحر وتكون رجومًا للشياطين، والعلماء كذلك يقتدى بهم فى ظلمات الجهل والكفر وتُرجم بهم الشياطين»[٢٤].

أدان الدلجي هذا التراجع فى الاهتمام بالعلم وهذا التهميش له مما جعل أصحابه يعانون من الفاقة مستندًا إلى كون العلوم فى جوهرها «كمالات نفسانية وطاعة من الطاعات»، كما جاء فى عنوان الفصل السادس. هى كمالات بالمعنى الأرسطى أى أن ماهية الإنسان لا تتحقق ولا تكتمل إلا بتحققها، وبدونها لا يكون إنسانًا حقًا.

فالإنسان يتميز عن سائر الحيوانات بالنطق، أو «بالنفس الناطقة» ذات «الفكر والروية» - (وهو نفس ما ذهب إليه ابن خلدون بالضبط فى تعريفه للإنسان) - و «محبة العلم والمعرفة . وحياتها بالعلم والبيان». وبدون تحقق هذه النفس الناطقة بكل خصائصها يكون الإنسان شبيهًا بسائر الدواب فلا يملك إلا «الحيوانية المحضة» التى تجعله أكثر شرًا كما جاء فى قول الله تعالى «إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون» فالعلم هو «حقيقة الإنسانية» كما أن الجهل هو «من أعظم الأدواء والأمراض». ويذكر الآيات التى جاء فيها ذلك[٢٥].

دعا الدلجي إذن إلى استعادة العلم لمكانته وفاعليته على أن يكون متناسبًا والواقع، ملبيًا لاحتياجاته، معينًا على حل مشاكله، واستعان فى كل هذا بالتاريخ وبالفلسفة وبالكتاب وبالحديث، فلم يغفل أيًا من هذه الأمور ولم يغلب أحدهم على الآخر، وهذا هو المطلوب.

وكما عالج الأصل التاريخى للفلاكة العلمية عالج أسبابها الشخصية والاجتماعية. أما الأسباب الشخصية فمنها افتقار أصحابها للملكات أو للصفات سواء أكانت إيجابية أم سلبية لا أخلاقية وهى التى يتطلبها امتهان الحرف الثلاث: الزراعة والتجارة والصناعة. ومنها تعاليهم على هذه الحرف فيقعدون عن الاكتساب متعللين بالأمانى الكاذبة، فيقعون فى الفاقة والإملاق. ومنها تقديرهم الفائق لذاتهم والذى لا يمنحهم إياه الناس فى هذا العصر - عصر الدلجى وعصرنا أيضًا - لأنهم «لا يقيمون لعلومهم ومعارفهم وزنًا». ومنها أن أهل العلم لاعتيادهم الاستغراق في العلم وفي «الكليات» وفى الأنظار الدقيقة المفارقة للواقع ينفصلون عنه فيعجزون عن مسايرة الحياة العملية، وبالتالى عمّا يوفر لهم حياة كريمة «فيقعون فى الفاقة والإهمال»[٢٦].

أما الأسباب الاجتماعية للفاقة اللفظية فمنها أن العلم شأنه شأن أية بضاعة يخضع لقانون العرض والطلب. وكانت بضاعة العلم قد ركدت فى عصر الدلجى «لعدم احتياج جمهور الناس إلى ما بأيديهم احتياجًا لازمًا لا مندوحة عنه . . ولما أن العلوم مباينة لطبائع البعض ومهجورة عند البعض ومستثقلة على البعض»[٢٨].

أما أكثر العلماء معاناة للفلاكة العلمية فهم «أصحاب علوم الأوائل من الحكمة والفلسفة والطبيعة والمنطق والجدل والطب وكلام الأقدمين والتصوف الممزوج بالفلسفة والمتبحرين فى

التشكيكات». وذلك لأنهم عادة لا يلتزمون بأحكام الشريعة ولا يعنون بالعلوم الدينية، فينصرف الناس عنهم ويحرمونهم من عطاياهم التى يقدمونها لهم عادة فى مقابل «بركاتهم والاستنجاح بأدعيتهم . . » بل قد يصل الأمر إلى حد رميهم «بالزندقة والإلحاد فتستحكم الفلاكة فيهم»(٢٨). وغنى عن القول أن هذا التحليل لا يصدق على المشتغلين بالفلسفة اليوم، فالحمد لله ابتعدت عنهم الفلاكة حتى وإن رُموا بالزندقة.

أما ألطف الأسباب التى يقدمها الدلجى للفلاكة العلمية فهو تعالِى أصحابها وخاصة أهل الفلسفة منهم على «الكمالات الخارجانية من المال والحياة»(٢٩). وأترك هذا السبب بدون تعليق وإن كان من حقى الإشادة ببراعتنا فى حل هذه المفارقة التى افترضها الدلجى بين الكمالات الخارجانية والكمالات المعرفية، فدوام الحال من المحال فالتطور يعمل دائمًا عمله. أما آخر أسباب الفلاكة العلمية فهو كون الاشتغال بالعلم قد كفَّ عن أن يكون صنعة أو حرفة أى وسيلة لكسب العيش فى عصر الدلجى(٣٠).

(٢)

الفلاكة وسبل المعاش

(الطرح الاقتصادى التحليلى)

بما أن السبب الرئيسى للفلاكة أيًا كان نوعها هو عدم بذل الجهد والعمل لتوفير متطلبات الحياة، فمن واجبنا عرض تصور الدلجى لسبل المعاش أو الحرف والأعمال المختلفة. ومن اللافت للنظر أن معالجة الدلجى لهذا الأمر اختلط فيها الجانب الاقتصادى بالجانب الاجتماعى بل وبالجانب السياسى فى بعض الأحيان.

الحرف أو الصنائع أو سبل المعاش قسمان عند الدلجى: «قسم يلزم من العلم به وإجادته الحصول على ثمرته» وهو ما يطلق عليه اسم «المعاش الطبيعى»، و **«قسم لا يلزم بل لا بد من ضميمة أخرى»**، وهو ما يطلق عليه اسم **«المعاش غير الطبيعى»**[٣١].

ولقد توقف الدلجى طويلاً عند هذا القسم الثانى الذى يطلق على بعضه اسم «الحرف المستحيلة» ويطلق على البعض الآخر اسم «الحرف الهوائية» أو «الأرزاق الخطفية الصدفية»[٣٢] (ولا يخفى ما فى اختيار الألفاظ من توفيق عظيم)؛ وعنى به أكثر مما عنى بالقسم الأول بأنه بيت الداء ولأنه المشكلة التى ينبغى التصدى لها ولأنه من أهم أسباب الفلاكة.

وكعادته يبدأ بالتعريف أو «بالحد الرسمى» فهذه الحِرَفُ «لا يلزم من العلم بها وإجادتها الحصول على ثمرتها»[٣٣]. وعادة لا يلجأ الناس لهذه الحرف إلا إذا عجزوا عن كسب المعاش بالطرق المألوفة التى تتطلب علمًا أو خبرة أو أخذًا بالأسباب، فتصيبهم الحيرة فيرتبكون ويضيع منهم الطريق، فيضطرون إلى اللجوء لدائرة الوهم والأحلام غير المضمونة، فينحرفون إلى (سكة الندامة) وإلى الفلاكة بما لها من عواقب وبما تسبب من آفات.

يقول فى الفصل الرابع عن أسباب الفلاكة: «ومنها تعلقهم بالأسباب المستحيلة كالنجوم والكيمياء والمطالب والحرف الهوائية الضعيفة الصدفية كصناعة الشهود لغيْر المعروف والدلالة لغير المشهود ، والسبب فى ذلك أنه إذا أخفقت مساعى المفاليك وعجزوا عن المعاش الطبيعى والتعلق بالأسباب المقيسة المطردة ودهشوا وتحيروا . وتعلقت نفوسهم بالدنيا ولذاتها تمنوا الأمانى وقنعوا بمخادعة الإملاق بالمواعيد الكاذبة واستنشقوا الغنى من حيث لا تهب ريحه وأتوا السعادة من غير أبوابها»[٣٤].

أما التنجيم فهو عنده من «الأسباب المستحيلة» لأنه ليس علمًا؛ فالعلم عند الدلجى هو الذى يبحث عن «مجرى التأثير الطبيعى على حَسَب ما نصه سبحانه». يتضح من هذا أن تصور العلم عنده مشابه لتصور العلم عند ابن خلدون ، ولتصوره عند محمد عبده من بعد، فهو بحث إنسانى عن الارتباط الحكمى الموجود بين العلل

والمعلولات فى الطبيعة، وإن كان هذا الارتباط مما خلقه الله ونظمه بما يطلق عليه السنن الإلهية.

أما التنجيم فهو بحث فى تأثير النجوم فى «جملة الحوادث السفلية من السعادة والشقاوة والذكاء والبلادة والحسن والقبح والخديعة والمكر والنذالة والشهامة والشجاعة والجبن والأشكال والمقادير ونحوها وإن ذلك كله باتصالات الكواكب وانفصالاتها»(٣٥). أى هو بحث فى ارتباط بين نسقين مختلفين من الظواهر، نسق طبيعى هو نسق الكواكب، ونسق إنسانى، وهو «مما لا برهان عليه».

والبرهان عند الدلجى إما الخبر غير القابل للتكذيب أو الضرورة العقلية ، وهما أساسان رئيسان يقوم عليهما العلم. **أما التنجيم** فأقصى ما يعول عليه «حَدْسٌ وتخمين وظنون كاذبة . وتفرس وحيلة وخديعة».

لقد فرق الدلجى بدقة العلماء بين آليات البرهنة العلمية وما عداها مما لا يمكن الوثوق فيها. ويستند كعادته لتدعيم وجهة نظره إلى سلطة فكرية تراثية ممثلة فى الفارابى وابن سينا اللذين «بالغا فى الرد على الاحكاميين والنجوميين». كما استند إلى شهادة أحد الأئمة الإحكاميين والنجوميين ألا وهو أبو معشر الذى اعترف بأن التنجيم «تخمين» وبأن «كل الأعراض الغائبة توهُّم لا يكون شىء منها يقينًا وإنما يكون توهم أقوى من توهم»(٣٦).

ويطوف بنا فى التاريخ خاصة التاريخ المصرى متتبعًا تجارب التنجيم عبره، والتى تثبت كذبها كما تثبت أن تحقق بعض النبوءات لم يكن لصدق التنجيم إنما كان مرجعه إلى أخذ البشر بالأسباب وإلى فاعليتهم.[٣٧]

أما الكيمياء فهى ليست «من قبيل الكرامات وخرق العادات» التى يأتى بها الأولياء، كما أنها ليست من قبيل «التلْبيس والغش» الذى يأتى من الفُسّاق، كما أنها ليست «البحث فى تصيير النحاس ذهبًا حقيقيًا على طريقة صناعية مطردة». كما شاع عنها ؛ لأنها لا تحقق بالضرورة الهدف منها.

ويراجع الدلجى موقف السابقين من الكيمياء كابن تيميَّة فى رسالته التى أنكرها فيها، وابن قيّم الجوزيّة فى كتابه «مفتاح دار السعادة»، والفارابى صاحب الموقف المتذبذب منها إذ «أثبتها مرة ونفاها مرة»، وابن سينا. فالكيمياء الموجودة فى عالم الدلجى كانت مستحيلة بالنسبة لهم بما أن البشر غير محيطين بكافة جوانب عملية تحول المعادن غير النفيسة إلى ذهب[٣٨].

أما **المطالب** - أو **التنقيب عن الآثار** بلغة عصرنا - فهى ليست بحثًا علميًا ينطلق من إمكانية العثور على «دفين جاهلى أو إسلامى على الاتفاق والصدف». ولم يكن الدلجى ابن القرن الثامن عشر الميلادى يعيش فى عصر فيه علم للآثار والتاريخ يمكنان العالم من تحديد أماكن «الدفائن» الجاهلية - وهى فى أغلب الظن الآثار

الفرعونية واليونانية والرومانية والقبطية وغيرها من الآثار السابقة على الإسلام - إنما كانت المطالب التى يرفضها كحرفة هى البحث «فيما تحت الأرض من مساكن وعمارات مبنية وفيها كنوز وأموال عظيمة وعليها موانع وطلسمات». إن ما يرفضه الدلجى هو خطوة التعامل مع الموانع والطلسمات من أجل الكشف عن الكنوز، وذلك لعدم إيمانه بالسحر والطلاسم. ولذا ينتهى إلى أن المطالب «من مخارق المحتالين وأمانى المفلوكين»[٣٩].

أما صناعة «الشهادة لغير المعروف» التى يتحدث عنها والتى يطلق عليها أحيانًا اسم «قلم الشهادة»، فهى فى أغلب الظن الإدلاء بالشهادة عن المواطنين ، وهو ما كان عملاً بل وظيفة رسمية فى ذلك الحين، وربما كان يقوم بها فى القرن الثامن عشر شيوخ الحارات كما كان الحال حتى وقت ليس ببعيد.

وهو يدين حرفة الشهادة؛ لأن ثمة «موانع من حصول ثمرتها والمقصود منها، ولها مفاسد ونقائص عاجلة ومضار أخروية آجلة». أما مفاسدها ونقائصها العاجلة فهى استغلال المظهر والهيئة فى الشهادة الزور. ويفسر لنا عقبات عدم سلامتها وما يترتب عليها من مضار أخروية[٤٠].

وفى الفصل السابع وعنوانه: **«فى السبب فى غلبة الفلاكة والإهمال والإملاق على نوع الإنسان وبيان ذلك»** ، يفصل الحديث عن الحرف والصنائع أو سبل العيش الطبيعية ، ويفتتح فصله بحقيقة

قاطعة أشبه بالمبدأ أو القانون الذى يدعو للاكتئاب واليأس. «اعلم أن المفلوكية والإهمال والإملاق غالب على جنس البشر».

والسبب في ذلك أن السيادة والمجد والثروة والغنى وأشباهها لها أحد طريقين : الاكتساب أو الوراثة - وأن كلاً من الطريقين تقف فى طريق النجاح فيه عوائقُ تحول دون تحقّق ثمرته .

فالمعاش الطبيعى عنده **إما تجارة أو فلاحة أو صناعة** وهو مكتسب. **أما التجارة** فتتطلب «مادة متسعة» ورأس مال كبير يدار فى وجوه الأرباح والتثمير ويوزع على أنواع المتاجر لينجبر كساد بعضها بنَفاق الآخر.

ويفسر لنا سياق النص هذا التعريف الاقتصادى الدقيق، فالمادة المتسعة، هى تعددية وتنوع البضائع اللذان يضمنان تعويض كساد بعضها » بنفاق (رواج) البعض الآخر. وكما تحتاج التجارة إلى ما سبق تتطلب أيضًا من صاحبها صفات إنسانية بعينها من «بصيرة تامة ودراية وافية وتجربة كاملة وفراسة صادقة وحدس صحيح»، كما تتطلب إتقان مجموعة من الآليات فسرها بدقة.

أما أهم المعوقات الخارجية فهو قهر الدولة ممثلاً فى «حامية الملك» وخاصته المخادعين «مما قد يؤدى إلى تبديد رأس المال»[٤١].

بالرغم من تبدل الأعراض فلقد ظل الجوهر ثابتًا فلا الآليات تغيرت ولا تحكم السلطة تغير ولا قوانين السوق تغيرت، وكأن الدلجى يحدثنا عن حالنا فى ظل العولمة التى احتفظت بالقهر قانونًا يخضع له الجميع.

أما الفلاحة «فعوارضها (معوقاتها) السماوية» و «الأرضية» تنتهى بصاحبها إلى الفلاكة المالية. أما «العوارِض السماوية»، أى المناخية، فقد انتبه إلى كثرتها وأحصاها بدقة بالغة. وحدد العوارض الأرضية من سوء النبت وسباخة الأرض . . إلخ. وانتبه إلى أن ثمة معوقاتٍ أخرى تأتى من الآخرين من «عدم نصيحة» و «اختلاس وتفويت الأعمال الكمالية المصلحية»، و«ظَلَمَةِ» السلطة واستعبادها و «توسيع شروط مقاسماتها للفلاحين والإثقال عليهم بالفرائض . . والجبايات». كل ذلك ينتهى إلى فلاكة العاملين بالفلاحة بالضرورة، وهنا أيضًا تلعب السلطة دورًا فى ذلك.

لقد كان الدلجى واعيًا بعلاقة الاقتصاد بالسياسة، تلك العلاقة التى مازالت تسيطر على الحياة الإنسانية فى كل مكان - وخاصة فى زمننا هذا - فبرع فى بسطها فى عرضه.

والفلاحة بطبيعتها - فيما ذهب - توجد نمطًا من الحياة الاجتماعية، هو النمط البدوى الذى بطبيعته أبعد ما يكون عن الرفاهية، ويتمثل فى «رداءة العيش وخشونته والبعد عن أحوال الحضارة من الرفاهية والترف، والتحلى بالعلوم»[٤٢].

أما الصناعة فنادرًا ما تحقق رغد العيش لأصحابها، وذلك لعدة أسباب **أولها** : تطلبها الحذق فى أصحابها، الأمر الذى نادرًا ما يتوفر، **وثانيها** : أن الكساد غالبًا ما يطولها.[٤٣]

ولم يكتف الدلجي بتفصيل أسباب الفلاكة الناجمة عن كل حرفة، بل عاد فأجمل الأسباب العامة للفلاكة وكلها أسباب إنسانية أو نقائص إنسانية. ففى حين تتطلب الحرف الثلاث «التعاون والتناصح» نجد أنهما قد «انقطعا من كافة البشر أو عامتهم» بسبب «التباغض والتحاقد، والتحاسد، والكبر والعجب والعداوة»، والتنافس و «خبث النفس وفساد جوهرها ونقص إنسانيتها». ثم إن «الدخل» كلما تعاظم من هذه الحرف تعاظمت وجوه «الصرف». والمرء قد يقع فى هذا المأزق «إما للمباهاة والترفع على أمثاله، أو إفراطًا فى الشهوات وانهماكًا فى اللذات، أو خوفًا من سوء القالة والأُحدوثة»، فيظل المرء «مفلوكًا مهملاً».

ومن أسباب فلاكة أصحاب هذه الحرف أيضًا أن المجد والسيادة الكسبية لا يتحققان «دفعة» وإنما يتحققان «بالتدريج» مع بذل الجهد المستمر للحيلولة دون زوالهما، مما يجعل المرء يقضى شطرًا كبيرًا من عمره أو معظمه فى «فلاكة وإدبار»(٤٤). وكعادته التقط الدلجى جوهر الأمر بعد أن حلل كل جوانبه وحدد دور كل منها وعلاقته بالجوانب الأخرى.

أما الإمارة، التى هى عنده غير الملك، فإنما هى تالية له فى هيراركيَّة السلطة، فهى ليست حرفة إنما هى ممارسة شديدة التعقيد، وكيف لا والإمارة هى التحكم فى البشر والتسيّد عليهم وقهرهم إن استدعى الأمر. والمفترض فيها قدرتها على تحقيق ما سبق، فضلا عن «المجد والثروة»(٤٥).

ويذهلنا الدلجى بجزمه بأن «مبادئها مشتملةٌ على نصيب وافر من الفلاكة والإدبار»، ويتحول ذهولنا إلى دوار ونحن نتتبع الشروط العديدة التى يذكرها لتحقيق الإمارة .

يقول: «إن الإمارة لا تتم إلا بالعصبية والتغلب والشوكة وفي قمع المعاند والجاحد وتأليف القلوب المتفرقة وتمهيد المسالك والقيام بحقوق لا تحصى وكثرة معاناة شدائد ومكابدة مكائد ومشاقّ وتعريض النفس للهلاك». ومن الجلى أن هذه المهام الشاقة لا تترك وقتًا للأمراء لتحقيق الثروة - هذا إذا كانوا بالفعل أمناء فى تحملهم لمسئولياتهم - فضلاً عن انشغالهم «بمليكهم» وتقديمهم «لمراده على مرادهم»[٤٦] .

الإمارة التى يصورها لنا الدلجى إمارة ملتزمة مخلصة للملك، وإن كنت أشك أن ذلك كان الحالَ فى وقته، **فإنى أتساءل**: لم ذهب الدلجى إلى ما ذهب إليه؟ ولم تخلى عن جرأته المعهودة؟ هل كان يخشى السلطة؟ فى إشارة سريعة يذكر أن السلطنة وحدها هى الناجية من الفلاكة ولذا «فهى من القسم النادر» لأن «الفلاكة غالبة على نوع الإنسان»[٤٧] .

حتى الإرث لا ينجو من طائلة الفلاكة، ويفصّل لنا الدلجى أسبابها: «امتداد أيدى الولاة والحكام إليه . ومَذَلّة اليتيم وخضوعه وفقده نصيحة أبيه». وإذا كانت هذه الأسباب تعود لوضع اليتيم فإن ثمة أسبابًا تعود لصاحب الإرث نفسه. فهو قد حصل عليه بدون «تحمله مشاق جمْعِه». لذا يصبح من السهل عليه أن «يسرع فيه

بالسَّرف والتبذير والسفه» لينتهى به الأمر إلى أن «يعود يتكفف الناس». كما أنه بجهله وعدم درايته لا تتوفر له «شروط تنمية وتثميره» فيتآكل أو «يذوب» بالتدريج «إلى أن يضمحل ويتلاشى». فضلاً عن أن المحيطين به لا يتعاونون معه كما كانوا يتعاونون مع مورِّثه «فيقع من ذلك فى العناء العظيم والداء العقيم»[٤٨]، أى الفلاكة وباء الإنسانية التى ساهمت فى صنعه وتفشيه.

(٣)

المفلوكون والآخرون

(الطرح الاجتماعى الجدلى)

الفلاكة لا تهبط على المفلوكين فتعصف بهم لأنهم لا يملكون ما يقاومونها به، **إنما الفلاكة من صنع المفلوكين بقدر ما هى من صنع الآخرين المحسنين الباذلين للعطاء**، والمتتبع لطرح الدلجى لظاهرة الفلاكة طرحًا اجتماعيًا لابد له أن يتبين أن الدلجى كان يتصور أن هذه الظاهرة مرجعها فساد الإنسانية وشرها وأنانيتها.

ونبدأ بتصوره عن المفلوك الذى يقدم لنا عنه صورة أو مشهدًا يتناوله بالتحليل ليصل إلى حقيقته الجوهرية.

المفلوك عادة كثير التنقل ؛ لأنه إذا استولت الفلاكة عليه فى بلد «واضطرب فى أرجائها وتلكّع فى طرق معاشها وذاق طبائع أهلها . . وامتحن قوته فى التسلق إلى مطالبه . ومل وجوهًا لا خير فيها . . وقذفهم بقلبه فقذفوه بقلوبهم . . فحينئذ يظن أو يعلم أن تأتّى المصلحة فى ذلك البلد مستحيل أو متعثر» ويتصور أن الانتقال إلى بلد آخر سيحقق له التوفيق الذى يرومه، خاصة إذا كان يتصور أن العيب فى البلد الأول وليس فيه هو، فيفشل بالضرورة لأن الأقيسة العقلية **تقتضى** أن تكون «**موجبات** الفلاكة القائمة بالمفلوك مصاحبة له سفرًا وحضرًا وكذلك **موجبات** فلاكته القائمة بالناس موجودة فيهم فى كل بلد»(٤٩). موجبات الفلاكة ليست موجودة فى الآخرين فحسب بل هى موجودة فى المفلوك كذلك وهو ما يعنى أن ثمة علاقة وثيقة بين الطرفين، وأنه لا فلاكة إلا باشتراكهما.

هى علاقة جدلية شديدة القبح بين طرفين هما معًا شرطا وجودها. فالمفلوك الذى يبدو للوهلة الأولى أنه الطرف السلبى فيها هو فى الحقيقة علة لموقف الطرف الثانى منه. فالمفلوك يتلكع فى كسب عيشه، وهو طفيْلى يقصر مجهوده على «التسلق إلى المطالب» ولذا «لا يحصل لمفلوك مقصوده . . . إلا بقدرة غيره»(٥٠). ولعلنا نكون قد لاحظنا إصرار الدلجى على كون كل ما يحدث فى هذه العلاقة هو حتمى وعلى أن أسباب الفلاكة موجودة بالضرورة فى المفلوك وفى الآخرين ولذا استخدم كلمة الموجبات.

هذه العلاقة الجدلية التبادلية بين الطرفين هى علاقة المصلحة المشتركة، قد يبدو هذا القول مفارقة يصعب حلها إلا أن تَتَبُّعَ استدلال الدلجى المحكم من شأنه الكشف عن اتساقه. انطلق الدلجى من هذا المبدأ الأخلاقى الاجتماعى الذى يقدمه على أنه بمثابة القانون الحاسم: «إن الناس لا يبذلون منافعهم وأموالهم سدى بغير غرض ولا علة». فتبادل المنافع هو العلاقة الوحيدة بين البشر.

وإذا كان من البديهى أن يكون أحدُ المحسنين هو الذى يحقق مصلحة المفلوك، فالعكس صحيح أيضًا فى نظر الدلجى الذى يبرهن على أن المصلحة هنا للمحسن وللمفلوك معًا. وهذه المصلحة قد تكون آجلة أو عاجلة.

أما المصلحة الآجلة فهى الثواب فى الآخرة الذى نادرًا ما يكون هو غرض المحسن الحقيقى من إحسانه، إذ اعتادت *الناس الاكتفاء «ببعض أعمال الخير البدنية»* عوضًا عن *البذل* والعطاء للآخرين.

أما المصلحة العاجلة فهى «تحقيقه لصورة جميلة لذاته بواسطة عطائه للمفلوك» واكتساب المنة والترفع أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب القلوب إلى طاعته ومحبته واستسخارهم أو إزالة مذمة البخل وخبثه. ودفع الألم الحاصل من الرقة بسبب سوء حال مَنْ يحسن إليه[٥١].

ولا بد للقارئ أن يكون قد انتبه إلى أن من بين مكاسب الإحسان تسخير من يحسن إليهم ، أى التسيد عليهم وتحقيق لذة وشهوة السيطرة أو «الاستعباد» بتعبير الدلجى نفسه[٥٢].

ويذكرنى هذا التحليل الدقيق لهذه العلاقة المعقدة بتحليل هيجل لعلاقة العبد بالسيد الذى يستمد ماهيته وماهية سلطته من العبد ، أى الذى يحتاج للعبد حتى يتحقق وجوده، كما يذكرنى بعلاقة (الفَرْفُور) بالسيد فى (مسرحية الفرافير) ليوسف إدريس، كما يذكرنى بتحليل ميشيل فوكو للسلطة التى لا تتحقق للطرف السيادىّ إلا بوجود الطرف الآخرِ المقاوم له، مما يضطرها أحيانًا لخلق المعارضة لتمارس فاعليتها فتتحقق من خلال التصدى لها والقضاء عليها.

ألاعيب متشابكة وعبثية تلك التى تقوم بها السلطة فى كل زمان ومكان. **ويبدو لى أن الدلجى أراد القول إننا بسبب القبح الفطرى فينا نحرس الفقر ولا نقاومه**، فبدونه لا تكون هناك فوارق ولا نتميز عن غيرنا، ولا نشعر بالزهو والفخر.

«تنشأ الآفات من الفلاكة وتستلزمها الفلاكة وتقتضيها» كما جاء فى عنوان الفصل الرابع[٥٣]، أى أن الفلاكة تكون تارة علة للآفات، كما أن هذه قد تنقلب وتصبح بدورها علة للفلاكة. فالعلاقة هنا أيضًا علاقة جدليّة يتبادل فيها الطرفان الأدوار، أو هى دَوْرٌ أو حلْقة مُفْرَغَة يصعب الإفلات منها.

والأخلاق الرديئة المذمومة التى تعيب المفلوك ليست فطرية به إنما هى من صنع علاقته بالآخرين، وتكون البداية استهانة الناس بالمفلوك ويقينهم من عجزه عن رد الإهانة وسوء المعاملة، الأمر الذى يدفعهم إلى إذلاله فيتولد فيه الحقد.

يقول: «إذا استحكمت الفلاكة وعُرف بها الشخص أَوْسَعَهُ الناس إغاظة استهوانًا به وعدمَ مبالاة بغضبه أو أمنًا من غائلته . . . فإذا تواردت موجبات الغضب وازدحمت عليه من توقيفه على نقائصه والإغماض عن كمالاته . . . وهتك أسراره وعدم اعتباره والمبالغة في عتبه . . ومعاكسته في مراده . . وعجز عن الوقوف في ذلك موقف نكير» وعجز عن الانتقام، كتم في نفسه ما يتحول إلى حقد(٥٤). وعن الحقد يتولد الحسد، وتتوالى المشاعر البغيضة على المفلوك وتتملك منه فينتهى الأمر بانشطار المجتمع إلى شطرين متخاصمين.

وفى لفتة ذكية يشير الدلجى إلى أن سبب كل هذه الأخلاق المذمومة هو «**التفاوت**» - يا لها من كلمة موحية - فهى تتضمن معانى اللامساواة والظلم والفوارق وسائر مفردات قاموس آفات المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

قدم لنا الدلجى صورة قبيحة للإنسانية وللعلاقات الأساسية بين أبنائها، صورة تدعو للتشاؤم الشديد، وتدفعنا بعيدًا عن تصوراتنا للحياة المثلى وللمدن الفاضلة، أما على مستوى العلم الاجتماعى

فالدلجى من المبشرين بكون القيم والأخلاق هى نتاج للمجتمع وبأنها ليست فطرية مقومة له.

(٤)

نقد الأساس الكلامى والصوفى للفلاكة

كما طرح الدلجى قضية الفلاكة طرحًا اقتصاديًا تحليليًا، وطرحًا اجتماعيًا جدليًا، كذلك طرحها طرحًا كلاميًا وصوفيًا، إدراكًا منه لقيمة التراثين الكلامى والصوفى فى تشكيل وعى الناس أو حتى لاَ وَعْيِهم فى العالم الإسلامى.

ولابد أنه قد تبين له من حيث هو مُلِمٌّ بهذين التراثين، ومحلل للمجتمع ولمفاهيمه أنّ ثمة مفاهيمَ موروثةً تلعب دورًا كبيرًا فى تحريك الناس، **كما تبين له أن على رأس هذه المفاهيم مفاهيمَ كلامية من قبيل القضاء والقدر، والفعل والقدرة، والإرادة، وأخرى صوفية وعلى رأسها التوكّل والزهد.**

وقد توقف عند هذه المفاهيم طويلاً وراجعها وأعاد تأويلها لنزع ما فيها من سلبية، ولشحنها بقوة فاعلة يحتاج إليها المجتمع. فمارس النقد كما يمارسه كل مفكر واع فى كل زمان ومكان. وفى موقفه هذا جانب إصلاحى غير معلن وإن كان محايثًا فى بعض مواضع الكتاب.

وفى رأيى أن محاولته إعادة قراءة علم الكلام وإعادة تأويل مفاهيمه الأساسية هى محاولة جادة ومبكرة لتجديده سابقة على جهود بعض المصلحين وعلى رأسهم محمد عبده.

وللقارئ أن يستشف قيمة علم الكلام عند الدلجى من جعْله مفاهيمَه هى موضوع الفصل الثانى وعنوانه: «**فى خَلْق الأعمال وما يتعلق به**». وقبل المضى فى الحديث ألفت النظر على استحياء إلى أن الدلجى قد يؤْثِر فى عِلْم كلامِه الجديد الاهتمامَ بالإنسان على الاهتمام بالغيبيات، وهو إذ يعرض لعلاقة الإنسان العبد (المخلوق)، بالله (الخالق) **يفعل ذلك بدافع مصلحة الإنسان وسعادته دنيا وآخره، وليس للاستغراق فى بيان حقيقة الذات وعظمة صفاتها**.

ويحدد لنا الغرض من هذا الفصل بأنه «إقامة الحجة على المفلوكين وقطع معاذيرهم وإلجامهم عن التعلق بالقضاء والقدر، وإنه متى نُعِيَتْ إليهم فلاكتهم أو نودى عليهم بها كان ذلك لأنهم إما فاعلوها استقلالاً أو مشاركة، وإما بالمحلية أو المدخلية. ولو سُلِّم أن ذلك من باب القضاء والقدر الصِّرْف أو فُرِضَتْ فلاكة سماوية صِرْفة فكلمات العلماء فى مجارى أبحاثهم طافحة بأن القضاء والقدر لا يحُتَجُّ به». ويستند إلى حديث نبوى يرفض نسبة أفعال البشر كلية إلى القضاء والقدر، لكونها فى حقيقة الأمر تنسب كذلك إليهم، وأنَّ للبشر مشاركة ودورًا فى أفعالهم ولذا رفض أن يكون للقضاء والقدر صفة الإطلاق فهو ليس

«صرفًا» وبالتالى رفض أن تكون الفلاكة «سماوية صرفة»، أى يتفرد الله بخلقها[٥٥].

ومما يجب ألا يغيب عنا - وهو ما لم يغب عن بال الدلجى ولذا عرض له فى بداية معالجته لهذه القضية - أن قضية أفعال العباد التى يطلق عليها عادة اسم القضاء والقدر هى قضية قديمة قدم علم الكلام الإسلامى، وأنها شغلت العقل الإسلامى منذ بداياته، وأن موقفين أساسيين وإن اختلف أصحاب كل منهما فيما بينهم فى التفاصيل تنازعا هذا العقل الإسلامى على مر العصور، من أجل هذا بدأ الدلجى معالجته لهذه القضية بالتأريخ لهذين الموقفين.

أما أولهما فهو موقف المعتزلة الذى حقق نوعا من المصالحة بين قطبى هذه القضية: الله والإنسان، خلق الله فى العبد «القدرة والإرادة» اللتين أوجبتا «المقدور»، أو بعبارة أخرى القدرة والإرادة الإنسانيتان هما وسيطان بين القدرة والإرادة الإلهيتين، والفعل الإنسانى المقدور.

أما الفريق الثانى وهو فريق الأشاعرة فقد نفى أى تأثير للقدرة الحادثة - الإنسانية - فى حدوث مقدورها، وأكد أن الله ربط بين الإرادة الإنسانية والفعل الإنسانى بالعادة التى هى من خلق الله، فكان الفعل الإنسانى بذلك «خلقًا من الله إبداعًا وإحداثًا ، وكسبًا من العبد لوقوعه مقارنًا لقدرته» .

وحتى الكسب الذى اختلف بصدده الأشاعرة لاحتوائه على قدر من فاعلية الإنسان، حسم الباقلانى أمره بتعريفه للكسب بأنه «تصميم

العزم على الفعل» بمعنى أن الله يخلق فى حالة تصميم العبد على الفعل، الفعلَ نفسه. «فالعبد وإن لم يكن موجِدًا إلا أنه كالموجد».

وبحيلة ذكية تبنى الدلجى موقف المعتزلة الذى يتيح قدرًا أكبر من الفاعلية للإنسان ويحمله مسئوليتها بقناعته ، ومثله أنه لولا الإرادة والقدرة الفرديتين لبطل التكليف وبالتالى الثواب والعقاب ولفرغا من دلالتهما لعدم «استحقاق» العبد لهما(٥٦).

وكشف الدلجى عن أخذه بموقف المعتزلة صراحة عندما حكم على موقف الأشاعرة بأنه يؤدى إلى «تشويش الدين والخبط فى الشريعة»، فلولا «الاستقلال » -[استقلال العبد بالفعل]- « لبطل التكليف . . ولبطلت أيضًا فائدة بعث الأنبياء». وحتى يقوض موقع الأشاعرة المسيطرين على العقل الإسلامى اتهمهم بأنهم جمعوا بين نقيضين للخلاص من المأزق (المشكل) الذى أوجدوا أنفسهم فيه بقولهم بنظرية الكسب(٥٧).

أما التوكُل والزهد - المقامان الصوفيان - الشهيران فيتناولهما فى الفصل الثالث لينفى عنهما ما اتهما به - نتيجة للفهم الخاطئ - من سلبيات ، والعنوان يعبر عن هذا الهدف فى شكل قانون: «فى أن التوكل لا ينافى التعلق بالأسباب وأن الزهد لا ينافى كون المال فى اليدين»(٥٨). **ولو قلبنا صيغة النفى المتكرّرة فى هذا العنوان لتحولت إلى صيغة إيجابية، تؤكد على العكس أن التوكل يدعو إلى التعلق بالأسباب وأن الزهد يدعو إلى أن يظل المال فى اليدين** لكى

لا يشغل القلب ! وهذا ما يصرح به بالفعل فى آخر الفصل موضحًا أن «المقصود إلجام المفلوكين عن التعلق بالزهد والتوكل فى انزواء الدنيا عنهم»(٥٩) .

وكعادته يلجأ إلى الحد والتعريف فيبدأ بالتعريف اللغوى الذى ساد والذى يبرر الدلالة السلبية للكلمة، ليتجاوزه إلى التعريف الاصطلاحى الذى يبرز على العكس دلالتها الإيجابية. «**فالتوكل فى اللغة** عبارة عن إظهار العجز والاعتماد على الغير»، وعادة ما يخص الله.

أما فى الاصطلاح فهو عبارة عن «دوام حسن ملاحظة القضاء والقدر فى جميع الحوادث دون اقتصار نظر على الأسباب الطبيعية، ودوام حسن الملاحظة **يجامع** التعلق بالأسباب ولا ينافيها» .

إن ضبط المعنى فى هذه الحالة يحرر الإنسان من ربقة التراث المغلوط للتوكل، الداعى للتراخى والسلبية والانسحاب، وبالتالى للفلاكة. فلو أخذنا بهذا المعنى الاصطلاحى تكون «حركة العبد ببدنه أو بتدبيره إما لجلب نفع كالكسب ، أو حفظه كالادخار ، أو دفع ضرر . . . أو قطعه».

إن الأخذ بالأسباب وبذل الجهد «**واجب**» (وهو يكرر هذه الكلمة عدة مرات)، أما إهمالهما فهو «**مراغمة** لحكمة الله تعالى فى نصب الأسباب وعدم الاكتفاء بالقدرة المجردة ، وجهل بسنة الله وعادته».

إن التوكل بمعناه المغلوط مناف للإيمان الصحيح وللحكمة الإلهية، بل هو «**حرام**» (وقد كرر هذه الكلمة أربع مرات خلال ثلاثة

سطور)، ويضرب لنا أمثله من السنة على التوكل السليم الواجب، كما يضرب لنا العديد من الأمثلة الحياتية على التوكل المغلوط، ويرى أن من حقه بعد ضربه لهذه الأمثلة «**تقرير**» ما قد بان و «اتضح» من أنه «**ليس من شرط التوكل ترك الأسباب وإطراحها وإهمال الكسب بالبدن والتدبير بالقلب . فإن ذلك حرام فى الشرع**»(٦٠).

وفعل الدلجى مع مقام الزهد ما فعله مع مقام التوكل أى أنه عرفه لغويًا ليتجاوزه إلى التعريف الاصطلاحى، **فالزهد لغة هو** «الرغبة عن الشيء» وقد خصص للرغبة «عن الدنيا»؛ **أما اصطلاحًا فهو**: ترك المباح المقدور عليه من أجل الله.

ويستفيض فى تفسير كل كلمة من هذا التعريف لينتهى إلى أن الانشغال بالدنيا سلبًا أو إيجابًا يتنافى والزهد الذى هو الانشغال بالله عن كل ما عداه؛ «لأن الكاره للدنيا مشغول بالدنيا كما أن الراغب فيها مشغول بها والشغل بما سوى الله حجاب عن الله». وبعد أن ضرب العديد من الأمثلة من السنة النبوية وسير الصحابة انتهى إلى تلك النتيجة «إن الدنيا ليست مكروهة لعينها وإلا لأمرهم ﷺ بالانسلاخ من أموالهم»(٦١).

(٥)

تراجم المفلوكين

(التأريخ)

يستولى الدلجى ببراعة معالجته على عقل قارئه حتى ينسيه أن الهدف من الكتاب هو التأريخ للمفلوكين الذى يشغل ما يقرب من نصف الكتاب، فعل الدلجى ما فعله ابن خلدون من قبله: انشغل بالتنظير والتحليل والتفسير عن التأريخ واستنفد كل طاقته الإبداعية فى التقديم لهدفه الأساسى حتى إذا ما بلغ مرحلة التأريخ عول على النقل عن السابقين عليه. ويعترف بذلك صراحة: «وإنما نذكر فيه تراجم العلماء ناقلين لها من المصنفات المعتمدة». بل يعترف بأن نقله هو نقل حرفى. يقول: «وأنا أنقل فيها ألفاظ المترجمين بحروفها من غير تصرف فيها لتكون العهدة عليهم»[٦٢] .

هل كان الدلجى يتخفى وراء التاريخ ليقدم ما قدمه عن الفلاكة والمفلوكين، أى ليطرح هذه الظاهرة القاسية على بساط البحث بعد أن أهملت طويلاً ؟

أغلب الظن أن الإجابة عن هذين السؤالين بالإيجاب، فقيمة تراجمه الوحيدة أنها تقدم لنا معلومات عن بعض أعلام ما كنا لنقف عليها لولاه أى لولا غوصه فى كم هائل من كتب التاريخ والتراجم والطبقات منقبًا عن مفلوكين تعساء، ما كان لهم أن يعانوا مما ابتُلوا به.

(٦)
الخـــاتمة

وصايا بدلاً من الحل

أعطى الدلجى لآخر فصول كتابه عنوانًا محبطًا ومخيبًا للآمال ألا وهو «فى وصايا يستضاء بها فى ظلمات الفلاكة » ، ثم يقول : «وبهذا الفصل نختم الكتاب إن شاء الله». كنا ننتظر حلولاً أو برنامجًا كما كان يمنينا فى كل الكتاب فإذا به يكتفى بالوصايا .

وتوجيهه الخطاب إلى أخيه المفلوك مثله يحملنا على التساؤل عما إذا كان إقدامه على وضع الكتاب كان كله بدافع الفضفضة «والاسترواح والتنفس بالأقوال»(٦٣) وفقًا لكلامه فى موضع سابق، لعجزه عن الإتيان بالفعل.

وبعد أن بذل جهدًا فريدًا فى تأويل مفهومى التوكل والزهد لجعلهما من دعائم الفعل الإنسانى والمواجهة والتصدى، إذا به يتبنى فى فصله الأخير خطابًا صوفيًا زهديًا سلبيًا مفرطًا. وبعد أن ملأ كتابه كله بالدعوة لإعمال العقل لبلوغ الحقائق ، إذا به ينصح أخاه المفلوك ألا «يقنع بالعلوم العقلية فإنها ملساء مزلة للأقدام وأصحابها يضطربون فيها». وبعد أن نجح فى إقناعنا - بفضل تحليله الدقيق - بأن الفلاكة هى أقبح وأقسى ظاهرة اجتماعية، وبأنها عار على جبين الإنسانية وشبهة فسادها التى عليها دَحْضُها، إذا به يفاجئنا فى نهاية

كتابه بدعوة أخيه المفلوك إلى الصبر وعدم اليأس يقول له ناصحًا: «رقع خرق عجزك وفلاكتك بحيلتك ومصابرتك»[٦٤]. ترقيع وتحايل ومصابرة واعتراف بالعجز ؟ .

هل ظن الدلجي أن دوره كان مجرد التدشين، وأن ما بعد هذا من شأن غيره، ولذا قال عن «الفلاكة والمفلكون» : «هذا الكتاب إنما وضعته مسودة ونموذجًا وبرنامجًا فى هذا المطلوب وفتحًا لباب عسى أن يلج فيه من حرّكه الله لذلك»؟ أم كان يعرف أن عليه بذل مزيد من الجهد ولذا ناشد الله بقوله: «اللهم اقبل معاذيرى وتجاوز عن تقصيرى ولا تتركنى حقيرًا»[٦٥]؟ .

وسواء أكانت الإجابة عن هذين السؤالين بالنفى أم بالإيجاب فالأمر اليقينى أن الدلجى خطا خطوة وفتح أفقاً جديدًا وكان واعيًا بتقصيره.

فهل نحن واعون بتقصيرنا؟ وهل يوجد بيننا من يخلصنا من كافة أنواع الفلاكة التى يحدثنا عنها مفكرنا المصرى؟ وهل لنا أن نفسح مكانًا للدلجى فى فكرنا المصرى الحديث قبل أن يسبقنا المستشرقون إلى ذلك؟

د. زينب محمود الخضيرى

الهوامش :

Carl Brockelmann; Geschichte Der Arabischen Litteratur, II,

.487 .Verlag Von Emil Felber, Berlin, 1902 , P

(١) أحمد بن علي الدلجي: الفلاكة والمفلكون، مطبعة الشعب، مصر سنة ١٣٢٢هـ، ص ٥٦، ١٤٤

(٢) المصدر السابق ص ١٤٥

(٣) المصدر السابق ص ٣

(٤) المصدر السابق ص ٤

(٥) المصدر السابق ص ٣

(٦) المصدر السابق ص ٥٣

(٧) المصدر السابق ص ٦١

(٨) المصدر السابق ص ١٤٥

(٩) المصدر السابق ص ٥٥

(١٠) المصدر السابق ص ٦٣

(١١) المصدر السابق ص ٢٢ ، ٢٣

(١٢) المصدر السابق ص ٥٦

(١٣) المصدر السابق ص ٦٣

(١٤) المصدر السابق ص ١٤ إلى ١٦

(١٥) المصدر السابق ص ٨

(١٦) المصدر السابق ص ٢٩

(١٧) المصدر السابق ص ٤٦

(١٨) المصدر السابق ص ٤٥

(١٩) المصدر السابق ص ٤٧ - ٤٨

(٢٠) المصدر السابق ص ٤٨

(٢١) المصدر السابق ص ٤٩

(٢٢) المصدر السابق ص ٥٠

(٢٣) المصدر السابق ص ٥٣

(٢٤) المصدر السابق ص ٥٠ - ٥١

(٢٥) المصدر السابق ص ٣٧

(٢٦) المصدر السابق ص ٤١
(٢٧) المصدر السابق ص ٣٧
(٢٨) المصدر السابق ص ٢٨
(٢٩) المصدر السابق ص ٣٨
(٣٠) المصدر السابق ص ٣١
(٣١) المصدر السابق ص ٥٥
(٣٢) المصدر السابق ص ١٢
(٣٣) المصدر السابق ص ٢٢ - ٢٣
(٣٤) المصدر السابق ص ٢٤
(٣٥) المصدر السابق ص ٢٤ - ٢٥
(٣٦) المصدر السابق ص ٢٥ إلى ٢٨
(٣٧) المصدر السابق ص ٢٩
(٣٨) المصدر السابق ص ٣٠
(٣٩) المصدر السابق ص ٣٢ - ٣٦
(٤٠) المصدر السابق ص ٥٣ - ٥٤
(٤١) المصدر السابق ص ٥٤
(٤٢) الموضع نفسه.
(٤٣) المصدر السابق ص ٥٤ - ٥٥
(٤٤) المصدر السابق ص ٥٣
(٤٥) المصدر السابق ص ٥٥
(٤٦) الموضع نفسه.
(٤٧) المصدر السابق ص ٥٥ - ٥٦
(٤٨) المصدر السابق ص ٢٢
(٤٩) نفس الموضع.
(٥٠) المصدر السابق ص ٥٨
(٥١) المصدر السابق ص ٥٩
(٥٢) المصدر السابق ص ١٤
(٥٣) المصدر السابق ص ١٥ - ١٦
(٥٤) المصدر السابق ص ٧
(٥٥) المصدر السابق ص ٥
(٥٦) المصدر السابق ص ٥ - ٦

(٥٧) المصدر السابق ص ٨
(٥٨) المصدر السابق ص ١٤
(٥٩) المصدر السابق ص ٨ - ٩
(٦٠) المصدر السابق ص ١٠ إلى ١٣
(٦١) المصدر السابق ص ٦٢ - ٦٣
(٦٢) المصدر السابق ص ١٢٩
(٦٣) المصدر السابق ص ١٤٣
(٦٤) المصدر السابق ص ١٤٥



تأليف الإمام العالم العلامة الورع الزاهد
خاتمة الحفاظ والمحدّثين مولانا شهاب
الملة والدين أحمد بن علي
الدلجي طاب ثراه
آمين



كلمة للناشر (*)

ترتاح القلوب الموجعة والنفوس الابية التى سحقتها الدهر بهمومه لسماع انباء امثالهم ممن جافاهم الحظ وصادقهم النكد وسئمت منهم الايام اذ تجد فى ذلك عزاء لمصابهم وتسلية لافئدتهم وقد قيل فى المثل الذى سار سائره اذا عمت المصيبة هانت فصبت نفسى لنشر كتاب في هذا الباب ترتاح اليه النفوس المنكودة وتجد فيه عزاءها الجميل اذ جمع من نكبهم الفقر المدقع من اماجد الاكارم وافاضل العلماء ونوابغ الحكماء الذين كانوا غرة فى جبين الدهر وشموساً يستضاء بها في غياهب الجهل وبقيت مآثرهم على مدى الازمان تنطق بما نشروه من العلوم والفنون

وقد عثرنا على هذا الكتاب في مكتبة العلامة الفاضل المرحوم الشيخ احمد الزرقاني وراجعناه على نسخة اخرى من مكتبة صديقى الفاضل احمد

(*) هذه كلمة ناشر الكتاب فى طبعته الصادرة عن مكتبة ومطبعة الشعب سنة ١٣٢٢ هـ .

بك تيمور وصححه العلامة الفاضل الشيخ عطيه البشارى احد اساتذة المدارس الاميرية والنابغة الفاضل الشيخ نصر المادلى احد مصححي المطبعة الاميرية وأضافا عليه بعض شروح في المواضع التى يصعب فهمها فأصبح بحمد الله يختال فى ثوب قشيب من الصحة وبهاء الطبع وجودة الورق

وهذا الكتاب الذى وسمه صاحبه بهذا الاسم الفارسى (الفلاكة والمفلوكون) أي الفقر والفقراء وحيد فى بابه ولم ينسج على منواله، حلّل فيه الفقر وذويه تحليلا دقيقا إذ بحث فيه عن معناه وأسبابه وعلله وذويه وحالتهم واورد فيه أشهر من عضهم الفقر بنابه وأناخ عليهم الدهر بكَلْكَلِهِ وما قالوه من رقيق النظم في هذا المعنى مع ترتيبه ترتيبا لطيفا والكتاب يخبر عن طول باع واضعه فى الانشاء والفلسفة والجدل ودقة البحث وسلامة الذوق

وسنزف لأهل العلم والأدب غيره من غرر الكتب وسنوالى طبعها بدون توانٍ عسانى أخطو كغيرى خطوة في خدمة العلم وإعلاء شأنه والله اسال أن يمهد لى السبيل ويشجعنى بإقبال اهل العلم على اقتناء ما اظهره لهم من جليل الكتب والله يهدي لأقوم سبيل

خليل صادق

فهرست كتاب الفلاكة والمفلوكين

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لمن يستحق الحمد لذاته وهويته . ويستوجب الشكر لكمال إلاهيته . وتتقاصر الاوهام عن دقائق اقداره وأقضيته . وتتحير الافهام في لطائف آلائه ورأفته . وتدهش العقول فى كمال مصنوعاته وحكمته . وتقف الافكار حيرى في كبريائه وقاهريته . الخلق مقهورون محجوجون بساطع حجته والقلوب في تصرفه يقلبها كيف يشاء على وفق مشيئته . ما من شيء الا وفي خزائنه غير معدوم . وما ننزله الا بقدر معلوم . «ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين» . على علمه الخير والشر . والنفع والضُر . والحركات والسكون . والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره كل فى فلك يسبحون. جعل لكل اجل كتابا . وللمسببات اسباباً . وربط المسببات بالاسباب وهو خالق الاسباب والمسببات . وأوقع الشبع عقيب الاكل دائماً على العادة وهو غني عن العادات . وهب العقل فيسّر به سواء السبيل. وركّب الخُرق(١) فنقص به الحظ من التحصيل . ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها انه على صراط مستقيم . «انما امره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون» . اغنى وأقنى . وأضحك وابكى . وامات وأحيا . «لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون» . واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن وهو العليم الحكيم . يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين اعد لهم أشد عذاب اليم . واشهد ان محمداً عبده ورسوله الهادى باذنه الى صراط مستقيم . «عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف

---

(١) الخرق بالضم الحمق وان لا يحسن الرجل العمل والتصرف في الامور . اهـ من القاموس

رحيم ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وذويه ، وسائر أتباعـه وأوليائه ومحبيه . وسلم تسليما كثيراً

(وبعد) فقد منحتكم يا معشر إخواني المفاليك كتاباً بديع المثال . منسوجاً على غير منوال . مخترعاً من غير سابقة مثال . مَسْلاة(١) وتمثلا . وحكمة وعللا . تتخذونه مفاكهة وامثالا . وتتصرفون به في ظنونكم رداً واعمالا . وتنزعون به ايديكم من ربقـة التقليد انتزاعاً . وترفعون به نحو الاغراض والمقاصد شراعا . وكان المحركُ لهذه الكتابة أن سائلا سأل عن السبب في غَلَبَة الفـلاكة والاهمال على نوع الانسان . فصادف مني نشاطاً للكلام فى ذلك نفثة مصدور . وضربة موتور . وناراً ساكنة القمهاحطباً . ودعوة وافقت ارادة ومطلبًا . وانا اعتـذر عما لا يوافق الغرض ولا يصيب الغرض[1]. وعن استبدال الجوهر بالعرض . بان استكشاف اسرار الدقائق . واستشفاف انوار الحقائق . مما يتعذر او يتعسر مع العوائق البدنية . والصوارف النفسانية . ولو كان الخاطر صقيلا باتراً . ومواد الكلام بحراً زاخراً . فكيف اذا كانت الفكرة كليلة . والبضاعة من العلم قليلة . والصوارف متناصرة . والبواعث متقاصرة . والشواغل الى حد المنع من معاودة التنقيح والتهذيب . والوقت ضيق عن اختيار الالفاظ وجودة الترتيب. والكتب مفقودة أو مستعارة . والهموم تشن غارة بعد غارة .هذا مع ان المخترعات التي لم تسبق بتصنيف ولا بتدوين وترصيف . لا تبلغ بها الفائدة نصابَها. وتفتح للمعاذير ابوابها. ومن الله استمد العصمة من وصمة الغلط . وغوائل الاوهام وبوادر السَّقَط[2]. وان يوفقنا لاخلاص النية. واحسان الطوية ، ورتبت مقصود هذا الجمع في فصول — الفصل الاول — فى تحقيق معنى المفلوك الذي قُصر عليه هذا الكتاب — الفصل الثانى — فى خلق الاعمال وبيان ان لا حجة للمفلوك فى التعلق بالقضاء والقدر — الفصل الثالث — فى ان التوكل لا ينافى التعلق بالاسباب وان الزهد لا ينافى كون المال فى اليدين — الفصل الرابع — فى الآفات التي تنشأ من الفلاكة وتستلزمها الفلاكة وتقتضيها — الفصل الخامس —

---

(١) هو مفعله من السلوان اى يسليك عن الالتفات الى متاعب هذه الحياة وقوله وتمثلا في القاموس تمثل بالشيء ضربه مثلا والى هذا المعنى والذى قبله يشير قوله تتخذونه الخ

فى أن الفلاكة والإهمال ألصق بأهل العلم وألزم لهم من غيرهم وبيان السبب في ذلك — الفصل السادس — في مصير العلوم كمالاتٍ نفسانيةً وطاعةً ليس الا بعد كونها صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف وبيان السبب فى ذلك — الفصل السابع — فى غَلَبَة الفلاكة والاهمال والاملاق على نوع الانسان وبيان السبب فى ذلك — الفصل الثامن — فى ان الفلاكة المالية تستلزم الفلاكة الحالية — الفصل التاسع فى ان التملق والخضوع وبسط اعذار الناس والمبالغة فى الاعتذار اليهم واظهار حبهم ومناصحتهم من احسن احوال المفلوكين واليق الصفات بهم وافضى الطرق بهم الى مقاصدهم وبيان الدليل على ذلك — الفصل العاشر — فى تراجم العلماء الذين تقلصت عنهم دنياهم ولم يحظوا منها بطائل — الفصل الحادى عشر — في مباحث تتعلق بالفصل قبله ومن المباحث النكبات الحاصلة للأعيان — الفصل الثاني عشر — فى اشعار المفلوكين أو من فى معناهم وما فيها من مقاصد شتى وبيان ان الحامل عليها انما هو الفلاكة — الفصل الثالث عشر — في وصايا يستضاء بها فى ظلمات الفلاكة نختم به الكتاب

الفصل الاول

فى تحقيق معنى المفلوك

هذه اللفظة تلقيناها من افاضل العجم ويريدون بها بشهادة مواقع الاستعمال الرجل الغير المحظوظ المهمل في الناس لاملاقه وفقره وليس فى صحاح الجوهرى ولا فى القاموس المحيط فى هذه المادة مايصلح لهذا المعنى الاقول صاحب القاموس: فَلَّكَ تفليكا اذا لجَّ في الامر فانه يمكن ان يجعل مصححا لهذا الاستعمال. وبيانه ان اللّجاج لازم الاملاق فانه يلزم من الاملاق وعدم الحظ اللجاجُ فيكون من باب اطلاق اللازم وارادة الملزوم وهذا مع مافيه من التكلف مردود بأنّ فَعّلَ تفعيلا لايصح ان يكون اسم المفعول منه بزنة مفعول[3] والذى يظهر انه مأخوذ من الفلَك الذى هو جسم محيط بالعالم فكأن الفلك يعارض غير المحظوظ فى مراده ويدافعه عنه — فان قيل هذا فاسد لفظًا ومعنى أما اللفظ فلأن الفلك اسم جامد لايصح ان يشتق منه صيغة مفعول ولا يصح اشتقاقه من الفلك

لما فيه من معنى الاستدارة لان الفلاكة بمعنى عدم الحظ ليست من معنى الاستدارة فى شئ ولا على المجاز على معنى ان عدم الحظ لما استلزم الحركة والاضطراب والجولان كان اطلاقها وارادته من باب اطلاق اللازم وارادة الملزوم لان اللازم لعدم الحظ هو مطلق الحركة والاضطراب لا الحركة المقيدة بالاستدارة وأما المعنى فان اشتقاقه من الفلك على معنى ان الفلك يعارضه فى مراده ويدافعه عنه غير مستقيم لما تقرر فى الكتب الكلامية ان الله تعالى هو خالق كل شئ — فالجواب عن الاول ان اشتقاق المفلوك من الفلك غير ممتنع فقد قالوا رَأَسْتُه بمعنى ضربت رأسه ورأَيْتُه بمعنى أصبت رِئته وابلغ من ذلك اشتقاقهم من الحروف كما فى اشتقاق أُحاشي من حاشي الحرفية الاستثنائية في احد التخريجين في قول من قال * ولا أحاشي من الاقوام من أحدٍ[4] * وابلغ من ذلك اشتقاقهم من لفظ الجملة كالحوقلة والبسملة والهيللة — وعن الثانى — ان ذلك من قبيل المجاز العقلى وهو نسبة الشئ الى زمانه مجازا تشبيها للتلبس الغير الفاعلى بالتلبس الفاعلى ويشهد لذلك ماقاله العلماء فى قوله صلى الله عليه وسلم «الشؤم فى ثلاثة أو إنْ يكن الشؤم ففى ثلاثة المرأة والدار والفرس» على اختلاف الروايتين جزما وتعليقا من ان ذلك على المجاز والاتساع اى قد يحصل الشؤم مقارنا لها وعندها لأنها هى فى أنفسها مما توجب الشؤم فقد تكون الدار قد قضى الله تعالى أن يُميت فيها خلقا من عباده كما يقدِّر ذلك فى البلد بالطاعون والوباء فيضاف ذلك الي المكان مجازا والله خلقه عنده وقدره فقد صح بهذا التقرير جواز أخذ المفلوك من الفلك على معنى انه الذى يعارضه الفلك فى مراده على جهة التّجوُّز ولو سلم ان السعود والنحوس لاتدور مع حركات الافلاك دائما لم يكن ذلك قادحا فى صحة التجوز لان اضافة الفعل الى زمانه مجازا لاتحتاج الي كون القضية دائمة كما فى قولهم نهاره صائم وليله قائم وامثاله ممـا لايحصى . على انا نقول اللغة اصطلاحية على قول والالفاظ العلمية التي يدير عليها اهلُ كل علم علمهم كالرفع والنصب للنحاة مثلا اصطلاحية اجماعا ووفاقا . ووجه اختيار لفظ الفلاكة على الفاقة والاملاق والفقر ونحوها ان هذه الالفاظ الثلاثة ونحوها نص وصريح فى مدلولها بخلاف لفظة الفلاكة والمفلوك فانه يتولد منهما بمعونة القرائن معان لائقة بالمقامات على كثرتها وتفاوتها .

الفصل الثاني

في خلق الاعمال وما يتعلق به

أما مذهب امام الحرمين[5] وجهور الفلاسفة وابي الحسين البصري[6] من المعتزلة فهو ان الله تعالى يوجد للعبد القدرة والارادة ثم تلك القدرة والارادة يوجبان وجود المقدور ومذهب اكثر المعتزلة ان القدرة الحادثة موجبة لحدوث مقدورها وانه لا تأثير للقدرة القديمة فيه ومذهب الشيخ ابي الحسن الاشعري[7] وجماعة من اصحابه والقاضي ابي بكر الباقلاني[8] في احد اقواله والنجّار[9] من المعتزلة انه لا تأثير للقدرة الحادثة في حدوث مقدورها ولا في صفة من صفاته وان اجرى الله العادة بخلق مقدورها مقارنًا لها فيكون الفعل خلقًا من الله ابداعًا واحداثًا وكسبًا من العبد لوقوعه مقارنًا لقدرته . واختلف في تفسير الكسب على قولين احدهما ان ذات الفعل تحصل بقدرة الله تعالى وكونه طاعة ومعصية كما في لطم اليتيم تأديبًا وايذاء صفات له تابعة لوجوده يحصل بقدرة العبد لان مفهوم الفعل اعم من خصوص كونه قيامًا وقعودا ومابه التمايز غير مابه الاتحاد فما به التمايز هو الكسب صرح بذلك الابهري[10] في شرح المواقف وبعض شراح الطوالع ولكن المشهور ايراده مذهبا للقاضي ابي بكر الباقلاني واخذا من اقواله — القول الثاني — وهو المشهور في تفسير الكسب انه تصميم العزم على الفعل على معنى ان الله تعالى اجرى عادته بان العبد اذا صمم العزم على المعصية يخلق الله تعالى فعل المعصية فيه فالعبد وان لم يكن موجدا الا أنه كالموجد. واستدلت الاشاعرة على مطلوبهم بمسالك كثيرة ضعفها الآمدي[11] في ابكار الافكار ولم يرتض منها الا مسلكين اخصرهما لو كان العبد خالقا لافعال نفسه للزم وجود خالق غير الله ووجود خالق غير الله محال ويلزم من انتفاء اللازم انتفاء الملزوم . واما المعتزلة فاستدلوا على مذهبهم بوجوه كثيرة مرجعها الى امر واحد وهو انه لولا استقلال العبد بالفعل البطل مدح العباد وذمهم على الطاعات والمعاصي اذ لا يمدح زيد ولا يذم بما يفعله عمرو من طاعة او معصية ولا ارتفع الثواب والعقاب لان العبد اذا لم يكن موجدا لفعله لم يستحق ثوابا ولا عقابًا وكان الله مبتدئا بالثواب والعقاب من غير استحقاق من العبد لذلك ولو

كان كذلك لجاز عقاب الانبياء وثواب الكفرة الاغبياء ولم يبق لأحد وثوق بعمله ولايخفى مافى ذلك من تشويش الدين والخبط فى الشريعة وايضا لولا الاستقلال لبطل التكليف بالاوامر والنواهي والتأديب لانه اذا لم يكن العبد موجدا لافعاله فكيف يصح عقلا أن يقال ائت بفعل الايمان والصلاة والزكاة ولا تأت بالكفر وشرب الخمر والزنا لانه تكليف بما لا يطاق ولبطل ايضاً فائدة بعث الانبيا وهي دعوة المكلفين الي فعل الطاعات وزجرهم عن المعاصي اذا لم يصدر منهم عمل فيلزم التكليف بمالايطاق — والجواب بمنع الملازمات — اما فى المدح والذم فلانهما باعتبار المحلية لا باعتبار الفاعلية اذ يجوز ان يمدح الشئ لحسنه وسلامته ويذم لقبحه وعاهته فتمدح الجوهرة لحسنها وصفائها ونقائها من العيوب واماالثواب والعقاب فلأن عادة الله جارية على خلق الثواب عَقيبَ خلق الطاعات وعلى خلق العقاب عَقيبَ خلق المعاصى لأن العبد يوجد الطاعة والمعصية وهمايوجبانهما كما يخلق الشبع عقيب خلق الاكل والاحتراق عقيب مسيس النار وان قدر على ان يخلقهاابتداء. وقولهم لولم يكن الثواب جزاء فعل العبد لجاز عقاب الانبياء وثواب الكفرة قلنا مسلَّم ولكن جوازا تحيله العادة اولا تحيله العادة الاول مسلّم والثانى ممنوع فلا يشك فى انتفاء ماذكروه وان كان جائزا عقلا واماحديث التكليف والتأديب والبعثة والدعوة فلانها قد تكون دواعى الفعل واجرى الله العادة بترتيب آثارها عليها

وتخليصه ان الاشاعرة لماوردت عليهم هذه الشبهة ورأوا أيضاً تفرقة بديهية بين مانزاوله من الافعال الاختيارية ومن حركة المسحور على وجهه والمرتعش وذادهم ومنعهم البرهان الدال على ان الله خالق كل شئ عن اضافة الفعل الي اختيار العبد مطلقا جمعوا بين الامرين واثبتوا الكسب على التفسيرين السابقين فاما ان يقال كون خصوص الفعل من كونه طاعة ومعصية واقعاً بقدرة العبد كاف فى تكليفه وتأديبه ودعوته واما ان يقال العبد اذا صمم العزم على المعصية يخلق الله فعل المعصية فيه واذا صمم علي الطاعة يخلق الله فعل الطاعة فيه وعلى هذا يكون العبد كالموجد لفعله وان لم يكن موجدا وهذا القدر كاف فى التكليف والتأديب والدعوة وهذا ايضاً مشكل لان الدواعى والتصميم فعل من الافعال مخلوق لله تعالي فلا مدخل للعبد اصلا ووجه الاعتذار عن هذا الاشكال كما

قرره الاصفهاني أن الله تعالى يوجد القدرة والارادة فى العبد ويجعلها بحيث لهما مدخل في الفعل لابان تكون القدرة والارادة لذاتهما اقتضت ان لهما مدخلا فى الفعل بل كونهما بحيث لهما مدخل بخلق الله اياهما على هذا الوجه ثم يقع الفعل بهما فان جميع المخلوقات يخلق الله بعضها بلا واسطة وبعضها بوساطة اسباب لابان تكون تلك الوسائط والاسباب لذاتها اقتضت ان يكون لها مدخل في وجود المسببات بل بان خلقها الله تعالى بحيث لها مدخل فتكون الافعال الاختيارية المنسوبة الي العبد مخلوقة لله تعالى أو مقدورة للعبد بقدرة خلقها الله تعالى فى العبد وجعلها بحيث لها مدخل فى الفعل — والغرض من هذا الفصل اقامة الحجة على المفلوكين وقطع معاذيرهم والجامهم عن التعلق بالقضاء والقدر وانه متى نعيت اليهم فلاكتهم او نودى عليهم بها كان ذلك متجها مخيلا لانهم اما فاعلوها استقلالا اومشاركة واما بالحلية والمدخلية على ماسبق تحقيقه — ولو سلم ان ذلك من باب القضاء والقدر الصرف او فرضت فلاكة سماوية صرفة فكلمات العلماء فى مجارى ابحاثهم طافحة بان القضاء والقدر لايحتج به وذلك لما روى مسلم فى صحيحه « ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اجتمع آدم مع موسى فقال له موسى يا آدم انت خيبتنا واخرجتنا من الجنة فقال آدم اتلومنى على امر قدره الله عليّ قبل ان يخلقنى باربعين سنة قال صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى » قال النووى فى شرحه فان قلت فان العاصى منا لو قال هذه المعصية قدرها الله عليّ لم يسقط عنه اللوم والعقوبة بذلك وان كان صادقاً فيما قاله فالجواب ان هذا العاصى باق فى دار التكليف جار عليه احكام المكلفين من العقوبة واللوم والتوبيخ وغيرها وفي لومه وعقوبته زجر له ولغيره عن مثل هذا الفعل وهو محتاج الى الزجر مالم يمت فاما آدم فميت خارج عن دار التكليف وعن الحاجة الي الزجر فلم يكن فى القول المذكور له فائدة بل فيه ايذاء وتخجيل انتهى فانظر كيف اعترف بحقية السؤال واعتذر فى الجواب بأن الحديث ليس منه والقضاء والقدر وان لم يحتج به فى الدنيا فجائز ان يحتج به الانبياء فى الآخرة لعلو مقامهم عن الايذاء والتخجيل واذا ثبت أن القضاء والقدر لايحتج به فى المعاصى فغيرها كذلك اذ لا قائل بالفرق او المقايسة لان العلة التى اقتضت المنع من الاحتجاج بالقدر فى المعاصى مطردة فى غيرها من اقداره تعالى بالمناسبة والاخالة

الفصل الثالث

(فى ان التوكل لاينافى التعلق بالاسباب وان الزهد لاينافى كون المال فى اليدين)

ومقصود هذا الفصل يحصل بالـكلام على مقامين — المقام الاول — مقام التوكل التوكل في اللغة عبارة عن اظهار العجز والاعتماد علي الغير وخص بما يكون الاعتماد فيه على الله تعالى وفى الاصطلاح عبارة عن دوام حسن ملاحظة القضاء والقدر فى جميع الحوادث دون اقتصار النظر على الاسباب الطبيعية ودوام حسن الملاحظة يجامع التعلق بالاسباب ولا ينافيها وحينئذ فحركة العبد ببدنه اوبتدبيره اما لجلب نفع كالـكسب أوحفظه كالادخار أو دفع ضر كمقاومة الصائل أو قطعه كالتداوى فأما جلب المنافع ودفع المضار ورفعها فإفضاء الاسباب اليه اما مقطوع به وهى الاسباب التى ارتبطت المسببات بها بتقدير الله تعـالى ارتبـاطاً مطرداً. واما مظنون ظناً يوثق به وهى المسببات التى ارتبطت بالاسباب ارتبـاطاً أكثرياً بحيث لايحصل بدونها الا نادراً واماموهوم وهو لايوثق به ولا يطمأن له.

فأما المقطوع بافضائه والمظنون افضاؤه من الجلب والدفع والرفع كمد اليد الى الطعام الحاضر واستصحاب الزاد فى السفر في البرارى المقفرة والتنحّي عن مجرى السيل وعن مفترس الاسد وترك النوم تحت الجدار المائل واغلاق الباب وعقل البعير والتداوى بالامور المجربة فـكل ذلك لاينافى التوكل واهماله مراغمة لحـكمة الله تعالى فى نصب الاسباب وعدم الاكتفا بالقدرة المجردة وجهل بسنة الله وعادته فمن ترك الوِقَاع(13) ومد اليد الى الطعام ولبلاعه باطباق اعالى الحنك على اسافله وانتظر ان يحصل له ولد كما ولدت مريم عليها السلام او أن يخلق الله له الشّبع بغير أكل او يرسل ملكاً فيمُضِغَه و يدخله في فيه فهو مجنون جاهل بالشريعة لان الاكتساب لاحياء النفس واجب والاكتساب لنفقة الزوجة والبعض اصلا كان او فرعاً فى الثابت الصحيح واجب ايضاً ولان اهمال العيال حرام واهلاك النفس جوعاً حرام واغلاق الباب عليه وسد طريق العلم به وامتحان قدرة الارزاق حرام وتصبير النفس على الجوع لمن لاتطيق نفسه ذلك وتضطرب عليه حرام كما قاله

على الجوع مدة فان كان لايطيقه ويضطرب عليه قلبه وتتشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل انتهى وقد قال صلى الله عليه وسلم للاعرابي لما اهمل بعيره وقال توكلت على الله اعقلها وتوكل على الله وقال تعالى (خذوا حذركم) وقال فى كيفية صلاة الخوف (وليأخذوا أسلحتهم) وقال (واعدوا لهم ماستطعتم) وقال لموسى (فأسر بعبادى ليلا) والتحصن بالليل لاخفائهم عن عين العدو نوع تسبب واختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار عن عين الاعداء للضرر واخذ السلاح في الصلاة سبب مظنون — وأما الموهوم افضاؤه دفعاً وتحصيلا كالرقية والكي والاستقصاء فى حيل المعيشة والتدبيرات الدقيقة من وجوه الاكتساب فذلك كله مناف للتوكل لما انه من ثمرات الحرص وحب الدنيا لا لمنافاته التوكل بالذات لأنا قد قدمنا ان التوكل عبارة عن دوام حسن ملاحظة القضاء والقدر في جميع الحوادث وهذا انما ينافى الاستقصاء وتدقيق التدبير باختلاف اللوازم لا بالذات فحينئذ التوكل هو عدم الاعتماد على الاسباب مفضية كانت الى مسبباتها بالقطع ام لا وان يكون الاعتماد على خالقها فان اليد والطعام وقدرة التناول مثلا كلها من قدرة الله تعالى وكيف يتكل على اليد وغيرها وربما تفلج في الحال ويهلك الطعام أو يحدث من تناوله مرض يؤدى الى الهلاك أو يتسلط على زاد المسافر غاصب اوسارق وما شاكل ذلك من الآفات فيجب أن يعتمد على فضل الله تعالى فى دفع جميع هذه الاشياء . فقد بان واتضح مما قررناه ان ليس من شرط التوكل ترك الاسباب واطراحها واهمال الكسب بالبدن والتدبير بالقلب والسقوط على الارض كالخرقة (١) اللَّقَى او كلحم على وضم فان ذلك كله حرام فى الشرع ولن يتقرب الى الله بمحارمه — واما الادخار فما كان منه مع فراغ القلب عن المدخر فليس من ضرورته بطلان التوكل هكذا صرح به في الإحياء واما غيره فمن انزعج قلبه بترك الادخار واضطربت نفسه وتشوشت عليه عبادته وذكره (٢) واستشرف الى

(١) في القاموس اللقي كالفتي ما طرح اه اى كالخرقة البالية الملقاة وقوله كلحم على وضم الوضم ما وقيت به اللحم عن الارض من خشب وحصير وتركهم لحماً على وضم ذللهم واوجبهم اه .

(٢) استشرف الى الشئ تطلع اليه اه .

« ٢ — الفلاكه »

مافى أيدي الناس فالادخار له اولى لان المقصود اصلاح القلوب لتتجرد لذكر الله ورب شخص يشغله عنه وجود المال ورب شخص يشغله عدمه والمحذور هو الشغل عدماً كان أو وجودا فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها ولذلك بعث صلى الله عليه وسلم الى اصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون اي اهل الحرف والصنائع فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا امر التارك لها بالاشتغال بهما بل دعا الكل الى الله وارشدهم الى ان نجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته كما أن صواب القوي ترك الادخار وكذلك المعيل[15] لايخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبرا لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم وقد ادخر صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنته وأما نَهْيُ ام أيمن عن ان تدخر شيئاً لغد ونهى بلال عن الادخار فى كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها وقال « انفق بلال ولا تخش من ذي العرش اقلالا » فلأن الادخار يضر بعض الناس دون بعض وكذلك ماروي ابو امامة الباهلى ان بعض اصحاب الصُّفَّة[16] توفى فما وجد له كفن فقال صلى الله عليه وسلم « فتشوا ثوبه فوجدوا فيه دينارين فى داخل ازاره فقال صلى الله عليه وسلم كيتان» وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف اموالا كثيرة فلايقال ذلك فى حقه ووجه الجمع بين هذين الامرين ان اظهار الزهد والفقر والتوكل مع تلك الدنانير تلبيس — قلت — رأيت فى ترجمة النجم الخبوشاني الآمّار بالمعروف النّهّاء عن المنكر للملوك فمن دونهم الذى يضرب به المثل فى الزهد انه لما مات وجدوا له الوف دنانير هذا مع مبالغة المترجمين له في الثناء عليه ومع ما فى ترجمته من انه كان يصوم ويفطر على خبز الشعير ويركب الحمار وآنية بيته كلها خزف فهذا الكلام مع نبوه عن هذا المقام سهل ذكره ما ذكره العلماء فى الجمع بين حديث الدينارين وعدم انكار الاقوال الكثيرة في ميت آخر وان ذلك لما ان اظهار الزهد والباطن بخلافه تلبيس فاعجب لحال الخبوشانى وعَجِّبْ ولا تغتر

المقام الثانى فى أن الزهد لا ينافي كون المال فى اليدين — الزهد فى اللغة الرغبة عن الشئ خصص بما يكون الرغبة فيه عن الدنيا وفى الاصطلاح ترك المباح المحبوب المقدور عليه لاجل الله وفي ضابطه قيود الاول ترك المباح فتارك المحظورات لا يسمى

زاهدا الثاني المحبوب فتارك (١) مالا يوبه اليه كالتراب والحجر لا يسمى زاهدا ـ الثالث كونه لاجل الله فبذل المال وتركه على سبيل السخاء والفتوة واستمالة القلوب والطمع في الثناء لا يكون زهدا اذ الذكر والثناء وميل القلوب اهنأ من المال فهو استعجال حظ آخر للنفس — الرابع المقدور فمن ترك مالا يقدر عليه كغير ابن أدهم من امثالنا في دعوى الزهد في الملك لا يكون زاهدا وفي افراد المباح اشارة الي ان الزهد يتبعض كما ان التوبة تتبعض فمن ترك بعض التمتعات من الشهوة والغضب والرياسة دون بعض كان زاهداً ـ وأما القانع فهو المرجح لوجود المال على عدمه ترجيحاً لايحمله على الدأب فيه فقولنا المرجح خرج به من لايحب حصوله ولا يكره زواله وهو الراضي وقولنا ترجيحاً لايحمله على الدأب فيه خرج به من يتركه عجزاً و يسعى فيه ما وجد سبيلا وهو الحريص وهذه المرتبة وهي مرتبة الحرص وان كانت دنيا فان لها فضلا لدخولها تحت العمومات الواردة في فضل الفقر وذلك جمع بين قوله صلى الله عليه وسلم « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل اغنيائهم بخمسمائة عام » وبين قوله صلى الله عليه وسلم في حديث آخر باربعين خريفاً اي اربعين سنة بان الاول تقدير تقدم الفقير الزاهد على الغني الراغب والثاني تقدير تقدم الفقير الحريص على الغني الراغب فكان الفقير الحريص على درجتين من خمسة وعشرين درجة من الفقير الزاهد اذ هذه نسبة الاربعين الى الخمسمائة وأما قوله صلى الله عليه وسلم « يامعشر الفقراء اعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والا فلا » فلا يقتضي ان الحريص لاثواب له على فقره لان العمومات تقتضي ان له ثوابا فلعل المراد بعدم الرضا الكراهة لفعل الله من حبس الدنيا عنه ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه انكار على الله ولا كراهة لفعله ـ اذا عرفت تمايز هذه الحقائق بمسمياتها واسمائها فاعلم ان وجود المال في اليدين لا في القلب ودخول الدنيا على العبد وهو خارج عنها لا ينافي الزهد فان ترك المال واظهار الخشونة سهل على من أحب المدح فكم من الرهابين من رد نفسه في كل يوم الى قدر يسير من الطعام ولازم ديرًا لا باب له وانما أعلى المقامات ان يستوي عند القلب وجود المال وفقده فان وجده لم يفرح ولم يتأذ

(١) في القاموس هو لا يوبه له اي لا يفطن ولا يفتبه اليه اه والمعنى انه لاينظر اليه ولا يهتم به اه

وكذلك ان فقده وقد روي عن عائشة انها فرقت في يوم مائة الف درهم فقالت لها جاريتها هلاّ شريت لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه فقالت لو ذكرتني لفعلت وذلك لان الكاره للدنيا (١) مشغول بالدنيا كما ان الراغب فيها مشغول بها والشغل بما سوى الله حجاب عن الله فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله والمشغول ببغض نفسه مشغول عن الله أيضاً بل كل ماسوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق فان التفت قلب العاشق الى الرقيب و بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو في حال اشتغال قلبه به منصرف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه فكما ان النظر الى غير المعشوق بحب شرك كذلك النظر الى غيره ببغض شرك فيه ونقص — واما هروب الانبياء والاولياء والاكابر من الدنيا فذلك لان الدنيا خداعة مدعاة الى الشهوات والراحة في بذلها أنس بغير الله والأنس بغير الله بعد عن الله فالانبياء والاولياء يتركون الدنيا للتشريع والتعليم والخوف على أتباعهم من ان يتشبهوا بهم مع عدم قوتهم فيهلكوا ومن دونهم ممن لا قوة له يترك ذلك احتياطاً وحزما فان استواء الذهب والحجر في القلب عسير ومزلة قدم وهو حال الانبياء وأفراد الاولياء — ويوضح لك ان المال في اليدين بدون القلب لاينافي الزهد ان خزائن الأرض حملت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى ابي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها. وكان لعثمان عند خازنه يوم قتل ثلاثون الف الف درهم وخمسمائة الف درهم وخمسون ومائة الف دينار وترك الف بعير بالربذة وترك صدقات كان يتصدق بها بين اريس وخيبر ووادي القرى قيمة مائتى الف دينار وكان للزبير عند وفاته خمسون الف الف ومائتا الف قال عروة كان للزبير بمصر خطط و بالاسكندرية خطط و بالبصرة دور وكانت له غلات تقدم عليه من اعراض المدينة — وترك عبد الرحمن بن عوف الف بعير وثلاثة آلاف شاة قال ابن سيرين كان فيما ترك ذهب قطع بالفؤوس حتى مَجِلَت[17] ايدي الرجال منه وترك اربع نسوة فأخرجت امرأة من ثمنها بثمانين الفاً — قال ابوالاسود عن عروة اوصى عبد الرحمن

---

(١) اى بكراهتها ضودائما يعمل نفسه في التنحي عنها والتخلص منها كما ان الراغب فيهامشغول بتحصيلها فهو في كلتا الحالتين مشغول بها دفعاً وتحصيلا اه

بن عوف فى السبيل بخمسين الف دينار وروى موسى بن محمد بن ابراهيم التيمي عن ابيه قال كان طلحة يغل بالعراق ما بين اربعمائة الف الى خمسمائة الف و يغل بالسراة عشرة الاف دينار او أقل أو أكثر وبالاعراض له غلات وكان يرسل الى عائشة اذا جاءت غلته كل سنة بعشرة آلاف وقضى عن صبيحة التيمى ثلاثين الف درهم وقال الواقدى حدثنى اسحق ابن يحيى عن موسى بن طلحة ان معاوية رضى الله عنه سأله كم ترك أبو محمد يعنى طلحة من العين قال ترك الفي الف درهم ومائتى الف درهم ومائتى الف دينار — وقال ابراهيم بن محمد بن طلحة كان قيمة ماترك طلحة من العقار والاموال وما ترك من الناض ثلاثين الف الف درهم وترك من العَينْ ألفي الف ومائتى الف درهم ومائتى الف دينار والباقى عروض[18] — وقال على بن رباح قال عمرو بن العاص رضى الله عنه حدثت ان طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه ترك مائة (١) بهار فى كل بهار ثلاث قناطير من ذهب قال وسمعت ان البهار جلد ثور والبهار لغة ثلثمائة رطل قال ذلك كله ابو عبد الله محمد بن سعد كاتب الواقدى[19] فى طبقاته الكبرى — وايضاً كان لسعد بن ابي وقاص والبراء بن معرور السلمى والعباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن عمر اموال كثيرة. و يدل علي ذلك ان العباس فدى نفسه وابن اخيه عقيلا بثمانين أوقية ذهبا و يقال الف دينار .وما روى عن عبد الله بن عمر انه كان اذا رأى من رقيقه امرا يعجبه اعتقه فعرف رقيقه منه ذلك فشمروا للعبادة فاعتقهم فقيل له انهم يخدعونك فقال من خدعنا بالله انخدعنا له . وما روى ان سعد بن ابي وقاص قال مرضت فأتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى فقلت يا رسول الله مال كثير وليس يرثنى الا ابنى أفأوصى بثلثى مالى قال لا الحديث — فهذا كله مما يدلك ان الدنيا ليست مكروهة لعينها والا لامرهم صلى الله عليه وسلم بالانسلاخ من اموالهم — واما المسئلة المشهورة فى التفضيل بين الغني الشاكر والفقير الصابر فذهب ابن عطاء الله قدس الله روحه الى تفضيل الغنى وخالف فى ذلك الجنيد وجمهور الصوفية وما اوردوه عليه من

---

(١) هو بالضم شيء يوزن به وهو ثلثمائة رطل او اربعمائة او الف وهو ايضاً العدل فيه اربعمائة رطل انظر القاموس

ان الغنى وصف الحق والفقر وصف العبد وصفات الربوبية لاينازع فيها معارض[١] بان العلم والمعرفة وصف الرب والجهل والغفلة وصف العبد فليكونا أفضل له ثم لا شك ان الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص والغنى المنفق ماله فى الخيرات أفضل من الفقير الحريص قال ابن دقيق العيد فى شرح العمدة الذى تقتضيه الاصول انهما ان تساويا وحصل الرجحان بالعبادات المالية يكون الغنى أفضل ولا شك فى ذلك وانما النظر فيما اذا تساويا فى اداء الواجب فقط وانفرد كل واحد بمصلحة مايوفيه فاذا كانت المصالح متقابلة ففى ذلك نظر يرجع الى تفسير الافضلية فان فسر الافضل بزيادة الثواب فالقياس يقتضى ان المصالح المتعدية افضل من القاصرة وان كان الافضل بمعنى الأشرف بالنسبة الى صفات النفس فالذى يحصل للنفس من التطهير للاخلاق والرياضة لسوء الطباع بسبب الفقر أشرف فترجح الفقر ولهذا المعنى ذهب الجمهور من الصوفية الى ترجيح الفقير الصابر لان مدار الطريق على تهذيب النفس ورياضتها وذلك مع الفقر أكثر منه مع الغنى فكان أفضل بمعني الشرف هكذا قاله ابن دقيق العيد فى الكلام على قوله صلى الله عليه وسلم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء لما شكى له ان الفقراء قالوا ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم الحديث — فقد بان لك واتضح بالكلام فى هذين المقامين ان التعلق بالاسباب لا ينافي التوكل وان وجود المال فى اليدين لا فى القلب لا ينافي الزهد والمقصود الجام المفلوكين عن التعلق بالزهد او التوكل فى انزواء الدنيا عنهم جدلا مهما كانوا محتجين لا زاهدين حقيقة فان الزاهد حقيقة لا كلام معه لان الزهد كما لا ينافي المال لا يستلزمه وغايته ان الزهد على قسمين قسم مع المال وقسم لا مع المال فلا منافاة ولا استلزام له

الفصل الرابع

فى الآفات التى تنشأ من الفلاكة وتستلزمها الفلاكة وتقتضيها

وهي أكثر من ان تحصى او يحملها القلم — فمنها — **ضيقة العطن** (١) والنزق وذلك

---

(١) هو كناية عن انقباض الصدر والنزق بالتحريك الخفة والطيش عند الغضب اه

ان طبيعة الفرح والسرور هو تفشي الروح الحيواني وتخلخله وينشأ من ذلك سعة الصدر وقبول النفس لما يرد عليها وانفعالها له ولذلك تتحين اصحاب الحوائج بحوائجهم سرور من يسألونه اياها وطبيعة الكمد والقبض هو تكاثف الروح الحيواني وتجمعه وينشأ منه ضيقة العطن والنزق وسوء العشرة والانحراف والانكماش عن الخلق — ومنها — ان الفلاكة يلزمها القهر والاكراه ومتي استولى القهر والغلبة على شخص حدثت فيه اخلاق رديئة من الكذب والتخييب وفساد الطوية والخبث والخديعة ولذلك كانت اليهود موصوفين بالخبث والذل والخديعة لاستحكام القهر عليهم وغلبة الاكراه على عامة احوالهم ولذلك ايضاً ينهي عن ارهاف الحد على الولدان والعبيد ويؤمر بترويحهم ومد الطول لهم خشية عليهم من اكتساب هذه الاخلاق الذميمة — ارسل هارون الرشيد الى خلف الاحمر لتأديب ولده الامين فقال له ان امير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة فؤاده فكن له حيث وضعك امير المؤمنين أقرئه القرآن وعرفه الاخبار وروّه الاشعار وعلمه السنن وبصّره بمواقع الكلام وامنعه من الضحك الا في اوقاته ولاتمرر بك ساعة الا وانت مغتنم فيها فائدة تفيده اياها من غير ان تخرق به فتميت ذهنه او تهمله فيستحلي الفراغ ويألفه وقوّمه ما استطعت بالتقرب والملاينة فإنْ أباهما فعليك بالشدة والغلظة[20] — ومنها الحقد وذلك انه اذا استحكمت الفلاكة وعرف بها شخص اوسعه الناس إغاظة استهوانا به وعدم مبالاة بغضبه وأمنًا من غائلته ومغبته فاذا تواردت موجبات الغضب وازدحمت عليه من توقيفه على نقائصه والاغماض عن كمالاته وتقريعه بزلاته وتوبيخه على تقصيره وهتك استاره واذاعة اسراره وجَبْهِهِ بأقبح الكلام في وجهه وعدم اعتباره والمبالغة في عتبه ومماكسته في مراده او عدم اسعافه به وعجْزَ عن الوقوف في ذلك موقف نكير أو ان ينفس غيظه منه بنفثة مصدور او ضربة موتور واستبحرت اسباب الغيظ وزخرت امواج العجز عن اطفائه بالانتقام عاد ذلك الي الباطن وأجّج فيه نارا وتحول حقدا وضغينة وسخيمة وتعوقه موانع الفلاكة عن اعماله فيصير ألما صرفاً ووسواسا سوداوياً ومعصية مجردة — ومنها الحسد وتوجبه الفلاكة من وجوه احدها انه اذا توالت مقتضيات الغيظ كما قدمنا وعجز المفلوك عن

الانتقام تحول ذلك حقدا وضغنا كما مر والحقد يقتضى الانتقام فان عجز أحب ان يتشفى منه بانتقام الزمان له منه وربما يحيل ذلك على كرامته عند الله وربما يظهر أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم منه وبالجملة فالفلاكة يلزمها الاغاظة والاغاظة يلزمها الحقد والحقد يلزمه ارادة الانتقام والعجز عن ذلك يلزمه حب زوال تلك النعمة التي بها التفاوت اللازم منه الاغاظة ولازم لازم الشئ لازم لذلك الشيء — وثانيها ان يثقل على المفلوك ان يترفع عليه غيره فاذا أصاب مُسَاوٍ له فى صفات النفس مالا او جاهاً وخاف ان يتكبر عليه وهو لا يطيق ان يتكبر عليه ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتيهه وتفاخره عليه وان يستصغره ويستخدمه وعجز عن زوال الفلاكة عنه واللحوق به فى تلك النعمة احب زوالها عن غيره — وثالثها ما يحدث فى نفوس المفلوكين من دعوى الاستحقاق لتلك النعم ولذلك قال ابن مقله

واذا رأيتُ فتى بأعلى رتبــة ✿ فى شامخ من عزّهِ المترفع
قالت لىَ النفسُ العَزُوف بقدرها ✿ ما كان أولانى بهذا الموضع

حتى ان من المفلوكين من تنتهى به دعوى الاستحقاق الى حد يرى ان النعم التى بايدى الناس استحقاقه ومغصوبة منه والمالك المستحق طالب لزوال ماله من ايدى الغاصبين لامحاله — ومنهــا الغيبة والطعن فى اعراض الناس والغض منهم وذلك ان الغضب والحقد والحسد ثلاثتها من البواعث العظيمة على الغيبة اذا امتلأ المفلوك غضباً وحقدا وحسدا وعجز عن الجرى على مقتضاها جهاراً ومواجهة التجأ الى الفكرة والغوص على مساوى خصومه واعمال الحيلة فى الاطلاع على عوراتهم وضم اليها اكاذيب وتنميقاً ونشرها على وجه الغيبة مرّةً ارادة الترفع بنفسه بسلامته من تلك النقائص اولِاتصافه بنقائضها الكمالية على سبيل التعريض كما يقول فلان فاسق اوشرير ارادة سلامته من ذلك او فلان جاهل او ذهنه ركيك وكلامه ضعيف تعريضاً باتصافه بنقائض ذلك. ومرّةً إرادة صرف الناس عن الاسترسال في تعظيم خصومه وكفهم عن الافراط فى الثناء عليهم ومحبتهم بتوقيفهم على مايوجب تنقيصهم وصرف القبول عنهم .ومرة بتمهيد عذر نفسه من اتصافه بالمساوى والنقائص بمشاركة العظماء له فى تلك المساوى .ومرة على

سبيل اللذة بالطعن فى الاعراض تشفياً بحسب المقدور حتى قال بعض الاعراب لم يبق من لذات الدنيا الا الطعن فى اعراض اللئام ثم يتعود لسانه هذه المعصية العظيمة حتى تصير له خلقاً وفكاهة ونُقلا[21] ويساعده على ذلك امكانها وتسهيلها وعدم افتقارها الى أدوات وآلات وكونها عبارة عن النطق الذى هو انضغاط الهواء فى المجرى على مقاطع الحروف والهواء والنفس طبيعى للحيوان بخلاف غيرها من المعاصى لتوقفه على أدوات كثيرة . وايضاً فالانسان خلق فعالاً بالطبع كما ذكره الشيخ فى الاشارات[22] ولا يتخلف عن مقتضى طبعه من الفاعلية الا لصارف وصادّ كما فى الافعال الشاقة التى لايمكن مزاولتها الا بتجشم الكُلَف والمؤَن وكما فى الصارف العقلى أو الوهمى من الكلام المضر فمهما وجد المقتضى وزال الصارف عن الفعل كما فى الكلام عملت الطبيعة عملها ولذلك كان الامتناع من الكلام ولزوم السكوت عسيرا شديداً — ومنها كون الفلاكة غطاء وستراً على محاسن المفلوك وكمالاته النفسانية وأدواته ومعارفه حتى ان الفلاكة تسرى الى نطقه ومصنوعاته ومقاصده فاما أن يُغفل عن محاسن كلامه ومقاصده ولا يُعبأ بها ويُعرض عنها واما ان يُصرف كلامه عن ظاهره بوجه من التأويل واما ان لايُفهم مراده منه واما ان يُدّعى عليه غير مراده واما ان يُدّعى فساد قصده فيه ولذلك تروج بعض الكتب بنسبتها الى رجل مرموق بعين الجلالة كما فُعل فى الورقات حيث نسبت الى امام الحرمين وليست له بشهادة عباراته الفائقة الرائقة في باقى كتبه ومخالفة الورقات لما فى البرهان فى التصحيح والحكم وكما فُعل فى السرّ المكنون وفى المضنون به على غير اهله حيث نُسبا الى الغزالي كما قاله الاسنوى فى الطبقات[23] وليْسَا لَهُ كما ذكره فى الطبقات ولذلك ايضا تجد البحث النفيس يلقيه الباحث بين الافاضل فيبادرونه بالانكار والتزييف والمناقشة ويضايقونه فيه حتى يقول لهم هذا البحث قاله الامام فخر الدين الرازي او الزمخشري مثلا او من في معناهما فحينئذ يرجعون الى ذلك البحث بالتأويل والتثبت ويعترفون بحسنه وربما يزيدونه توجيهاً وتقريرا. ولكون الفلاكة غطاء وسترا على المحاسن تجد الشهرة والصيت والسمعة يقعن فى غير موقعها غالبًا فرب شخص مشهور بالعلم أو الصلاح وليس هناك ورب شخص قعدت عنه الشهرة وهو أحق

بهاوذلك لان الفلاكة متى زالت عن شخص تُزُلِّف اليه بالثناء عليه ونشر المحاسن عنه وحُمِّل كلامه وفعله من المحاسن والمقاصد الجميلة فوقَ طاقته وناقلته الالسنة تزلفا اليه لما يعلمون من أن النفوس مجبولة على حب الثناء ووقعت المحاباة والإغماض عن أحواله المدخولة وأفرغت في قوالب جميلة بالتأويل والاعتذار وجاءت المغالطات بالتلبيس والتصنّع فيطير ذكره فى الآفاق وتسير به الركبان ويجئ الصيت والشهرة وليس هناك . وعلى الجملة فالشهرة إنما تقع فى غير موقعها من جهة ما يطرق الاخبار من التزلف بالثناء الكاذب او مايطرق الاحوال من الخفاء وعدم تطبيقها على الواقع لخفائها بالتلبيس والتصنّع فتنتشر على خلاف ماهي عليه .وانت خبير بأن التزلّف بالثناء انما يكون للاغنياء او من فى معناهم وان الاغماض عن التلبيس والتصنع وعدم كشف الغطاء عنه انما يكون لهم أيضاً واعتبر العكس بالعكس — ومنها ان الفلاكة مها استولت على عالم او فاضل او نبيه لزمه بسببها آلام عقلية ولا شك ان الألم العقلى أقوى من الألم الجسمانى ولذلك يكون التعب القلبي اشدّ إنهاكاً للبدن من التعب الجسمانى ولذلك يتحمل عظيم المشاق البدنية خوفاً من العتب والتوبيخ والملامة والتقريع كما ان اللذة العقلية أقوى من اللذة الجسمانية والدليل على ذلك من ثلاثة اوجه — اولها ان اللذة عبارة عن ادراك الملائم وكلما كان الادراك أشد والمدرك اشرف كانت اللذة أتم لكن الادراك العقلى أقوى من الجسمى لانه ينفذ في باطن الشئ فيميز بين الماهية واجزائها وعوارضها وجنسها وفصلها وأما الحسي فلا شعور له الا بظاهر المحسوس وسطوحه ومدرك العقل أشرف وهو الله تعالى وصفاته وملائكته وكيفية وضع العالم، ومدرك الحس السطوح وعوارضه واذا كان كذلك وجب كون اللذة العقلية أقوى من اللذة الجسمانية — وثانيها أنا نعلم بالضرورة ان احوال الملائكة اطيب من احوال البهائم وليس للملائكة شئ من اللذات الحسية فلولا ان اللذة العقلية أطيب والا لكان حال البهائم أطيب من حال الملائكة — وثالثها الحيوان قد يرجّح غيره على نفسه فى المطعوم والمشروب عند حاجته اليه ولولا أن لذة الايثار أقوى من لذة المطعوم والمشروب والا لما كان ذلك بل الشجاع قد يلقى نفسه فى المعركة مع ظن الهلاك او يقينه وما ذلك الا لأن لذة

الحمد أقوى من لذة الحياة واذا ثبت ذلك فى اللذة ثبت مثله فى الألم العقلى والجسمانى لان نسبة هذا الألم الي الألم الجسمانى كنسبة اللذة العقليـة الى اللذة الجسمانية وكلام الفلاسفة وابن سينا طافح بأن الالم العقلى أقوى من الألم الجسماني — اذا تقرر ذلك كله فللمفلوكين من أهل العقل والفضل والنباهة آلام عقلية تلزمهم — **أولاها** تشوفهم وتشوقهم الى المكارم والمعالى ومد أعناقهم نحوها ولاشك ان الشوق الى المشوق مع عدمه وعدم التمكن من تحصيله وعدم الاشتغال بما يلهى عنه عذاب مذاب ولذلك لا يبتهجون بالاعياد والمواسم بل تكون زيادة فى كدهم ونكدهم وستأتى اشعارهم فى تشوقهم الى المعالى وتألمهم على فقـدها فى الفصل الثانى عشر إن شاء الله تعالى — **وثانيها** تألمهم بذكر نقائصهم الواقعة منهم أحياناً بحكم البشرية لما ركب الله تعالى فى البشر من القوة الشهوانية والغضبية والمتوهمة اللواتى هى اصول الفساد وهى المشار اليها فى قوله تعالى (الى ظل ذى ثلاث شعب) فى احد الاقوال ولمـا ان للقلب ميلاً الى الاخلاق السبعية والبهيمية والشيطانية على ماهو مقرر فى كتب الصوفية ولما ركب ايضا فى الجسم من التسفل ولما جعل من ان الفساد ادخل تحت القدرة من الصلاح كالبناء والهدم ولا شك ان اطلاق النفس وطبيعتها ترويح لها وتنفيس من ألم ضبطها وحينئذ فيكون الترويح والتنفيس بالنسبة الى المفاليك ناقصاً (١) مخدَجاً لمـا فيه من ترقب التنقيص به ويكون ايضـاً عسير الانتظام نادر الوقوع لذلك ولقد احسن من قال

إمّا ذُنابى ولا تعباً بمنقصةٍ ❊ أو ذروة المجدواحذرْ أن تقع وسطا

وأشد من ذلك ألما واعظم مصيبة اضافة النقائص الموهومة او المكذوبة اليهم وهم منها براء ولقد عرى أهلَ الفضل من ذلك شدائد — كان الزمخشرى ابو القاسم محمود ابن عمر بن محمد الخوارزمى ساقط إحدى الرجلين وكان يمشى فى حلوب من خشب لسقوطها بالثلج فى بعض اسفاره فى بلاد خوارزم فكتب معه محضرا فيـه شهادة

---

(١) هو من اخدجت الناقة جاءت بولد ناقص وان كانت ايامه تامة ويقال رجل مخدج اليـــد ناقصها اه من القاموس (٢) الذنابى مثل حبارى الذنب وذروة الشيء اعلاه اى كن ذنباً سافلا او ذروة عالياً راقياً اه

خلق كثير بذلك لئلا يرمى بنقيصة السرقة — وكان ابن فضلان ابو القاسم يحيى بن علي ابن الفضل البغدادى الملقب جمال الدين الامام فى الاصول والخلاف والجدل الرئيس الوجيه ذاهبَ احدى اليدين لانه لما خرج من نيسابور سقط عن دابته ففسدت يده وادت الحال الي قطعها فعمل محضراً بذلك خوفا من التهمة بالقبيح ومع ذلك فقد كان يجرى بينه و بين المجير البغدادى مناظرات فيشنع هو على المجير بالفلسفة والمجير يشنع عليه بقطع يده — والسبب فى تخصيص اهل الفضل باذاعة نقائصهم وعدم اقالتهم اياها والتلبيس والافتراء عليهم مهما كانت محققةأو موهومة محتملة ان النفوس مجبولة على المساماة والمباهاة ولا تحب لغيرها تفوقا عليها فمهما وجدت سبيلا للتّنقيص من كمال الكمل ولو تلبيسا مقبولا سلكته تنقيصا للكمال وطلبا للمساواة بحسب الامكان بخلاف الناقص فى نفسه فانه لاحاجة الى تنقيصه — **وثالثها** ألم الانفراد مع ان الانسان مدني بالطبع لايمكنه ان يستقل بنفسه منفردا عن الغير بحيث لا يستعين باحد فى حاجاته وضروراته بل لاقوام لأحواله الا بالتعاون حتى ان الرغيف من الخبز لا يصير رغيفاً الا بآلات واعمال تفتقر الى صناع كثيرين كثرة بالغة. والمدنية فى اصطلاح الحكماء هى الاجتماع ولما أنّ الانسان مدنى بالطبع فى احواله الكمالية والمصلحية فلا يمكنه ان يستقل بنفسه منفردا عن الغير بحيث لايستعين بأحد فيامورِه الكمالية والمصلحية والوجدان والتجربة أصدق شاهد في ذلك والمناسبة والاخالة(27) تصحّح القياس والإلحاق والمفاليك يلزمهم الانفراد لزوما لاانفكاك لهم عنه. والسبب فى ذلك ان الناس بالاضافة الى المفلوك اربعة اقسام: مساو له فيالفلاكة . اكثر منه فلاكة. اعلى منه بقليل . اعلى منه مطلقاً — ووجه الحصر أن المأخوذ بالاضافة الى المفلوك اما مفلوك او غير مفلوك والاول اما مساو او انزل . والثانى اما أعلى بقليل او اعلى مطلقا اذا تقرر ذلك فالقسمان الاولان لافائدة فى الاجتماع بهما لان حكمة التمدن مفقودة فيهما وغاية الاجتماع بهما تضاعف الفلاكة وتكاثفها وتغليظ الحجاب الحاجب عن المقاصد كانضمام ظلمة الى اخرى وكغسل العذرة بالبول. والقسم الاخير يمنع من الاجتماع به امور اعظمها ان العظماء والنبلاء يحرصون على سد الذرائع في اطماع المفلوكين فى جانبهم بتبعيدهم والاعراض عنهم خشية من تثقيلهم

بحوائجهم وان يكونوا كلا عليهم وانهم يتأنفون المفاليك ويستقذرونهم و يستثقلون ظلهم و يتوقعون من تقريبهم مفاسد وضوحها يغنى عن بسطها و يتوهمون فى بعضهم حسدا وتملقا كاذبا (١) صاخياً من غير اخلاص ولا مناصحة . والقسم الثالث يمنع من الاجتماع بهم امور كثيرة اعظمها عدم تعلق الرجاء والخوف بالمفاليك الذى هو داعية الاجتماع غالبا وشغل هذا القسم بالمساوين لهم فى النباهة بحيث لا يفضون للاجتماع بالمفاليك غالبا وعدم حرص المفاليك على استمالتهم واستعطافهم لضعف الرجاء فيهم ولكن هذا القسم اقل مانعا من القسم الاخير ولذلك ربما نال بعض المفاليك حظاً من الاجتماع بهم — ومنها ولوعهم بالاسفار ومخاطرتهم بنفوسهم فيها مع مافيه من العذاب المذاب بشهادة قوله صلى الله عليه وسلم « السفر قطعة من العذاب » — ولقد صرح بتعليل السفر بالملاكة من قال

يقيم الرجالُ الاغنياءُ بأرضهم ٭ وترمى النّوى بالمقترين المراميا

والسبب فى ذلك يفتقر بيانه الى مقدمة وهي ان الظن اقوى من الشك والعلم أقوى من الظن ورتب الظنون متفاوتة فى نفسها جلاء وخفاء واجلى لقوة مستند الظن وضعفه وكذلك رتب العلوم متفاوتة فى المعلومية فكم بين المشاهدات و بين كل قضية صدق العقل بها بواسطة الحس كعلمنا بحرارة النار و برودة الثلج و بين الحدسيات وهي كل قضية يصدق العقل بها بواسطة الحدس كالعلم بحكمة الصانع عند رؤية العالم على غاية الاتقان من التفاوت وان كان كل من المشاهدات والحدسيات مفيدا للعلم ولذلك لم ينكر العلم المستفاد من الحس الا السوفسطائية وكم بين العقلاء من الاختلاف في الحدسيات اختلافا قويا وضعيفاً ولذلك ايضا فرقوا بين علم اليقين وعين اليقين ومن هنا ينكشف لك مادة الجواب عن قول ابراهيم صلى الله عليه وسلم (بَلَى ولكنْ ليطمَئنّ قلبي) ثم الانسان متشوف الى مصلحته فاذا تعارض عنده فى تحصيل مصلحته طريقان أحدهما مظنون والآخر مشكوك فيه أو أحدهما أجلى فى الظن من الآخر او أحدهما اقوى فى المعلومية من الآخر فالعمل بهما معا جمع للنقيضين وتركهما معا رفع للنقيضين

(١) فى القاموس صَخِيَ الثوب كرضي اتسخ ودرن اهـ ومنه يفهم المراد

وكلاهما محال والعمل بالمرجوح وترك الراجح خلاف صريح العقل فيتمين العمل بالراجح اذا تقرر ذلك فالسبب فى كثرة تنقلات المفلوكين فى الارض أنه متى استولت الفلاكة على شخص فى بلد واضطرب فى ارجائها وتلكم فى طرق معاشها وذاق طبائع اهلها وراز شهامتهم وعصبيتهم وارتياحهم الى الحامد وأريحيتهم وامتحن قوته فى التسلق الى مطالبه وابت تلك البلد عليه الا نبوا ودفعا وممانعة عن المطلوب ومل وجوها لاخير فيها ومج سمعه كلاما لامحصل له وقذفهم بقلبه فقذفوه بقلوبهم بل و بظواهرهم فحينئذ يظن او يعلم ان تأتي المصلحة في ذلك البلد مستحيل اومتعسر والبلد الثانى ظن الخير قائم به لاسيما فيمن يتوهم في نفسه استعدادا لافاضة الخير عليه فيحب حينئذ السفر الى البلد الثاني والاقيسة العقلية وان اقتضت استمرار الفلاكة فى البلد الثاني من جهة ان موجبات الفلاكة القائمة بالمفلوك مصاحبة له سفرا وحضرا وكذلك موجبات فلاكته القائمة بالناس موجودة فيهم في كل بلد لكن الادلة متعارضة فى البلد الثاني والعلم المستفاد بالتجربة فى البلد الاول مفقود فى البلد الثاني والاحتمالات مقتضية للاضطراب وليس الخبر كالعيان ولا الشر الحاصل المحسوس كالشر المترقب المعقول وان كانا معلومين ولذلك من قصده شخص بسيف مصلتا يريد قتله وهو على سطح عال يرمى بنفسه منه الى الارض وان كان ذلك احد الطريقين في هلاكه وربما صار السفر للمفلوك طبيعيا لكثرة ما يعاني من الشدائد والمشاق كمن وقع في ماء او نار فانه بطبعه يأخذ الى محيط النار وساحل الماء — واذا اتضح عندك ما قررناه وقفت على الحكمة فى تمنى المفلوكين تغير الدول وتشوفهم الى ذلك فان الدولة الحاضرة كالبلد الاول والدولة المتمناة كالبلد الثاني وقوة الرجاء وقيام احتمال الخير المتعلق بالدولة الثانية حكمه حكم البلد الثانى وقد اشار الى ذلك من قال

اذا لم يكنْ للمرء فى دولة إمرئ ٭ نصيبٌ من الدنيا تمنى زوالها

— ومنها تعلقهم بالاسباب المستحيلة كالنجوم والكيمياء والمطالب والحرف الهوائيه الضعيفة الصدفية كصناعة الشهود لغير المعروف والدلالة لغير المشهود والسبب فى ذلك انه اذا اخفقت مساعى المفاليك وعجزوا عن المعاش الطبيعى والتعلق بالاسباب المقيسة المطردة ودهشوا وتحيروا وعميت عليهم الانباء وتعلقت نفوسهم بالدنيا ولذاتها

تمنوا الأمانى وقنعوا بمخادعة الاملاق بالمواعيد الكاذبة واستنشقوا الغنى من حيث لاتهب ريحه واتوا السعادة من غير ابوابها وأنا ابين وجه استحالة الاسباب الا ول وهي الكيمياء والنجوم والمطالب واستحالة افضاء التعلق بالسبب الآخر الى المطلوب — فاما النجوم فنقول ليس البحث فى تأثير شعاع الكواكب فى التسخين عند المسامتة او التبريد عند الانحراف عن المسامتة ولا فى وجود الضياء فى المواضع التى تطلع فيها الشمس والقمر وعدمه فيما غابا عنه ولا فيما يجرى مجري التأثير الطبيعى على حسب ما نصه سبحانه وله الحمد مثل ان النبات ينمى ويقوى ويشتد ويتكامل وينضج ثمره بالشمس والقمر وكما فى امتداد القثاء وطوله وغلظه بالقمر وسرعة نضج التين وادراكه بمقابلة الشمس وبقائه فجا بطيء الادراك بخفائه عن الشمس ومثل ان البرد بسبب بعد الشمس عن سمت رؤسنا وقوة الحر بسبب قرب الشمس من سمت رؤسنا وكذلك ليس البحث فى ان الشمس اذا طلعت فان الحيوان ناطقه وبهيمته يخرج من اماكنه واكنته وتظهر القوة والحركة فيهم وتزداد قوة الحيوان مع ازدياد صعود الشمس فى الربع الشرقى وتنقص وتضعف قوة الحيوان وتفتر مع ميل الشمس عن وسط السماء . ولا فى ارتباط فصول العام الاربعة بحركات الشمس ولا فى انفتاح اللينوفر وورق الخطمى وتحركه بطلوع الشمس وضعفه اذا غابت عنه . ولافي المد الحاصل فى بحر فارس والهند اذا بلغ القمر مشرقا من مشارق البحر الى ان يصير القمر الى وسط سماء ذلك الموضع . ولافي الجزر الحاصل في البحرين المذكورين. ولافى تأثير الشمس والقمر حرارة ورطوبة وبرودة ويبوسة وتوابعها فى هذا العالم من الحيوان والنبات بواسطة الهواء وقبوله للسخونة والحرارة بانعكاس شعاع الشمس مثلا عليه عند مقابلتها لجرم الارض واختلاف حال الهواء بذلك واختلاف احوال الابخرة في تكاثفها وبردها ولطفها وحرها . ولا في أن السودان لما كان مسكنهم خط الاستواء الى محاذاة ممرّ رأس السرطان وكانت الشمس تمر على رؤسهم فى السنة اما مرة او مرتين تسودت ابدانهم وجعدت شعورهم وقلت رطوباتهم فساءت اخلاقهم وضعفت عقولهم . ولا في اهل الهند واليمن وبعض اهل المغرب لما كانت مساكنهم اقرب الى محاذاة ممر السرطان كان السواد فيهم اقل

وطبائعهم اعدل واخلاقهم احسن واجسامهم انصع. ولافى اهل العراق والشام وخراسان وفارس والصين لما كانت مساكنهم على ممر رأس السرطان الى محاذاة بنات نعش الكبرى والشمس لاتسامت رؤسهم ولاتبعد عنهم بعدا كثيرا وأن لذلك لم يعرض لهم حر شديد ولا برد شديد كانت الوانهم متوسطة واجسامهم معتدلة واخلاقهم فاضلة .ولا فى ان هؤلاء مختلفون بحسب اختلاف ذلك فمن كان من هؤلاء اميل الى ناحية الجنوب كان اتم فى الذكاء والفهم ومن كان منهم يميل الى ناحية المشرق فهم اقوى نفوسا واشد ذكورة ومن كان يميل الى ناحيـة الغرب غلب عليهم اللين والرزانة . ولا فى أن الترك والصقالبة لما كانت مساكنهم محاذية لبنات نعش والشمس بعيـدة عن مساكنهم كان البرد غالبا عليهم والرطوبة مستولية عليهم لانه ليس هناك من الحرارة ما ينشفها وكان لذلك الوانهم بيضاء وشعورهم سبطة شقراء وابدانهم رخصة وطبائعهم مائلة الى البرودة واذهانهم جامدة. ولافى ان الاخلاط التى فى بدن الانسان تزيد مادام القمر آخذاً فى الزيادة ويكون ظاهر البدن اكثر رطوبة وحسناً فاذا نقص ضوء القمر صارت هـذه الاخلاط فى غور البدن والعروق وازداد ظاهر البدن يبسا. ولافى ازدياد ألبان الحيوانات بتزايد القمر اول الشهر الى نصفه وتناقصها مع نقصانه. ولافى ادمغة الحيوان وامقال البيض التى تزيد اول الشهر وتنقص آخره . ولا فى ان الانسان اذا نام او قعد في ضوء القمر حدث فى بدنه الاسترخاء والكسل وهاج عليـه الزكام والصداع .ولا فى بلاء الكتان وفساد اللحم وتغير طعمه بانكشافه لضوء القمر. ولا فى كثرة الاسماك فى البحر وسمنها اول الشهر وقلتها وضعفها آخره . ولافى قبول الرياض والاشجار للنمو والنشو اذا غرست اول الشهر وعدم قبولها لذلك اذا غرست آخره — انما البحث فى ان النجوم تؤثر في جملة الحوادث السفلية من السعادة والشقاوة والذكاء والبلادة والحسن والقبح والخديعة والمكر والنذالة والشهامة والشجاعة والجبن والاشكال والمقادير ونحوها وان ذلك كله باتصالات الكواكب وانفصالاتها ومسامتتها ومباينتها فان هذا مما لا برهان عليـه لا بخبرِ مَنْ لايجوز الكذب عليه ولا بضرورة العقل ولا بنظره وغايته حدس وتخمين وظنون كاذبة وتزوق وتفرس وحيلة وخديعة حتى ان من لا يتقيد بالشريعة كابن سينا

والفارابى بالغاًفى الرد على الاحكاميين والنجوميين واطال في ذلك ابن سينا فى آخر الشفاء وحتى إن ابا معشر وهو من أئمتهم اعترف بانه تخمين فانه قال معتذراً كلُّ الأعراض الغائبة توهّم لا يكون شيئ منها يقينا وانما يكون توهّم أقوى من توهم. وانظر ما كان اقوى تعلّقَ بنى بَرْمك(28) بالنجوم حتى فى ساعات اكلهم وركوبهم وعامة افعالهم وكيف كانت نكبتهم الشنيعة. وانظر حال على بن مقلة الوزير(29) وتعظيمه لعلم احكام النجوم ودخوله داره على طالع سعيد فنكب فيها اشد نكبة وقطعت يده ولسانه — والدليل على بطلان ذلك انا نشاهد عالماً كثيراً يقتلون فى ساعة واحدة فى حرب وخلقا يغرقون فى ساعة واحدة مع القطع باختلاف طوالعهم واقتضائها عندهم احوالا مختلفة. ولو كان للطوالع تأثير فى هذا لامتنع عند اختلافها الاشتراك فى ذلك ولاينفعهم الجواب بان طالع الوقت قد يكون أقوى من طالع الاصل فيكون الحكم له لانا نقول هـذا بعينه يبطل الجزم بطالع المولود ويحيل القول بتأثيره فلعل طوالع الاحوال المتجددة أقوى من طالع الاصل فيرتفع الوثوق بطالع الاصل إذ لا أمان لاقتضاء الطوالع بعده ضد ما اقتضاه وحينئذ فلا يفيد اعتباره شيئاً — وايضاً فانه لو كان طبيعيا وذاتيا لما اختلف والتالى باطل فالمقدم مثله أما الملازمة فظاهرة وأما بطلان التالى فان المنجمين قلما يجمعون على شئ ويكون كذلك — فمن ذلك اتفاق حذاقهم سنة سبع وثلاثين عام صفين فى مخرج علي رضى الله عنه من الكوفة الى محاربة اهل الشام على انه يقتل ويقهر جيشه فظهر كذبهم وانتصر جيشه على اهل الشام ولم يقـدروا على التخلص منهم الا بالحيلة التى وضعوها من نشر المصاحف على الرماح والدعاء الى ما فيها — ومن ذلك اتفاقهم عند ماتم بناء بغداد سنة ست واربعين ومائة على ان طالعها يقتضى أنه لايموت فيها خليفة وشاع ذلك حتى هنأ الشعراء به المنصور حيث قال بعض شعرائه

يهنيك منها بلدة تقضى لنا ✿ ان الممات بها عليك حرام

لمـا قضت احكام طالع وقتها ✿ ان لا يرى فيها يموت امام

وأكد هذا الهذيانَ فى نفوس العوام موتُ المنصور بطريق مكة ثم المهدى بماسدان ثم الهادى بعيسا باد ثم الرشيد بطوس فلما قتل بها الامين بشارع باب الانبار انخرم

هذا الاصل حتى رجع القائل الاول فقال

كذب المنجم فى مقالته التى ٭ نطقت على بغداد بالهذيان
قتل الامين بها لعمرى يقتضى ٭ تكذيبهم فى سائر الحسبان

ثم مات ببغداد جماعة من الخلفاء مثل الواثق والمتوكل والمعتضد والمكتفى والناصر وغير هؤلاء — ومن ذلك اتفاقهم في سنة ثلاث وعشرين ومائتين فى قصة عمورية على ان المعتصم[30] ان خرج لفتحها كانت عليه الدائرة وان النصر لعدوه فخرج ففتح عمورية وما والاها من كل حصن وقلعة وفى ذلك الفتح قام ابو تمام الطائى منشدا

السيف أصدق إنباء من الكتب ٭ في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ٭ متونهن جلاء الشك والريب
والعلم فى شهب الارماح لامعة ٭ بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
اين الرواية أم اين النجوم وما ٭ صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثاً ملفقة ٭ ليست بنبع (١) اذا عدت ولا غرب

وهى نحو من سبعين بيتا أجيز على كل بيت منها بألف درهم — ومن ذلك اتفاقهم وفيهم زعيمهم ابو الحسن العاصمى على ان المكتفى[31] بالله ان خرج لقتال القرامطة لم يرجع وتزول دولته وان طالع مولده يقتضى ذلك واخافوا وزيره القاسم بن عبيد الله من الخروج معه فخرج اليهم المكتفى وأخذهم جميعًا ولما عاد وزيره القاسم أمر باحضار رئيس المنجمين وصفعه صفعاً عظيما — ومن ذلك اتفاقهم سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة عند ما اراد القائد جوهر بناء مدينة القاهرة المعزية وقد كان سبق مولاه الملقب بالمعز الى الدخول الى الديار المصرية لمّا امره ببنائها وأن يكون نجوم طالعها فى غاية الاستقامة ويكون بطالع الكواكب القاهر وهو زحل او المريخ ولذلك سميت القاهرة فجمع القائد جوهر المنجمين فحققوا الرصد وأمر البنائين ان لا يضعوا الاساس حتى يقال لهم ضعوه وان يكونوا على نهاية من التيقظ والاسراع فوضعت على ذلك الاتقان واتفقوا على ان الدولة الفاطمية لا تخرج الدولة عنهم فلما استولى عليها صلاح الدين يوسف بن ايوب

(١) النبع شجر تعمل منه القسي والسهام والغرب بالتحريك شجر أيضاً اه من القاموس

وكان المصريون قائمين بدعوة العاضد عبد الله بن يوسف توهم الجهال ان ماقاله المنجمون حق فلما رد صلاح الدين الدعوة الى بنى العباس ظهر كذبهم وكانت المدة بين وضع الاساس وانقراض الدولة نحوا من مائة وثلاثة وتسعين عاما واعتذار من اعتذر عنهم بسبق البنائين الارصاد بعيد لان تبديل البناء وتغييره مع الاحتياط للدولة مع سهولة التغيير مما لا يتسامح به — ومن ذلك اتفاقهم سنة خمس وتسعين وثلثمائة فى ايام الحاكم على [32] انها السنة التى تنقضى فيها بمصر دولة العبيديين وذلك عند خروج الوليد بن هشام المعروف بابى ركوة الاموى وحكم الطالع له بانه هو القاطع لدولة العبيديين وانه لابد أن يستولى على الديار المصرية و يأخذ الحاكم اسيرا ولم يبق بمصر منجم الا حكم بذلك وا كبرهم المعروف بالفكرى منجم الحاكم فكان ابو ركوة قد ملك برقة واعمالها وكان من تدبير الحاكم ان دعا خواصهم وأمرهم ان يكاتبوا ابا ركوة و يطمعوه باختياره على الحاكم ففعلوا فزحف ابوركوة بعساكره حتى نزل بوسيم على ثلاثة فراسخ من مصر فخرجت اليه العساكر الحاكمية فهزمته فتحقق انها خديعة فهرب وقتل خلق كثير من عسكره وطلب فاخذ اسيرا ودخل به الى القاهرة على جمل مشهورا ثم امر الحاكم بقتله سنة ٣٩٧ وامر الحاكم بالفكرى فقتل — والسبب فى استمالة الفكرى للحاكم ان الفكرى أصاب معه فى قضيتين احداهما ان الحاكم عزم على ارسال اسطوال الى مدينة صور لمحاربتهم فسأله الفكرى ان يكون تدبيره اليه ليخرجه فى طالع يختاره وتكون العهدة ان لم يظفر عليه واتفق ظهور الاسطوال . الثانية انه ذكر له ان بساحل بركة موريس مسجدا وان تحته كنزا وسأله ان يتولى هو هدمه فان ظهر الكنز والا بناه هو من ماله فاتفق اصابة الكنز — ولما حكم عليه الفكرى بتغيير دولته وقضى المنجمون بمثل قضائه وقع فى نفس الحاكم ان يغير دولته تغييرا معنويا فعمد الى كل متول فى دولته ولاية فعزله منها وقتل وزيره الحسن ابن عماد وصار يأمر فى يومه بخلاف مايأمر به فى أمسه فأمر بسب الصحابة رضى الله عنهم على رؤس المنابر والمساجد ثم امر بقطع سبّهم وعقوبة من سبّهم وامر بقطع شجرة الزرجون (١) من الارض واوجب القتل على من شرب الخمر ثم امر بغرس هذه الشجرة

---

(١) فى القاموس الزرجون محركة الخمر والكرم او قضبانها وصبغ احمر اه

واباح شرب الخمر واهمل الناس حتى نهب الجانب الغربى من القاهرة وقتلت فيه جماعة ثم ضبط الامر حتى امر ان لاتغلق الحوانيت ليلا ولانهاراً وامر مناديا ينادى من عدم له ما يساوى درهما اخذه من بيت المال درهمين بعد ان يحلف على عدمه او يعضده بشهادة رجلين حتى تحيل الناس فى ستر حوانيتهم بالجريد لئلا تدخل الكلاب ثم لما قتل الفكرى لم يزل أثرُ التنجيم فى نفسه لتشوُّف النفس الى التطلع الى الحوادث قبل وقوعها فجمع المنجمين جمعا ثانيا بعد ان جمعهم اولا وعملوا له الرصد الحاكمى الذى خالف فيه الرصد المأمونى فالزموه فيما الزموه بركوب الحمار وان يتعاهد الجبل المقطم فى اكثر الايام وينفرد وحده يخاطب زحل وحكموا بانه ما دام كذلك كان سالم النفس فلزم ما اشاروا عليه به فخرج بحماره الى ذلك الجبل على عادته وانفرد بنفسه لكوكبه وقد استعد له قوم بسكاكين فقطعوه هناك واعدموا جثته فلم يعلم له خبر فمن هنا تقول اتباعه الملاحدة انه غائب منتظر — ومن ذلك اتفاقهم سنة ٤٨٢ على خروج ريح سوداء تكون فى سائر الاقطار تهلك الناس إلا من اتخذ لنفسه مغارة فى الجبال بسبب ان الكواكب كانت اجتمعت فى برج الميزان وهو برج هوائىّ كما اجتمعت فى برج الحوت زمن نوح عليه الصلاة والسلام وهو برج مائىّ فحصل الطوفان فاتخذ الرعاع المغاير[(33)] استدفاعًا لما أنذروهم به فلما جاء الوقت الموعود قلّ هبوبُ الرياح حتى أهم الناسَ ذلك لما هم عليه من الكرب وظهر كذبهم — ومن ذلك اتفاقهم فى الدولة الصلاحية على ان الاسكندرية لايموت فيها وال فلما مات بها الملك المعظم شمس الدولة توران شاه ابن ايوب سنة ٤٧٤ ثم واليها فخر الدين قراجا بن عبد الله سنة ٤٨٩ ثم واليها سعد الدين ابن سودكين بن عبد الله سنة ٦٠٤ انخرمت هذه القاعدة — ومما اتفق عليه المنجمون ان الانسان اذا اراد ان الله تعالى يستجيب دعاءه جعل الرأس فى وسط السماء مع المشترى او بنظر منه مقبول والقمر متصل به او منصرف عنه متصل بصاحب الطالع اوصاحب الطالع متصل بالمشترى ناظر الى الرأس نظر مودة فهناك لا يشكون ان الاجابة حاصلة قالوا وكانت ملوك اليونان يلزمون ذلك فيحمدون عقباه. والعاقل يعلم ان الله تعالى لايتأثر بحركات النجوم ولاتوجب النجومُ عليه شيئا.

وأما الكيمياء فلا بحث فى امكانها على يد ولىّ من قبيل الكرامات وخرق العادات، ولا فى الوصول إلى تصحيح صبغها ظاهرا على وجه التلبيس والغش كما يفعله الفساق انما البحث فى تصيير النحاس ذهبا حقيقة على طريقة صناعة مطردة فهذا مما لا اعتقد صحته. وقد صنف الشيخ تقيّ الدين بن تيمية[34] رسالة فى انكارها وكذلك ابن قيم الجوزية[35] كما حكاه هو عن نفسه فى كتابه المسمى (مفتاح دار السعادة) واضطرب كلام الفارابي[36] فى امكانها فاثبتها مرة ونفاها اخرى. والشيخ ابو على بن سينا[37] سلّم إمكان ان يصبغ النحاس بصبغ الفضة والفضة بصبغ الذهب وان يزال عن الرصاص اكثر ما فيه من النقص قال وأما أن يكون الفصل المنوع يسلب او يكسى فلم يظهر لى امكانه اذ هذه الامور المحسوسة يتشبه ان لا تكون الفصول التى بها تصيّر هذه الاجسام انواعًا بل هى اعراض ولوازمها وفصولها مجهولة واذا كان الشئ مجهولا كيف يمكن قصد ايجاده او افنائه وللفلاسفة فى امتناعها مطلقا حجج كثيرة فمن اقواها ان الطبيعة انما تعمل هذه الاجسام من عناصر مجهولة عندنا ولتلك المناصر مقادير معينة مجهولة عندنا ولكيفيات تلك العناصر مراتب معلومة أى فى نفسها وهى مجهولة عندنا ولتمام الفعل والانفعال زمان معين هو مجهول عندنا ومع الجهل لكل ذلك كيف يمكننا عمل هذه الاجسام — ومنها لو كان الذهب الصناعى مثلا للذهب الطبيعى لكان ما بالصناعة مثلا لما بالطبيعة لكن التالى باطل: أمّا أولا فلأنّا لم نجد شبهاً، واما ثانيا فلانه لو جاز ان يوجد بالصناعة لماحصل بالطبيعة. ولمّا ثبت امتناع التالى ثبت امتناع المقدم — ومنها أن لهذه الاجساد اماكن طبيعية وهى معادنها هى لها بمنزلة الأرحام للحيوان فمن جوّز تولدها من غير تلك المعادن كان كمَنْ جوّز تولد الحيوان من غير الأرحام — ومنها ان هذه الاجساد متباينة بفصولها النوعيه وتلك الفصول مجهولة لنا فلا يمكننا إيجادها ولا إعدامها و بتقدير ان تكون الفصول معلومة لنا لايمكننا ازالتها وتحصيلها لانه لوجاز ان يُجعل نوعٌ نوعاً لجاز أن يجعل الفرسُ حماراً و بالعكس — ومنها ان الجوهر الصابغ اما ان يكون اصبر على النار من المصبوغ او يكون المصبوغ أصبر أو متساويين فان كان الصابغ اصبر وجب ان يفنى المصبوغ قبل الصابغ وان كان المصبوغ اصبر وجب ان يفنى الصابغ و يبقى المصبوغ

على حاله الاول عَرِيًّا عن الصبغ وان استويا فكلّما استويا فى المصابرة على النار كانا من نوع واحد فليس أحدهما بالصابغية وآخر بالمصبوغية أولى من العكس — ومنهاأن تكوين الذهب الطبيعى انما يحصل فى سنين كثيرة بانضاج وطبخ من حرارة الارض على وجه مخصوص بمواد مخصوصة ومراعاة الانسان النار فى عمل الذهب على هــذا النظام مما لا يفى به علم البشر ثم إذا كان تكوينه بالقدرة القديمة على الوجه الطبيعى انما يحصل فى سنين فكيف يتكون بالقدرة الحادثة فى مدة يسيرة قال الطبيعيون ان الزئبق اذا كمل نضجه فى الارض جذبه إليه كبريت المعدن فأجَنَّه وأخفاه فى جوفه لئلا يسيل سيلان الرطوبات فاذا اختلطا واتحدا وذابت الحرارةُ انعقداعند ذلك ضروبا من المعادن التى يسمونها الفلزات،وهى السبعة الآحاد الذائبة الصابرة على النار المنطرقة فان كان الزئبق صافيا والكبريت نقياً واختلطت أجزاؤهما على النسبة وكانت حرارة المعدن معتدلة لم يعرض لها عارض من البرد واليبس ولا من الملوحات والمرورات والحموضات انعقد من ذلك على طول الزمان الذهب الابريز وهذا لا يتكون الامن الاحجار الرخوة والبرارى الرملة وبذلك يتضح عندك انقوة الانسان قاصرة عن ايجاد مثل ذلك مادة وكيفية . ويزيد ذلك وضوحا انالمذكور في كتب الكيمياء انما هو رموز فلوكان لها حقيقة لصرحوا بها فقد صرح العلماء بما هو انفس من ذلك واجل قدراً مما كان له حقيقة ولا أقول كحلِّ المشكلات والجمع بين الاحاديث الصحيحة والنكات القرآنية الشريفة لئلا يكون تخليطا فى البحث فان البحث إنما هو فى الامور الدنيوية بل ككتب ابن وحشيّة وغيره فى الطّلّسْمات الصحيحة والفلاحة النافعة وأنواع من السحر فى بابها كفلق الصبح وفى نفاستها كالكيمياء او فوقها فلا يصح التعليل بانهم انما كتموها تمويها وزَرْفا(١) وعجزا عن تصوير مالا حقيقة له او توهماً كاذبا وتخميناً طمعياً والله أعلم

واما المطالب فلا بحث فى امكان ان يجد الشخص دفيناً جاهلياً او اسلامياً على الاتفاق والصدف إنما البحث فى أنّ تحت الارض مساكنَ وعماراتٍ مبنية

---

(١) في القاموس زرف في الكلام زاد فيه والزُّرافة مثل كُناسة الكذاب اهـ ومنه يعلم مراد المؤلف

وفيها كنوز وأموال عظيمة وعليها موانع وطلّسمات ولتلك الموانع طرق تزول بها وعلى تلك المطالب علامات وامارات يتوصل بها إلى امكنتها ويستدل عليها بها فهذا من مخارق المحتالين واماني المفلوكين ولا دليل لهم فيما يروجون كذبهم به من ان فى القرون السالفة من كان يعتقد العَوْدَ إلى الدنيا فيدخر ماله لذلك لما سنبينه — والدليل على ان المطالب لاحقيقة لها وانما هى من المطامع الفارغة والمخارق والخديعة أنّ ادّخار الاموال العظيمة على هذا الوجه المخصوص اما ان يكون لغرض اولا لغرض والغرض امادنيوى او اخروى والاقسام الثلاثة باطلة وما ادى الى الباطل فهو باطل فالقول بوجود المطالب باطل — بيانه انه لا جائز ان يكون ادخار المال فى الارض لا لغرض بأن يوضع تحت الارض عبثًا لتأكله الارض ويذهب سدى فانّ ذلك خلاف صريح العقل لما ان الذهب والفضة هما قيم الاشياء وجوهر الثَّمنيَّة وأسباب المطالب ولا جائز أن يكون لغرض أخروى لأن شريعة الاسلام ليس فيها ما يدل على مطلوبية الادخار والكنز ونيل الدرجات فى الآخرة بسببه بل هى ناهية عنه وآمرة بصرفه في وجوه القُربات والخيرات.وأصحاب الملل غيرها منهم من ينكر المعاد الجسمانى على القطع ومنهم من تردد فيه وهؤلاء لايجوز ان يدخروا المال لأمر اخروىّ لما أنّ أخرويا من غير اعتقاد الآخرة محال.وذلك كعبدة النجوم والصابئة والنصارى على ماقاله الاصفهانى فى شرح الطوالع فى الكلام على المعاد الجسمانى وان كان فيه نظر وأمامن يقول بالادوار والتناسخ كعبدة الاوثان فالكلام فى عدم ادخارهم كالكلام على القسم الثالث — واما القسم الثالث وهو ان يكون الادخار لامر دنيوى يعود على المدخر لاعتقاد عوده الى الدنيا فهو ايضًا باطل لانه لو كان كذلك لبالغوا فى اخفائه وسد طريق العلم به لكنا قد فرضنا له علامات وأمارات يعرف بها.هذا خُلْفٌ

وأما عدم إفضاء حرفة الشهادة الى المقصود فذلك لأن الحِرف والصنائع على قسمين قسم يلزم من العلم به واجادته الحصول على ثمرته وقسم لا يلزم بل لا بد من ضميمة أخرى ومنه حرفة الشهادة وسائر الحرف الهوائية الغير المعيشية،وينبغى أن يُسَمَّى معاشاً غير طبيعي وهذه لاوثوق بإفضائها الى المقصود — وبيانه فيمانحن بصدده

وهو الشهادة ان حقيقة حرفة الشهادة: ملكة يقتدر بها على التعبير عن مقاصد المشهود له وعليه بلفظ صحيح متعارف مستوف لمقاصدها بشروط شرعيـة وعلى افراغ مقاصدها فى قالب شرعى ان كانت غير شرعية وغايته تحويل عبارة المشهود له وعليه العامية الى عبارة ترتضيها العلماء وتحويل تصويرها الفاسد الى صورة شرعية ثم لا يلزم من تحصيل هذه الملكة واجادتها الحصول على ثمرتها والرواج فيها بخلاف القسم الاول من الحدادة ونحوها فان من علمها واجادها حصل على ثمرتها. وحكم سائر الحرف الهوائية كالدلالة والنقابة فى عدم افضائها بالعارف بها الى مقصودها حكم الشهادة ولك أن تجعل ذلك حدا رسميا للحرف الهوائية فيقال فى حدها حرفة لا يلزم من العلم بها واجادتها الحصول على ثمرتها — والحاصل ان لحرفة الشهادة موانع من حصول ثمرتها والمقصود منها ولها مفاسد ونقائص عاجلة ومضار اخروية آجلة — فاما الموانع فامور — منها ان حرفة الشهادة من قبيل الاحتراف بالعلم والعلم كما سيجىء تحقيقه فى الفصل الخامس أقبل شئ للخفاء والجحد والجهل بقدره من صاحبه وأقبل شئ للاضافة الى غير اهله بالحظ والجاه والتلبيس وسكوت مُغورٍ عن مُغورٍ واذا كان كذلك فقد يدور الرواج فى الشهادة مع الهيئـة والزى الظاهر واللباس الفاخر ويخفى مكان الاتصاف بحرفة الشهادة على التفسير السابق فيفوت الرواج بفوات الهيئة واللباس وهناك ينشد

أرى ثياباً ولكنْ حَشْوُها بقَرٌ ٭ بلا قرون وذا عَيْبٌ على البقر

— ومنها ان مبنى حرفة الشهادة على العوام وهم مربوطون بأوهامهم وواقفون مع مألوف عاداتهم ولاتمييز لهم بتفهم كتابة وكتابة والتقليد وظيفتهم وذاتى لهم فلايستعملون فى وثائقهم ومكاتيبهم مجهولا لهم لتوهمهم فيه إفساد مكاتيبهم ويلزم من عدم استعمال المجهول استمرارُه على خموله ومجهوليته أبَد الآبدين ودَهْرَ الداهرين — ومنها ان مبنى الرواج على الشهرة والشهرة إما بقدمية او بتشهير مقبول القول فاما القدمية فليس المراد بها طول الاقامة فى مكان بل كثرة الكتابة التى للشاهد فى أيدى الناس المحركة لِدواعيهم فى استعماله التى يستلزم بعضها بعضا والدخيل خال عن ذلك. وقدّمنا ان الشخص المجهول لايستعمل. والمكث المجرد عن الكتابة لا يفيد شيئاً حتى لو أقام الدخيلُ أبد الآبدين

فى مكان لايستكتب فيه لم يكن بينه فى الجهالة والخفاء والاهمال والجحد فرق البتة ـ
وأما تشهير مقبول القول فأعزّ من بيض الانوق ومن تصحيح (١) الاكسير وما احق
هذا بقول القاضى الجرجانى

إذا لم يكن فى الارض حُرٌّ يعيننى ٭ ولم يك لى كسبٌ فِمِنْ أين أُرْزَقُ

— ومنها ان الحرفة هوائية صرفة ،وصرفها عن الدخيل والاجنبى الذى لازبون
له بالمواطأة والحيلة والاعتذار والشعوذة والدك[38] من أدخل الاشياء تحت الامكان لاسيما
واهلها بطرق اللؤم اهدى من القطا مع مالهم من القسوة والقحة وغلاظ الاكباد احسن
الله خلاصنا من أيديهم — وأما المفاسد والنقائص العاجلة فلأن الشهادة فى هذا الزمان
تستلزم النذالة والسفالة والدناءةوسقوط الهمة وموت النفس والشح والقحة وتؤدى الى
التباغض والتماقت والتقاطع والتدابر والتحاسد يتقاسمون الفَلْسَ والفَلْسيْن و يتغاضبون
على الحبة والحبتين و يتراضون بالدرهم والدرهمين و يسرقون و يختلسون قال عمر بن
الوردى من ارجوزة طويلة في ذلك

يُغيِّب الاشغالَ من أبيــه ٭ و يسرق الأجرةَ من أخيــه

ويحلفون بالطلاق والعتاق على ما كذبهم فيه أظهر من الشمس فضلا عما يحتمل الكذب
و يعدّون ذلك استرضاء وعقلاً و يتهافتون بسرعة القيام للاشغال و يعـدونه حذقاً
وكيْساً[39] و يوسعون الدخيل حرمانا وشعبذة و يعدونه دهاءً وكيساً وقد قلت فى تهافتهم
ومبادرتهم القيام

بُليتُ به جهولا جاهليـــا ٭ ثقيـــلَ الروح مذموماً بغيضاً
ولم يكُ أكثر الاخوان علماً ٭ ولكن كان أسرعهم نهوضاً

وأما المضار الاخروية فمن وجوه — اولها حضور الأنكحة مع عدم الاستظهار فى
شروطها من انقضاء العدة والاولياء والكفاءة وغيرها وعلى الجملة فالاقدام على عقد من
غير معرفة حكمه حرام ثم بتقدير وجود الشرائط فمهم من أنفسهم المفسد الاعظم وهو
فوات العدالة لما ان كل واحد يعرف من نفسه مالا يعرف من غيره والعدالة عنــد

---

(١) الاكسير الكيمياء وقد أقام المؤلف البرهان على عدم صحتها فتنبه

الشافعية عبارة عن عدم مباشرة الكبائر والاصرار على الصغائر مع المروءة واين من يجمع هذه الثلاثة مع خطر النكاح وكثرة مايترتب عليه من الاحكام من التوالد والتوارث وانتشار النسب الى عدد كثير وما يترتب على ذلك المنتشر من الاحكام ووجوب مالا يجب الا بالنكاح وحل مالا يحل الا به الى غير ذلك مما لايحصى كثرة — وثانيها ان شركة الابدان القائل فيها قائلان قائل بعدم جوازها البتة كالشافعي وقائل بجوازها كالحنبلي والحنفي وليس لنا قائل بوجوبها وان اثنين ينعقد بينهما شركة الأبدان بغير اختيارهما ومبنى شركة الشهود غالباً على الاكراه فقلما يقع بين الشهود شركة ابدان صحيحة بالتراضي بل كل منهم لا يريد الآخر ولا الكتابة معه ويمنعه من ذلك موانع هي اكراهٌ أوفي معنى الاكراه ويكتب احدهما مائة سطر والآخر يكتب اسمه ويتقاسمان على السواء ولا شركة بينهما قائمة فيصير الكسب كله حراما مع ان أكل الحرام مما يُظلم القلوب ويمنعها من دخول الحكمة فيها — وثالثها انه يجب على كل أحد علمُ ظاهر صناعته كما ذكره الشافعية فى كتب الفقه أول كتاب الجهاد فيجب على الصيرفي مثلاً معرفة ان بيع درهم بدرهمين مثلاً حرام . وغير ظاهر صنعته كباقي مسائل الربا التى لايكثر دورها لايجب عليه تعلمه واذا وقع له شئ منه سأل عنه العلماء وقياسه ان كل شاهد يجب عليه ان يعلم شروط الرهن والبيع والكفالة والأقارير لان هذه الاشياء كثيرة الدور و باقى مسائل هذه الابواب يسأل عنها المفتى اذا وقع له فحينئذ من ترك من الشهود معرفة هذه الاشياء كان عاصيا و يتكرر عصيانه كل يوم ويترتب على ذلك مالا يخفى — وايضاً كثيراً مايكتب الشهود فى الشهادة على من لا يعرفونه (وقد عرفه شهوده) وهو كذب لان المعرفة لاتحصل بالنظرة ولا بالمرة و يتكرر هذا الكذب بتكرر الشهادة على المجاهيل و يترتب على ذلك مالايخفى — ورابعها تضييع الحقوق بالجهل فرب من يكتب شيئاً ويزيد فيه كلمة أو ينقص كلمة أو يصور صورة يترتب عليها مفاسد شرعية وهو يجهله لايعلمها ولا يصح الاعتذار عن ذلك بأن الكلمة الزائدة أو الناقصة هكذا تحملها لان ذلك بتسببه وتوريطه المشهود له وعليه فى ذلك بتقليدهما اياه ظنا منهما انه أهل للتقليد — وخامسها التدليس باسترعاء المشهود عليه بكلمات الفقهاء التى تقصر عن ادراك غوائلها

ودسائسها أفهام العوام من غير ان يعرف العوام ما وراء ذلك من الغور مع القطع بانه لو شرح له مافى ذلك من الفساد لما أقدم عليه. ولا يصح أيضاً الاعتذار عن ذلك بانه هكذا تحمل وهكذا استرعاه لان هذا مما لا ينفع عند العليم الخبير — وسادسها انهم يكتبون فى كتب الاوقاف كلاماً طويلاً تلقوه عمن تقدمهم من غير ان يعرفوا معناه فضلاً عن الواقف المشهود عليه بدليل ان العلماء فضلاً عن المورّقين تدور رؤسهم في ثانى الحال فى فهم المراد منه والواقف لم يتلفظ به ولا بمعظمه ولو قرئ عليه لم يفد لاستحالة ارادة معنى شئ بدون فهمه — على أنّ الانشاآت لا بد فيها مع اللفظ من فهم المعنى بدليل أنّ الأعجمى لو لقن الطلاق بلا فهم فأوقعه واراد معناه عند العارف بمعناه لم يقع وعلى الجملة فشهادتهم على الواقف بمانسب اليه فيه وهو لم يفهمه مشكلة جداً بل وينشأ من عباراتهم الفاسدة الناشئة عن الجهل حرمان من لعل الواقف لم يُرِدْ حرمانه لو روجع فيه ودخول من لم يُرِد دخولَه — وعلى الجملة فى هذا الموضع نظر ظاهر فليتأمل وسابعها تصريح العلماء من الشافعية والحنفية بانه لا يشهد على خطه مالم يتذكر الواقعة. فأما القضايا التى يكون للشاهد فيها مدخل أو يكون هو المورّق وله فى عباراته وكتابته مايذكره بالقضية فلا كلام فيها ولكن ثم من القضايا مايستحيل التذكر فيه عادة كالشهادة على الحكام فيظهور السجلات مع طول المدة ومافي معنى ذلك فليَسْتَفْتِ الشاهد قلبه في ذلك فانه من مَزالّ الأقدام — وثامنها الاكتفاء فى الشهادة على الحكام فى السجلات الطويلة والمحاضر وصور المجالس الطوال بقول الحاكم له نعم جواباً لقول الشاهد لهاشهد عليكم بما فيه من غير أن يقرأه عليه بل ولايعرف الشاهد ما فيه لااجمالاً ولا تفصيلا وقد قال فقهاء الشافعية في كتاب القاضى للقاضى انه لو لم يقرأ على الشاهدين وقال الحاكم لهما أشهدكما عليّ انه كتابي أو أنّ ما فيه خطّي لم يُكْتَفَ بذلك — وتاسعها رفع الشهود نسب من لا يعرفون نسبه مع ان ذلك شهادة بنسبه ضمنا كما قاله السبكى[40] فى جمع الجوامع فى الكلام على ان مورد الصدق والكذب انما هو النسبة التى تضمنها الخبر لاواحدٌ من طرفيها ولو سلّم ان ذلك ليس شهادة بالنسب لا أصلاً ولا ضمناً فقد قال الامام كما نقله عنه فى الروضة والرافعى انه لو لم يعرف المشهود عليه إلا باسمه لم

يتعرض فى الشهادة لاسم ابيه — هـذا ما رأيت ان اذكره مما قوى عنـدى مما حضرنى فى هـذا المقام من موانع حصول المقصود من حرفة الشهادة ومفاسدها ووراء ذلك غور لا يمكن التصريح به ورأيت ان الامساك عنـه اولى وما أحق ذلك بقول القائـل

فى النفس أشياءُ لا أستطيع أذكرها ٭ لو قلتُها قامت الدنيا على سَاقِ

والله المسئول فى الخلاص منها واليه اضرع وعليه اتوكل

الفصل الخامس

(فى ان الفلاكة والاهمال ألصقُ بأهل العلم وألزم لهم من غيرهم و بيان السبب فى ذلك)

وانما كانت الفلاكة ألصق بهم غالبا من غيرهم لأمور — منها أن الامارة عنهم بمعزل والتجارة مبنية على السفسفة والمماحلة (١) والآمال التى لا يقوم دليل على وقوعها والفلاحة والصناعة يلزمهما المهانة والتلوث برذائل الحيل الدنيوية واهل العلم لهم أنفة واستنكاف عن ذلك فيقعدون عن الاكتساب متعللين بالامانى الكاذبة فيقعون فى الفاقة والاملاق — ومنها انهم يحسنون ظنونهم فى الناس على مقتضى مايتوهمونه فى انفسهم من استحقاقها لذلك و يبنون على ذلك رفيعاً و يحاولون منيعاً والناس لا سيما أهل عصرنا لا يقيمون لعلومهم ومعارفهم وزناً فيبنون ظنونهم على شفا جرف هار وتأتى الحوادث بُنيانَهم من القواعد فتجتثه و يعودون بآمال خاسرة وظنون كاذبة — ومنها انهم لاعتيادهم القواعد الكلية والخوض فى الانظار الدقيقة يطردون معظم الاشياء كلياً حرماناً وحصولا و يقيسون الأشياء على اشباهها على طريق قياسهم الفقهى و يلحقون بعض الوقائع ببعض على سبيل الحاق النظير بالنظير والقياس التمثيلى. والقضايا وان تناسبت أو تساوت من وجه فقد تختلف من وجه آخر او من وجوه أخر تخفى على غير المهرة فى احكام الدنيا ودقائقها او لخصوص فى المادة او لوجود مانع او فوات شرط او لكون تلك القاعدة المأخوذ منها حكم ذلك الفرع ليست كلية فى نفسها بل اكثرية وذلك الفرع من غير قسيم

---

(١) ماحله مماحلة ومحالا قاوَاه حتى يتبين أيهما أشد اه قاموس والغرض ان التجارة مبنية على المماكسة .

الا كثر،وهم عن ذلك كله غافلون والقواعد العلمية التى يعرفونها تقضى عليهم بتصحيح الأقيسة والوثوق بها فيطردون معظم الاشياء كلياً حرماناً وحصولا تأليفاً وتنفيراً تقريباً وتبعيداً، إهمالا ومراعاة فيخبطون لذلك خبطا عظيما ويخطئون السياسة أصلا ورأسا والكيّس من العامة والهمج لايعرف الكليات ولا الاقيسة والعمل بها ولا الحاق الاشياء بنظائرها ولاقياس العكس والخلف والملازمات فينظر فى الجزئي الذى هو بصدده نظرا خاصاً غير مشوّش بما يفسده ويتفقه فيه مانعاً وعائقا ويجسّره على ذلك صحة الجزم وعدم التردد وما ينشأ من كثرة الاحتمالات من الفتور والتوانى وضعف العزيمة فتنجح مساعيهم ويصيبون فى ظنونهم غالباً — ومنها انهم لبعد غورهم وغوصهم يفرضون محتملات بعيدة ويجزمون بوقوعها وثوقاً منهم بظنونهم وافتتاناً بأنفسهم وما من شئ الا ويطرقه الاحتمال المثبّط عن إمضائه واستقامته فيتخلفون لذلك عن مظان الخير والتعرض لتنفيسات الدهر وغشيان أهل الجاه فيقعون فى الفلاكة والاهمال — ومنها وهو مختص باصحاب علوم الاوائل من الحكمة والفلسفة والطبيعة والمنطق والجدل والطب وكلام الأقدمين والتصوف الممزوج بالفلسفة والمتبحرين فى التشكيكات والشبه وعلى الجملة فمن تضلع من هذه العلوم وحدها ولم يكن له خدمة لما فى الكتاب والسنة من الاحكام والمعارف ولا تضلع من الفقه ولانظر نظرا تاماًفى كلام العلماء الكبار المتشرعين فانه يخرج بهاء الشريعة وجلالها ومهابتها وتعظيم مافيها من قلبه فيسترسل فى اللذات محرمة كانت او جائزة رذيلة خسيسة كانت او غير منفرة ويستثقل الاتيان بالمأمورات فيتركها طلباً للراحة والدعة وأرزاق العلماء مبنية على التماس بركتهم والاستنجاح بأدعيتهم وترفيعهم عن رذيلة الاحتراف والاكتساب الجائزين فمتى لم يرفعوا انفسهم عن الرذائل المحرمة ولم يكن لدعائهم عمل صالح يرفعه ولا على شمائلهم شواهد البركة انكف الناس عن اسعافهم بمرادهم وأخذوا في طعنهم وتنقيصهم وربما رموهم بالزندقة والالحاد فتستحكم الفلاكة فيهم، والفلاكة كالبرص فى الجسد تنتشر فيه وتسرى وتتزايد مالم تجد دواء حاسماً مانعاً له من السريان —ومنها وهو مختص بأصحاب علوم الاوائل ايضاً انهم يرون ان لا كمال الا التحلى بالمعارف والاطلاع على النكات والحقائق والوقوف على الاسرار والدقائق

وان الكمالات الخارجانية من المال والجاه خيالات باطلة لا كمال فيها ويمكن أخذ ذلك والاستدلال عليه بقول عز الدين الحسن بن محمد الاربلى الضرير الفيلسوف

كمل حقيقتك التى لم تكمل   والجسم دَعْهُ فى الحضيض الاسفل
أتكمّل الفانى وتترك باقياً   همَلا وأنت بأمره لم تحفل
الجسمُ للنفس النفيسة آلةٌ   مالم تحصّله بها لم يحصل
يفنى وتبقى بعدَه فى غِبْطة   محمودةٍ او شقوةٍ لا تنجلى
أعطيتَ جسمك خادماً فخدمتَه   ونسيت عهدك فى الزمان الاول
ملَّكتَ رقك مَعْ كمالك ناقصاً   أتملك المفضولَ رِقَّ الأفضل

و بقول أبي الفتح البستى، والغزالي رحمه الله كثير اللَّهَج به في كتبه

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته   وتطلب الربحَ مما فيه خُسران
عليك بالنفس فاستكمِلْ سعادتها   فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

و بقول الفارابي محمد بن محمد بن طَرْخان الفارابي المتوفي سنة ٣٣٦

أخى خَلِّ حيز ذي باطل   وكن للحقائق في حيز
فما الدار دار مقام لنا   وما المرء فى الارض بالمعجز
ينافس هذا لهذا على   أقلَّ من الكلم الموجز
وهل نحن الا خطوط وقعن   على نقطة وَقْعَ مستوفز
محيط السموات أولى بنا   فماذا التنافسُ فى المركز

واذا كان الكمال الخارجاني متلاشياً فى انظارهم على ما تقرر فهم لا محالة لا يعطون له بالاً، وهو لعسره لا يتم مع الفكرة في تثميره فكيف مع اهماله وعدم الاعتناء به والقائه وراء الظهر — ومنها ان العلوم خرجت عن كونها حرفاً وصناعة من الصناعات بعد مصيرها صناعة من قبل على ما سيجيء تحقيقه والاستدلال عليه فى الفصل السادس بعد هذا الفصل واذا كان كذلك فكيف العمل على شريعة منسوخة والوصول بسلوك سبيل قد سد والاستضاءة بمصباح قد طَفِئَ — ومنها ان رواج العلماء انما هو لعلمهم كما أن رواج ار باب الحرف إنما هو لحرفهم ولكن

العلم بطيء الحصول وليست كل الطباع تقبله والجزء الغالب عليه الوَهْبُ من الله لا الكسب فطائفة من العمر تنقضى فى تحصيل متنه وطائفة من العمر ثانية تنقضي فى تصوّره واخذه عن الشيوخ وطائفة ثالثة فى تحقيقه ثم بعد ذلك كله فصفة العلم ليست من الصفات المحسوسة الظاهرة كالحسن والقبح ولا مما يدخله الكمية والمقدار المحسوس ليُعرَفَ التفاضلُ فيه بالذّراع والشّبر وقياس أحد المطلوبين على الآخر ولا الدال على صفة العلم وهو البيان والنطق ظاهراً مكشوفاً لكل احد كالشجاعة التى يعرف بها القويُّ من الضعيف بالافتراس والالقاء على الأرض وكالاجادة فى المصنوعات المرئية المشاهَدة بل صفة العلم من الصفات النفسانية والكمالات الحاصلة بقوة النفس الناطقة والقوى الباطنة فهى قابلة للجحد والانكار والمدافعة والتغطية عليها عند اهلها وقابلة ايضاً لان يدخل فيها غير اهلها بالتلبيس والتصنعّ والتمويه والجاه ويُعين على خفائها وجهل الناس بمكانها من صاحبها وقبولها للتصنع والتمويه ان العلم مستدع لفاهمة وحافظة وقَلّ أن يجتمعا فى شخص وذلك لما ان القوة الحافظة من مقدم الدماغ والقوة الفاهمة مما يلي مؤخر الدماغ في وسطه وبقدر كال احداهما بموادها تنقص الاخرى لتقابل المكانين وان شئت قلت ان البطن المؤخر من الدماغ محل الاسترجاع والتذكر والبطن المقدم محل التخيل وبقدر كال احداهما بموادها تنقص الاخرى لتقابل المكانين أو لأن الفهم يستدعى مزيد رطوبة في الدماغ والحفظ يستدعى مزيد يبوسة والجمع بينهما محال كما قاله الامام فخر الدين الرازي[42] فى كتابه المصنف فى مناقب الشافعي ناقلا له عن الحكماء . وان من العلماء من له قلم وكتابة وليس له بيان ولا جدل لان مزاجه يتغير بالمماراة والمدافعة غضباً أو حياء ويضيق قلبه انفعالا عن ذلك فيحصل الحبسة فى لسانه بانقباض الروح الى باطن القلب عند ضيقه او لعدم دربته (١) ومهارته بالبحث أو لِعِيِّه وحُبسته او لان فى العلم والكتابة استعانة على تشييع القوة النفسانية وضبطها عن التشتت وهذا مستمد مما ذكره الحكماء فى كتبهم من ان

---

(١) الدربة بالضم هي الضراوة والاعتياد على الشيء والحبسة بالضم تعذر الكلام عند ارادته والعي العجز عن النطق اه ملخصاً من القاموس

نفوس الـكهان لما ضعف استعدادها تشبثت بامور جزئية تكون مشيعة لها ومانعة من تشتتها كالسجع ورؤية الماء وسنوح سانح . ومنهم من له بيان وجدل ولا قلم ولا كتابة له اما لفصاحته مع عدم وقوفه على حقائق العلوم واما لفساد تراكيبه اهمالا واحترازاً وان كان واقفاً على حقائقها والقلم يضبط العيوب ويكون شاهداً عليه بخلاف العبارة لإ مكان المكابرة والاعتذار فيها وامكان تغييرها عند المضايقة واما لدربته ومهارته في البحث وحسن انتقاله فيه وتغطيته على جهله وقلة مبالاته. وان من العلماء من يزيد علمه على عقله فلا يحسن الغطاء على مجهولاته ولا الاعتذار عنها مع ان مجهولات الانسان اكثر من معلوماته بل لا نسبة لمعـلوماته الى مجهولاته. ومنهم من يزيد عقله على علمه فيضع الاشياء في حاقّ (١) مواضعها ويضيف اليها رونقاً وبهاء وتهويلا وتوهيا. وان من العلماء من له صوت لا همالِه والبكاء صغيراً لفقر اهله اولتسليط البكاء عليه في المهد والمخارج رطبة لينة فيفتح العياط لهواته وتتسع مجاري صوته وتتصلب اوداجه . ومنهم من لا صوت له لعدم ذلك ومن لا صوت له مغلوب عاجز عن المباحثة حتى ان بعض الناس علمه صوته وفخره نغمه وما أحق هذا المقام بقول القائل .

فقلت لحمد لمـا التقينا تنكب (٢) لا يقطرك الزحام

وان من العلماء من له علم بلا جاه ولا وجاهة فلا يمكنه المقاومة ويتلعثم لسانه ويتغير للاجلال ويدافعه الوهم ويقول فلا يلتفت اليه او يرد عليه رداً جاهياً تقبله العامة ولله در القائل

اذا التقى الخيل في معسكرها فكيف حال البعوض في الوسط

والقائل حياة بلا مال حياة ذميمة وعـلم بلا جاه كلام مضيَّعُ

ومنهم من له جاه وحاله في ذلك ظاهر لا يحتاج الى الـكلام عليه. واذا تقرر لك ذلك كله علمت ان العلم اقبل شئ للخفاء والجحد والتلبيس والتصنع وكيف الرواج بحرفة مجحودة او خفية او يشارك فيها بالتلبيس والتمويه ـ ومنها ان مافى ايدى الناس انما هو

---

(١) في القاموس وحاق الجوع (اى بتشديد القاف) صادقه ورجل حاق الرجل وحاق الشجاع وحاقهما كامل فيهما اه (٢) اى اعدل عن طريقي لئلا تصرعك مزاحمتي اه

ثمرة أموالهم وتكسباتهم بأعمالهم حتى لو فرضنا شخصاً خالياً من المــال والتكسب لم يكن الا شحاذا مكدياً وعلى قدر احتياج الناس الى نوع ذلك المــال ونوع ذلك التكسب يكون نفاقه بينهم وبقدر (١) نفاقه تعظم ثروة صاحبه وغناه **فلذلك لاتعظم ثروة اصحاب منصب القضاء والفتوى والتدريس غالباً وذلك لعدم احتياج جهور الناس الى ما بأيديهم احتياجاً لازماً لا مندوحة عنه** لما ان الامور المفتقرة الى القضاء تنفصل بغير قضاء تارة لرجوع المبطل عن عناده لوازع دين او عار أوخوف مترقب او نحوها وتنفصل بالسياسة وبوجوه الناس تارة أخري ولمــا ان العلوم مباينة لطبائع البعض ومهجورة عند البعض ومستثقلة علي البعض

﴿ الفصل السادس ﴾

﴿ فى مصير العلوم كمالات نفسانية وطاعة من الطاعات ﴾

(ليس الا بعد كونها صناعة من جملة الصناعات وحرفة من الحرف)

هذه الدعوة مركبة من ثلاثة امور **الامر الاول** ان العلوم كانت حرفة من الحرف وصناعة من الصنائع . **الامر الثانى** ان العلوم الآن خرجت عن كونها صناعة وزال منها معنى الاحتراف والصنعة . **الامر الثالث** كونها كمالات وطاعات و بيان ذلك يفتقر الي مقدمتين — **المقدمة الاولى** ان هذه الشريعة ناسخة لجميع الشرائع وأحكامها باقية بقاء الدهر ثم ان الاحكام كلها متلقاة من الله تعالى ولا مدخل للعقل فى ايجاب ولا تحريم ولاغيرهما ولذلك قيــل في حد الحكم الشرعي خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير فقيــل خطاب الله لمــا ان السنة والاجماع والقياس ترجع اليه بالآخرة . والكتاب والسنة والحكم الشرعي مفتقر الى العــلوم بأسرها -- و بيانه انه بالنظر الى المفرد الذي يستدل به وصحته فى حالة افراده يفتقر الي علم الصرف وان النظر فى صحة التركيب يفتقر الى علم النحو وفي تطبيق اللفظ علي مدلوله يفتقر الى علم اللغة وفي اظهاره واضماره والتفاته وتقديمه وتأخيره ونحوها مما يرجع الى مطابقة اللفظ لمقتضى الحال الى علم المعاني وفى حقيقته ومجازه وكنايته واستعارته ونحوها ممــا يرجع الى ايراد

(١) النفاق بالفتح رواج الشيء وبالكسر المداهنة والخداع ومراد المؤلف الاول كما هو واضح اهـ

المعنى الواحد في طرق مختلفة في وضوح الدلالة الى علم البيان و بالنظر الى توابع هذين العلمين الى علم البديع و بالنظر فى خاصه وعامــه ومطلقه ومقيده ومجمله ونحو ذلك الى طائفة من علم اصول الفقه وفى مواقع القرآن الى أسباب النزول وفي استيضاح معانيه الي علم التفسير وفى نزوله علي حروف متعددة الي علم القرآآت وفى الاسـتدلال به وترتيب الادلة الى علم المنطق والجدل وآداب البحث وفي الاحكام المستفادة منه وبواسطته الى الفقه وفي استنباط الفقه الى اصول الفقه ـ وان النظر فى السنة يستلزم علم رواية السنة وحفظها وعــلم الحديث والناسخ والمنسوخ وأسماء الرواة وكناهم وألقابهم ومشتبه أنسابهم وجرحهم وتعديلهم ووفاتهم والاخبار والقصص ـ وان النظر فى الشارع يفتقر الي عــلم الكلام ثم ان العــلوم بعضها مربوط ببعض ومتعلق به اما على سبيل الاستلزام أو على سبيل الاستمداد وهذه العلوم المذكورة تستلزم جملة من علوم الحكماء والاوائل ولو بواسطة أو وسائط كاسـتلزام الفقه بواسطة الفرائض والاقرارات المجهولة علم الحساب وهو الارتمـاطيقى وعلم الجبر والمقابلة وبواسطة اختلاف أحكام الوصية وما في معناها بالمرض المخوف وغيره واباحة التيمم بالمرض ونحوه الى علم الطب وكاستلزام علم الكلام للطبيعة والرياضة والمنطق وكاستلزام تعيين معرفة القبلة على كل واحد في رأي الرافعي(43) أو علي مريد السفر في رأى النووي(44) وهو من الفقه معرفة طائفة من الهيئة وكذلك معرفة دخول الوقت واستلزام الاستشهاد بالشعر فى النحو والتفسير علم العروض وعلى هــذا القياس قس تجد العلوم مرتبطة بعضها ببعض بالاستلزام أو الاستمداد —

المقدمة الثانية ان الحفاظ للقرآن بكماله في عصره صلى الله عليه وسـلم معاذ بن جبل وأبو زيد سـعيد بن عمر الانصارى وأبو الدرداء عويمر وزيد بن ثابت وفي قول وعثمان بن عفانــ وتميم الدارى وعبادة بن الصامت وأبو أيوب الانصارى . وأصحاب الافتاء في عصره صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وأبيّ بن كعب وعبـد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة وزيد ابن ثابت وسلمان وأبو الدرداء وأبو موسى الاشعرى . ثم انتهت اصول العلم الى عبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت وعبدالله بن عباس فأخذ عن ابن مسعود ستة: علقمة

والأسود وعبيـدة والحرث بن قيس ومسروق وعمرو بن شرحبيل. وأخذ عن زيد ابن ثابت أحدَ عشرَ رجلا ممن كان يتبع رأيه ويقتدى بقوله: قبيصة بن ذؤيب وخارجة بن زيد وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وعروة بن الزبير وابو سلمة بن عبد الرحمن وابو بكر بن عبد الرحمن بن الحرث والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وسعيد ابن المسيّب وأبان بن عثمان وسليمان بن يسار — وأخذ عن ابن عباس ستة: سعيد بن جبير وعطاء بن ابي رباح وعكرمة ومجاهد وجابر بن زيد وطاووس هكذا رواه ابو بكر الخطيب باسناده عن علي المديني وروى الحاكم ابو عبد الله عن ابي العباس الاصم عن العباس الدوري قال انتهي علم الصحابة الى ستة: عمر وعلي وابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت انتهى — وانتهت اصول الرواية الى ستة: أبي هريرة وأنس وجابر بن عبد الله وعبدالله بن عمر وأبي سعيد الخدري وعائشة. وانتهت أصول الاخبار والقصص الى ستة: عبد الله بن سلام وكعب الاحبار ووهب بن منبه وطاووس اليماني ومحمد بن اسحق ومحمد بن عمر الواقدي — وانتهت صناعة التفسير الى ستة: عبد الله بن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والضحاك والسّدّى هكذا ذكر هذا كله جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى (45) فى كتابه المسمى (تلقيح فهوم اهل الاثر فى عيون التاريخ والسير) ثم صار الامر من بعده صلى الله عليه وسلم الى ابى بكر الصديق واسمه عبد الله بن عثمان بويع له فى اليوم الذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سقيفة بني ساعدة. ثم بويع له البيعة العامة يوم الثلاثاء من غد ذلك اليوم من شهر ربيع الاول سنة احدى عشرة وتوفى لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة فكانت خلافته سنتين واربعة اشهر الا عشر ليال. ثم استخلف عمر ابن الخطاب يوم وفاة ابي بكر بنصه عليه ثم قتل لاربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وكانت ولايته عشر سنين وستة اشهر واربعة ايام. ثم استخلف عثمان بن عفان أول يوم من المحرم سنة اربع وعشرين وقتل يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وكانت ولايته احدى عشرة سنة واحد عشر شهرا واياماً. ثم استخلف على بن أبي طالب وقتل فى رمضان سنة اربعين في يوم الجمعة وكانت خلافته

اربع سنين وتسعة اشهر واياماً ثم بايع الناس الحسن بن على يوم موته فوليها سبعة اشهر واحد عشر يوماً ويقال اربعة اشهر ثم كره سفك الدماء فتخلى عن الأمر لمعاوية وانخلع وبايعه فى جمادى الاولى سنة احدى وأربعين **فانتقل الامر الي بنى أمية وخلص لهم ثنتين وثمانين سنة** الف شهر وعدتهم اربعة عشر رجلا اولهم معاوية وخلافته سبع عشرة سنة وثلاثة اشهر وآخرهم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ومدة ولايته نحو من ثمان سنين وبعد معاوية يزيد بن معاوية وكانت ولايته ثلاث سنين وشهرين ثم بويع لابنه معاوية بن يزيد فمكث اربعين ليلة ثم مات وقيل خلع نفسه لصعوبة الامر عليه ثم بويع لعبد الله بن الزبير بمكة لسبع خلون من رجب سنة اربع وستين ثم قام مروان ابن الحكم بالشام بعد بيعة ابن الزبير بأشهر فبايعه جماعة من أهل الشام وذلك فى المنتصف من ذى القعدة سنة اربع وستين ثم مات فى رمضان سنة ٦٥ فكانت ولايته تسعة اشهر وثمانية وعشرين يوماً فقام مقامه عبد الملك ابنه وجهز العساكر مع الحجاج ابن يوسف لقتال ابن الزبير وقتل ابن الزبير في المسجد الحرام بمكة يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين وكانت ولايته تسعة أعوام وشهرين ونصفاً. ثم ولي الوليد بن عبد الملك وتوفى سنة ٩٦ فكانت ولايته تسع سنين وخمسة اشهر. ثم استُخلِف أخوه سليمان بن عبد الملك وتوفى سنة ٩٩ فكانت خلافته ثلاث سنين الا اربعة اشهر. ثم استخلف عمر بن عبد العزيز وكانت خلافته سنتين وخمسة اشهر وخمسة ايام. ثم استخلف يزيد بن عبد الملك وكانت خلافته اربع سنين وشهراً. ثم استخلَف أخاه هشام بن عبد الملك وكانت ولايته تسعة عشر عاماً وسبعة أشهر وعشرة أيام. ثم استُخلف الوليد بن يزيد بن عبد الملك وكانت خلافته سنة وشهرين. ثم استخلف يزيد بن الوليد بن عبد الملك ثم بويع ابو اسحق ابراهيم بن عبد الملك. ثم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وقتل سنة ١٣٢ هجرية. **ثم انتقل الامر الي بنى العباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم** فتولى ابو العباس السفاح واسمه عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس فى ربيع الأولى وقيل الآخرة سنة ١٣٢ وتوفي فى ذى الحجة سنة ١٣٦ فكانت خلافته اربع سنين وعشرة

أشهر . ثم تولى بعده اخوه المنصور ابو جعفر عبد الله بن محمد وكان اكبر سناً منه وحج فتوفى لسبع خلون من ذى الحجة سنة ١٥٨ فكانت ولايته اثنين وعشرين سنة الا شهراً . ثم ولى المهدى محمد بن عبد الله بمكة وتوفي لثمان بقين من المحرم سنة ١٦٩ وكانت خلافته عشر سنين وتسعة وار بعين يوماً . ثم ولى ابنه الهادي موسى بن محمد وكانت خلافته اربعة عشر شهراً واحدى وعشرين يوماً . ثم ولى بعده أخوه الرشيد ابو جعفر هارون بن محمد فكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهراً وستة عشر يوماً . ثم ولى بعده ابنه الامين ابو عبد الله محمد بن هارون وقتل فى المحرم سنة ١٩٨ وكانت خلافته اربع سنين وستة اشهر واربعة وعشرين يوماً . ثم ولى اخوه المأمون عبد الله بن هارون فى المحرم ومات ببلاد الروم لثمان خلون من رجب سنة ٢١٨ فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً . ثم تتابع العباسيون واحدا واحدا الى ان ختموا بالمستعصم ابي احمد عبد الله بن المنتصر بالله ابي جعفر منصور وكانت عدة خلفاء بني العباس سبعة وثلاثين خليفة وجملة أيامهم خمسمائة سنة واربع وعشرون سنة ولم تكن ايدى بنى العباس حاكمة على جميع البلاد كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والاقطار والامصار فقد خرج عن بنى العباس بلاد المغرب **وانما ذكرت هذه المقدمة بطولها لتعرف ترتيب الدول فان تغير الاحوال انما هو بتغيير الملوك وتتجدد العوائد بحسب احوال الملوك** وسيتضح لك ذلك باذن الله تعالى — اذا تقرر ذلك فاعلم ان العلوم الاسلامية لم تكن مدونة ولكن اقتضتها الشريعة اقتضاء واستلزمتها لزوماً وأفاضتها افاضة كما تقرر فى المقدمة الاولى وتلقت الصحابة اصولها من حضرته صلى الله عليه وسلم ومشاهدتهم الوحى وتفقههم باسباب النزول وما أفاضته عليهم أنوار النبوة ثم ثابروا على الحق وتساءلوا وتناظروا واجتهدوا وتراجعوا عند اختلافهم الى مَنْ عنده مزيد علم بالمختلَف فيه **وتواصوا وتعاونوا على امضاء الشريعة وتشييعها والزام الناس بها واكرام حملتها وملوك الناس علماؤهم والعلماء الكبار قليلون** كما مر في المقدمة الثانية على ما هو العادة فى الأمور المبتدأة كيف تكون فى مبدئها وأولها قليلة وما ظنك بالشئ المحتاج اليه مع قلته ويلزم من ذلك كله وفور الداعية فى تحصيل العلم ومزيد الاعتناء به

والرغبة فيه ولذلك كانت الفضائل والكمالات والعلوم تأخذ فى الازدياد والنمو لنفاق اصحابها ولبقاء انوار النبوة غضة طرية بين الناس وكلما ازدادت الشريعة تمهيداً ونشرا ازدادت الصحابة وحاشاهم من تعلق هممهم بالدنيا سيادةً ويسراً فلقد كثر المال فى خلافة عثمان بن عفان كثرة بالغة لم يكثر قبلها فى خلافة من تقدمه حتى جاء نصيب الفارس فى غزوة افريقية ثلاثة آلاف دينار أو عشرين الف دينار فأطلقها كلها عثمان رضى الله عنه فى يوم واحد لآل الحكم ويقال لآل مروان . ثم صارت الخلافة من الخلفاء الاربعة والحسن رضى الله عنهم الى الامويين فالعباسيين على ماتقدم فى المقدمة الثانية وهم مابين صحابي وتابعي ومدل بنسبته الى النبي صلى الله عليه وسلم والشريعة التى العلوم خدمتها شريعة قريبهم وصاحبهم، وسيادتهم وفخرهم واستيلاؤهم على الممالك به صلى الله عليه وسلم وبشريعته المستلزمة للعلوم على ما مر فى المقدمة الاولى **فكيف لا تأخذ العلوم فى الانتشار والملوك والامراء والاعيان والقضاة والوزراء هم أهل العلم والفضل والعقل او الممدحون** الكمل وشهرتهم وذكر اسمائهم فى غالب خطب كتب الاقدمين تغنى عن عدهم بالاسماء فقلّ ان يخلو كتاب من كتب العلماء الاقدمين خصوصاً فى العلوم العقلية والادبية الا ويذكر فيه ان الباعث على تدوينه وزيرٌ أو قاضٍ أو أمير أو مَنْ فى معناهم. ويلزم من ذلك قوة داعية التعلم وتوفر الارادة له لما ان المجانسة واتحاد المقاصد والتعاون على مقصد واحد واستمداد العلماء بعضهم من بعض وزيادة العلم ورسوخه بالبحث فيه والمذاكرة له كل ذلك مقتض للالفة والمحبة والاختلاط والعناية وألفة الملوك والاعيان ومحبتهم والاختلاط بهم يقتضى تأليفَهم ومن يحبونه الى مقاصده ومآربه ولذلك بنيت المدارس بألوف الدنانير لجنس العلماء أو لواحد منهم بالقصد الاول ولجنسهم بالقصد الثانى واتسع الحال بالعلماء انفسهم حتى بنوا هم لبنى نوعهم مدارس كثيرة وكتب التاريخ طافحة بهذا. **ولذلك ايضاً بذلت الالوف فى الارشاد الى تصحيح كلمة او مساعدة على مقصد علمى** كحكاية النضر بن شميل مع المأمون وانه امر له بخمسين الف درهم يقبضها من الفضل بن سهل على ان ارشده الى ان السِّداد الذى بمعنى البلغة وسد الثلمة بكسر السين لا بفتحها وان الفضل زاده من عند نفسه لذلك ثلاثين الف درهم فتم له ثمانون

الف درهم[46] . وكحكاية ابي‌عثمان المازنى واحضار الواثق اياه من‌البصرة ليسأله عن نصب رجل أو رفعه فى قول العرجي

أظلومُ إن مصابَكم رجلًا أهدى السلام تحيةً ظلم

وأمره له على توجيهه اياه بألف دينار . وكحكاية دعلج بن احمد بن دعلج ابو محمد السجزى(١) الفقيه المعدل المحدث الرئيس صاحب الاموال الجزيلة التى أنفق اكثرها فى‌العلم واهله المتوفي عن ثلثمائة الف دينار سنة ٣٥١ حيث بعث بمسنده الى ابن عقدة لينظر فيه وجعل فى الاجزاء بين كل ورقتين ديناراً وكحكاية عبد الله بن طاهر حيث رتب للقاسم بن سلام ابى‌عبيد في كل شهر عشرة آلاف درهم لما وضع كتابه في غريب الحديث وقال له ان عقلا يعين صاحبه على عمل هذا الكتاب حقيق ان‌لايحوج لطلب المعاش[47] . وكحكاية على بن محمد بن الفرات[48] من انه كان ينفق على خمسة آلاف من‌العلماء والعباد ويجرى عليهم نفقات كل شهر وكثير ذلك من‌أخبار المدح والكلمات العلمية مما يغنى تواتره المعنوى عن‌الاطالة به . ولذلك ايضاً كان‌التقريب والتبعيد والضِّعة والشرف على حسب الاستعداد والاستحقاق وذلك كله يستلزم كون العلوم والكمالات صنعة من الصنائع وحرفة من الحرف لما ان الناس كانوا يرون احتياجهم الى العلماء فوق احتياجهم‌الى‌الحاكة والباعة والصناع وباقى‌الحرف أضعافاً‌مضاعفة . وكان‌العلماء‌يسترزقون بعلومهم ومعارفهم ويتخذونها ذرائع ووسائل الى مقاصدهم فوق‌استرزاق‌الحاكة والخاطة أضعافا مضاعفة فلذلك اتسع نطاق العلم ودونت الدواوين وصُنفت الكتب وهُذبت ورتبت وبسطت واختصرت واستبحر العلم استبحاراً وذخرت امواجه واخذ الى أبعد مسافة من اقطار الارض شرقاً وغرباً حتي **ان علوم الشريعة كلها من التفسير والنحو والاصول والمعانى والحديث اكثراصحابها العجم** على بعد قطرهم مع ان‌صاحب‌الشريعة عربي‌وكتابه عربي‌والمتلقون عنه وهم‌الصحابة عرب — ولذلك سبب اذكره استطرادا وهو ان الشريعة لما استلزمت العلم على ما مر وكان العلماء هم الملوك والاعيان وكان نَفاق العلماء والاحتياج اليهم فوق نَفاق[49] الخياط والحداد والحائك والاحتياج اليه

(١) نسبة الى سجستان على غير قياس

واسترزاق العلماء بعلمهم فوق استرزاق هؤلاء بحرفتهم صار العلم حرفةً من الحرف على ماتقدم وقاعدة الحرف انموجوديتها وكثرتها ومهارة اهلها يلاور مع التمدن والحضارة فكلما ازداد القطر تمدناًوحضارة ازدادت الحرف احكاماً ومهارة فلذلك لاتجد فى القرى من المصنوعات مايوجد فى المدن،ولا فى صغير المدن ما يوجد فى كبيرها لما ان رواج الحرف ونفاقها هو سر موجوديتها وإحكامها لان الناس لايضعون سلعهم حيث لاتقبل أولاتنفق وكبر المدينـة وكثرة اهلها يستلزم النَّفاق لاحتياج الناس واختلاف اغراضهم وهممهم احتياجاً على البدل والتناوب الى المصنوعات واستلزام ذلك لحكم البدلية والنوبة عدم الشعور والخلو واقتضائه للنفاق لان توزيع المجموع على المجموع مع الكثرة على البدل والنوبة مستلزم لذلك لامحالة . ومملكة فارس والعجم كانت اكثر تمدنًا وحضارة فلذلك انتشرت العلوم فيهاوأحكِمت إحكاما بليغًا الى حد لايوجد فى غيرها لكثرة ناسها وعظم مملكتها. هذا كله فى تبيين ان العلوم كانت صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف

ــ وأما الامر الثاني وهوان العلوم الآن خرجت عن كونها صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف فذلك ان الحرف والدول لها شباب وهرم ولها عمر طبيعي كاعمار الحيوانات والامور المعنوية تتراجع وتتناقص عند التناهى كالامور الحسية وكنا قد قدمنا أن العلوم اقتضتها الشريعة اقتضاء وان الصدر الاول تشايعوا على اظهار الشريعة ولوازمها وتوابعها فراج العلم والعلماء لذلك ولاشك ان الدول بعد الخلفاء الاربعة وان كانت فوق عصرنا هذا فى الانتظام والسَّداد اضعافاً مضاعفة لكنها دون عصره صلى الله عليه وسلم ويدل لذلك قوله صلي الله عليه وسلم « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجىء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته » وقوله صلى الله عليه وسلم في رواية على بن الجعد عن حماد عن سعيد بن جهان [1] عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم « الخلافة ثلاثون سنة ثم تكون ملكا » وخرج البيهقى فى دلائل النبوّة عن ابى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ان الله عز وجل بدأ هذا الامر نبوة ورحمة وكانتا خلافة ورحمة وكانتا ملكا عضوضًا

(١) جهان كمثمان محدث من التابعين اه قاموس

وكانتا عتواً وجبرية وفساداً فى الامة يستحلون الفروج والخمور والحرير وينصرون على ذلك ويرزقون ابداً حتى يلقوا الله عز وجل » وخرجه ابو بكر بن ابى عاصم فى كتاب السنة بنحوه مختصراً. ولسر هذه الاحاديث تجدد فى الدول بعده صلى الله عليه وسلم مالم يكن في عصره صلى الله عليه وسلم واستعجم الملك وتجددت فيه أحوال فارس والعجم من الملابس الفاخرة والمساكن الأنيقة والحجاب ومضاعفة الحجاب ومن الوزراء والجاويشية والجوندارية واصناف امراء ووظائف واسماء لم تكن فى عصره صلى الله عليه وسلم. وحدث تخطى الحدود والتعازير وتشنيع القتل وايقاعه بغير موجب شرعي وزالت احوال البداوة من خوف المذمة وشدة الحياء والكرم والتبذل فى المآكل والملبس والمركب ومن اتخاذ التواضع خلقا وحدثت الحوادث وكثرت الخوارج والمتغلبون على العباسيين الذين يُدلّون بنسبهم اليه صلى الله عليه وسلم ونزلت سيادتهم بشريعته المستلزمة للعلوم كما تقدم فخرجت حصة من مملكة الشرق من ايدى العباسيين في دولة بنى بويه .... ثم زالت أيديهم عن العراق كله وخرج الحكم عنهم فيه اصلا سنة وشهورا في أيام ارسلان البساسيرى فى حدود الخمسين والاربعمائة ثم عاد الى ان اخرجه عنهم مطلقا واستأصلهم هلاكو بن طولى خان بن جنكيز خان وكان الصدر الاول يدبرون افعالهم على محض الشريعة ثم جاء من بعدهم فادخلوا فيها بالاستدلال والتمحل جملة من السياسة ثم فعلوا اموراً سياسية وهوّنوها على الناس بالاعتذار ثم اتسع نطاق السياسة وأدار الملوك احوالهم على عقولهم واحدث جنكز خان الياساق (50) الذي وضعه وجعل الناس يتحاكمون اليه ويطلع الي جبل ويزعم انه يوحى اليه به واكثره مخالف لشرائع الله وكتبه وانما هو شئ اقترحه من عند نفسه بعد الستمائة وأوحاه الى شيطانه وكان يكتب ابساقه فى مجلدين بخط غليظ ويحمل على بعير ويبالغ فى تعظيمه **وكثرت الحوادث السياسية والامور العقلية المخالفة للشريعة واستغناء الحكام بعقولهم مما يقتضى طي بساط العلم ويفضى الى عدم الاحتياج اليه** فان النفوس حكوية من شأنها المحاكاة فى الشر وهما صدر شئ وزال بقى منه أثر فى النفوس وزواله الظاهر لا يستلزم زواله من النفوس وزوال الاستدلال به وروايته على سبيل الاستحلاء والاستحسان وهذا كله

يستلزم طى بساط العلم وعدم الحاجة اليه لما ان العلوم من لوازم الشريعة وتوابعها كما قررناه واعدناه غــير مرة واذا ضعف العمل بالملزوم وتُسوهل فيه فأولى ان يضعف العمل باللازم ويُتساهَل فيه ولذلك لم يبق من العـلم سوى رسومه ومعاهده كالمدارس القديمة وسوى مايوجبه ناموس الاسلام من الاعتراف بحقه ظاهراً **فقد اتضح عندك خروج العـلوم عن كونها مظنة الاستحقاق ومطية الاسترزاق** وكيف لا وقد صارت الوظائف الدينية تباع كما يباع الفرس والحمار وهو الذى يسمونه نزولا واعراضاً ويوصى بها كما يوصى بالقوس والدار وهو الذى يسمونه نزولا ايضاً وتورّث كما تورّث الأموال يأخذها الصغار والاطفال. **وانت اذاراجعت ان كثرة الحوادث الخارجة عن الشريعة تحدث فى النفوس محاكاة وأثراً واستدلالا وان الناس على دين مليكهم وهم بزمانهم اشبــه منهم بآبائهم وان الملوك اسواق يحمل اليها ماينفق فيها وان الصنائع تدور مع النفاق وجوداً وعدماً** وان وثوق المحترف من الباعة والحاكة والخاطة بافضاء حرفهم الى ثمرتها اكثر من وثوق العلماء بافضاء علمهم الى ثمرته الدنيوية وأن اهمال الصنعة والاستغناء عنها بغيرها يُوجب اضمحلالها وزوالها ومانسب لذلك مما تجده وتشاهده من اهمال المنطق والحكمة بالشام واستعماله بالروم والعجم، تحققتَ انّ العلوم خرجت عن كونها صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف اللهم الا ان يحييها الله تعالى وينشرها ويبثهــا فى أيام الملك المؤيد وينشرها فهو الذى عمر المدارس بمصر والشام بمعروفه وبره وبآرائه الموفقة وساطع امره وقهره واحياء معالم العلم شرعه وشعره ابقى الله دولته بقاء الفرقدين وملكه مابين المشرقين

واما الامر الثالث وهو كون العلوم كمالات وطاعات فهو ان الانسان انمـا ينفصل عن الحيوان بالنطق وليس المراد به الصوت المنضغط فى المجرى على مقاطع الحروف والا لكان الاخرس غير انسان ولا الكلمات المنتظمة والا لكانت الببغاء والغراب انساناً. وانمــا المراد به النفس الناطقة وهى التى لها الفكر والروية ومحبة العـلم والمعرفة وهى التي تملك الطبائع القياسية وغير القياسية وتكون فلسفية وحكمية وتبحث عن العلوم النظرية ولها الاستدلال بظواهر الامور على بواطنها ومعرفة ترتيب الموجودات فى الوجود وهذه القوة كمالها وحياتها بالعلم والبيان فتميز الانسان بماهو انسان بالعلم والبيان والافغير الانسان

من الدواب والسباع اكثر اكلا منه وأقوى بطشاً واكثر جماعا واولاداً وأطول عمراً وانما يتميز عن الدواب والحيوان بعلمه و بيانه فاذا عدم العلم بقي معه القدر المشترك بينه و بين سائر الدواب وهي الحيوانية المحضة فلا يبقى فيه فضل عليهم بل قد يبقى شرا منهم كما قال تعالى (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) فهؤلاء هم الجهال (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) وقال تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع الا دعاء ونداء) سواء كان المعنى: مثل داعي الذين كفروا كمثل الذى ينعق بمالا يسمع من الدواب أومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذى ينعق فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الانسانية التى يتميز بها صاحبها عن سائر الحيوان. **وايضاً فالجهل من اعظم الادواء والامراض وقد سماه الله مرضاً** فى قوله تعالى في حق المنافقين (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) وقوله (وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون) وفي قوله (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض) فان المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة وكذلك امراض القلب جميعها من الشهوة وغيرها كالرياء والعجب والحسد والفخر كلها ناشئة عن الجهل فانها مركبة من الشهوة والشبهة فان الكبر مثلا مركب من تخيل عظمته وفضله وارادة تعظيم الخلق له ومحمدتهم اياه ودواء هذه الامراض كلها العلم ولذلك أكثر الغزالى رحمه الله في رفع المهلكات من ذكر دواء العلم في كل مرض مرض من امراض القلوب ولهذا سمي الله تعالى كتابه شفاء لما في الصدور ولذلك ايضا ترى داء الجهل متلفاً للاموال غالباً فرب شخص يتحيل عليه بحيلة شرعية يجعلها طريقاً الى أخذ ماله ولولا جهله بالشريعة لما تمت عليه — وأيضاً ما روى عن ابن عمر يرفعه «افضل العبادة الفقه» وقال عمر رضي الله عنه «موت الف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه» وما رواه الخطيب فى كتاب الفقيه والمتفقه عن ابن عمر يرفعه «مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة» وما رواه ايضاً من حديث عبد الرحمن بن عوف يرفعه «يسير الفقه خير من كثير العبادة» قال ابن قيم الجوزية فى (مفتاح دار السعادة) وفى رفعها نظر وما رواه ايضاً من حديث انس يرفعه «فقيه عند الله افضل من الف عابد» وهو فى الترمذي من حديث روح بن جناح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً قال ابن القيم

وفى ثبوتهما مرفوعين نظر والظاهر ان هـذا من كلام الصحابة فمن دونهم وما رواه المخلص عن ابن صاعد حدثنا القاسم بن الفضل بن مربع حدثنا حجاج بن نصير حدثنا هلال بن عبدالرحمن الجعفي عن عطاء بن ابى ميمونة عن ابى هريرة وابى ذر قالا « باب من العلم نتعلمه احب الينا من الف ركعة تطوعاً و باب من العلم نعلمه عمل به او لم يعمل احبّ الينا من مائة ركعة تطوعاً» وما رواه الخطيب ايضاً عن ابى الدرداء انه قال « مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة » وما رواه ابو داود والترمذى من حديث ابي الدرداء رضى الله عنه قال « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقاً الي الجنة وان الملائكة تضع اجنحتها رضا لطالب العلم وان العالم يستغفر له من في السموات ومن في الارض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر عـلى سائر الكواكب. ان العلماء ورثة الانبياء وان الانبياء لم يورّثوا درهما ولا ديناراً انما ورّثوا العلم فمن أخذ منه اخذ بحظ وافر» أما وضع الملائكة أجنحتها فتواضعاً وتوقيرا واكراماً لمـا تحمله من ميراث النبوة لانه طالب لمـا فيه حياة العالم ونجاته ففيه شبه من الملائكة و بينه و بينهم مناسبة لان الملائكة يحرصون عـلى منافع البشر يعينونهم على أعدائهم الشياطين و يستغفرون لمسيئهم قال الطبراني سمعت أبا يحيى زكريا بن يحيى الساجى قال كنا نمشى فى بعض الازقـة الى باب بعض المحدّثين بالبصرة فأسرعنا المشي وكان معنا رجل تاجر متّهم في دينه فقال ارفعوا أرجلكم عن اجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ فما زال من موضعه حتى حفيت رجـلاه وسقط وأما استغفار من فى السموات ومن فى الارض له فانه لمـا كان ساعياً في نجاة العباد جوزي من جنس عمله وجعل ما فى السموات والارض ساعياً فى نجاته وقيل سبب هذا الاستغفار أن العالم يعلم الخلق مراعاة هذه الحيوانات و يعرفهم كيفية تناولها واستخدامها وذبحها فاستحق ان يستغفر له البهائم وقوله فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب مطابق لحال القمر والكواكب فان القمر يضيء الآفاق و يمتد نوره فى أقطار العالم وهذه حال العالم واما الكوكب فنوره لا يجاوز نفسه وما قرب منه وهـذا حال العابد — ووجه اختيار القمر على الشمس وان كان الشمس اكثر

نوراً واضاءة أن القمر لمــا كان نوره مستفادا من الشمس كان تشبيه العالم الذى نوره مستفاد من شمس الرسالة بالقمر أولى من تشبيهه بالشمس وأيضاً فنور القمر يتفاوت بتفاوت الليالى نقصاناً وتماماً والشمس نورها فى كل الايام على السواء والعلماء يتفاوتون فى العلم تفاوتاً كثيرا فتشبيههم بالقمر أنسب لحالهم — واما تشبيه العلماء بالنجوم فى قوله صلى الله عليه وســلم « اصحابى كالنجوم » فمن وجه آخر وله حكمة اخرى فان النجوم يقتدى بها فى ظلمات البر والبحر وتكون رجوماً للشياطين والعلماء كذلك يقتدى بهم فى ظلمات الجهل والكفر وتُرجَم بهم الشياطين الذين يوحون الى أوليائهم زخرف القول غرورا

الفصل السابع

(فى السبب فى غلبة الفلاكة والاهمال والاملاق على نوع الانسان وبيان ذلك)

اعلم ان الفلوكية والاهمال والاملاق غالب على جنس البشر والسبب فى ان غالب البشر (١) يرمّقون العيش ترميقاً ويدافعون إخفاق المساعى مدافعة ويتسكعون فى طرق الاملاق أو فوقه بقليل تسكعاً أنّ السيادة والمجد والثروة والغنى وأشباهها إما مكتسبة واما موروثة **فأما المكتسبة** فما سوى الامارة من المعاش الطبيعى إما تجارة أو فلاحة او صناعــة. فالتجارة مفتقرة الى مادة متسعة ورأس مال كبير يدار فى وجوه الارباح والتثمير ويوزّع على أنواع المتاجر لينجبر كساد بعضها بنفاق الآخر وليستعان بالنافق على ادّخار الكاســد ارتقاباً لحوالة الاسواق واستدراراً للنفاق ولكيلا يباع الكاسد فى حال كساده وذهاب ربحه وفساده وأيدى الناس خالية عن الاموال المقنعة القابلة لمثل ذلك غالباً — وأيضاً فهى محتاجة الى بصيرة تامة ودراية وافية وتجربة كاملة ليؤمن بها غش الباعة وخلابتهم وترويج السماسرة كواسدهم ومفتقرة ايضاً الى فراســة صادقة وحدس صحيح ليضع كل سلعة فى حاقّ موضعها زبوناً وسوماً وترخيصاً واغلاء وحلولا وتأجيلا وادخاراً وتعجيلا ونفوس الناس غالباً ظلمانية لخلوّها عن العلوم العقلية والاعمال الرياضية فهى بعيدة عن البصيرة — **وأيضاً فالايدى الناصبة الخاطفة مستولية**

---

(١) فى القاموس الترميق العمل بعمله ولا يحسنه يتبلغ به وهو مرمق العيش ومرمقه كمعظم وكمحمر ضيقه اه وقوله ويتسكعون اى يذهبون متحيرين لا يدرون اين يأخذون اه

على التجار لقهوريتهم مع الدولة وحامية الملك وخاصته الخادعين بالاستدانة والارباح الكاذبة والمواعيد الباطلة والرهون الغير المملوكة والالتجاء الى الاعارات والحيل الشرعية والاستعانة بشهود الزور ووكلاء السوء وربما تكرر ذلك على التاجر الماهر فاقه واقعده عن أمثاله حتى أتى على رأس ماله —وأما الفلاحة فعوارضها السماوية أكثر من ان تعد من البرد والهواء المفرطين وانقطاع المطر وكثرته فى غير وقته ونزول كبار الحصى والبرد وثقيل الثلج وشدة الحر ومجيء الجراد المنتشر وكذلك العوارض الارضية من سوء النبت وسباخة الارض وخبث طينها ووضع الاشياء متأخرة عن أوانها وعدم استكمالها بجرائها وشروطها ونبات الاشياء المضرة خلال الاشياء المطلوبة ومن الجرذ والفار واليربوع ومن رخص البقول والخضراوات وما فى معناها مما لا يقبل الادخار مع غلاء بذرها ومن عدم نصيحة المعاونين فيها وخبائثهم واختلاسهم وتفويت الاعمال الكمالية المصلحية وتسليط الظلمة عليهم واستعبادهم وتوسيع شروط مقاسمتهم وفرض الفرائض والتفنن فى وجوه الجبايات وانواع الظلامات والجائهم الى بيع زراعاتهم فى حال كسادها وعدم زواجها مع ما يختص به أهل البدو من رداءة العيش وخشونته والبعد عن أحوال الحضارة من الرفاهية والترف وموجودية المطالب والتحلى بالعلوم ثم مع ذلك كله ما هم عليه من دخول المهانة في قلوبهم وظهورها فى أحوالهم وعلى شمائلهم وناهيك قوله صلى الله عليه وسلم« ما دخلت السّكة[52] دار قوم الا دخلها الذل» — وأما الصناعات فلقلّة الماهر الحاذق فيها وعلى الجملة فالصنائع شاغلة لاصحابها عن الدّعة والراحة والرفاهية ويطرقها الكساد كثيرا ونفاقها لا جدوى له ولا يحظى صاحبه بطائل واصحاب الصنائع باذلون رقهم وعبوديتهم بأقل قليل للفقير والغنى والمسلم والذمي فهم بمراحلَ عن الشهامة وعلوّ الهمة والانفة — ثم جهات المعاش الثلاثة مفتقرة الى التعاون والتناصح وقد انقطعا من كافة البشر او عامتهم لاتساع موجبات التباغض والتماقت لكثرة مقتضيات التحاسد والحيلولة كلّ واحد الآخرَ عن مراده الناشئة من الكبْر والعُجْب والعداوة وخوف الازدحام على مطلوب واحد. ولفوات بعض المقاصد بكثرة الشركاء وحب المباهاة والانفراد بالمجد وخُبْث النفس وفساد

جوهرها ونقص انسانيتها — وايضاً يقال على وجوه المعاش الثلاث انه كلما تجدد للانسان دخل جدّد له صرفاً إما للمباهاة والترفع على امثاله أو افراطاً فى الشهوات وانهما كا فى اللذات أو خوفاً من سوء القـالة والاحدوثة بتنقيص ما يقتضيـه حاله او باكراه مبغض لتلك النعمة عليه أو لان الحالات المتجددة فى دخله يلزمها تجدد امور فى صرفه فلا يزال الشخص مفلوكا مهملا غير قادر على المكارم — وايضاً فوجوه المجد والسيادة الكسبية لاتصـير دفعة وانما تكون بالتدريج والترقي ومكابدة تنميتها ومعالجة زوال موانعها مع كثرة الصادّين عنها والعوارض العائقة لها أمر عسير بطئ السير فيقضى الانسان شطر عمره أو معظمه فى فلاكة وادبار — هذا حكم وجوه المعاش الطبيعى وأما غير الطبيعى كالاسترزاق بالكيمياء والتنجيم والدلالة وقلم الشهادة لغير المعروف وسائر الارزاق الهوائيـة الخطفية الصدفيـة فهى ارسخ قدماً فى الفلاكة والادبار لانها بمنزلة اللقطة والعثور على دفائن الارض لعدم انتظامها ووفاء محصولها لخولها فاصحابه لا سيما غير المشهور منهم أئمة الفلاكة وهيولاها (53) وينابيعها ومأواها اعاذنا الله من ذلك ومن الاختلاط بأهله آمين — وأما الامارة فلا ينكر أن مباديها مشتملة على نصيب وافر من الفلاكة والادبار وبيانه ان الامرة لا تتم الا بالعصبيـة والتغلب والشوكة وفى قمع المعاند والجاحد وتأليف القلوب المتفرقة وتمهيد المسالك والقيام بحقوق لاتحصى كثرةَ معاناةِ شدائدَ ومكابدةِ مكائد ومشاق وتعريض النفس للهلاك وكبراء الجند مستعبَدون مع عليكهم مشغولون به عن أنفسهم مقدِّمون لمراده على مرادهم ولو سُلِّم ان السلطنة خالية من الفلاكة فهى من القسم النادر **والدعوى ان الفلاكة غالبة على نوع الانسان لا انها لازمة لكل نوع الانسان** — هـذا كله من المكتسب. **أما الموروث** فيطرقه أنواع من الفلاكة منها امتداد أيدى الولاة والحكام اليه — ومنها مذلة اليتيم وخضوعه وفقده نصيحة أبيه — ومنها سهولة صرف ماله عليه لعدم تحمله مشاق جمعه وتجشمه نَصَب الحبائل فى تحصيله فيسرع فيه بالسَّرَف والتبذير والسفه لعدم حنكته وبصره بعواقب الأمور ويعود يتكفف الناس — ومنها عجزه لعدم مهارته ودربته عن الوفاء بمقاصد ماله والقيام بشروط تنميته وتثميره فيذوب قليلا قليلا الى ان يضمحل ويتلاشى ولايحصل

منه الا على الملامة والتعيير والندم — ومنها انكار المنكرين كونه فى رتبة مورِّثه ومستحقاً لما كان يعاون به مورثه و يساعد عليه فلا يؤمِّنون على دعائه ولا يساعفونه على قصده ولا يسيرون معه سيرة مورِّثه فيقع من ذلك فى العناء العظيم والداء العقيم **وبهذا التقرير يعلم ان الفلاكة غالبة على نوع الانسان وارثًا كان أو كاسبًا والله أعلم .**

—﴿ الفصل الثامن ﴾—

(فى ان الفلاكه المالية تستلزم الفلاكة الحالية)

هذا الذى قدمناه فى الفصل قبله لما كان لا ينتهض دليلاً الا على غلبة الفلاكة المالية على نوع الانسان احتجنا ان نذكر فى هذا الفصل أن ذلك مستلزم للفلاكة الحالية **وأعنى بالفلاكة الحالية تعذر المقاصد وانسدادها بحيث تصير الفلاكة حالا ووصفًا ذاتيًا للشخص فى افعاله واقواله دفعًا وتحصيلا حكما وتعليلا** — والدليل على ذلك ان تقول هذا مفلوك مالا وكل مفلوك مالا فهو مفلوك حالا ينتج هذا مفلوك حالا وكلية الكبرى بديهى أو حسى والصغرى مسلمة بالفرض أو محسوسة أو تقول دارت الفلاكة الحالية مع الفلاكة المالية وجوداً وعدمًا والدوران آية كون المدار علة فى الدائر والمعلول لا يفارق علته فهو اما مقارن أو متعقب على اختلاف المذهبين وهذا وان كان بديعاً وهو الاستدلال بالدوران على العلية و بالعلية على مقارنة المعلول اياها فليس بعيداً من القواعد أو يستدل بالدوران على الملازمة و بالجملة فالدعوى تكاد تكون بديهية والحس والاستقراء يصدق ذلك — ويوضح ذلك ان المال عبارة عن ملك الاعيان والمنافع والجاه عبارة عن ملك القلوب واستسخار اصحابها فى الاغراض والاعمال لما فيها لذى الجاه من اعتقاد الكمال والالتفات اليه **والمفلوك لا جاه له ولا مال وكل من لا جاه له ولا مال له فهو مسلوب القدرة لما ان الجاه والمال من أعظم أسباب القدرة** أو هما أسباب القدرة ومن لا قدرة له فهو عاجز عن الوصول الى مطلوباته لما ان مقدوراً بلا قدرة محال ولذلك لا يحصل مقصود لمفلوك نادرا الا بقدرة غيره من ذوى المال والجاه. ولذلك أيضًا لو فرض شخص لا مال له ولا حرفة لم يكن الا شحاذاً مُكديًا لان ما فى أيدى الناس انما هو ثمرة أموالهم ومنافعهم — وأيضًا من لا قدرة له لا يتعلق الرجاء والخوف به ومشايعة الناس الشخص ومساعدتهم

اياه على مراده دفعاً وتحصيلا وتسليمهم له حكما وتعليلا لا بد لهـا من داعية وغرض ليترجح احد الجائزين من الفعل والترك على الآخر بمرجح. وأعظم الاغراض والدواعي تعلق الرجاء والخوف بالشخص لما ان الانسان يقدر هجوم الحاجات وطروق الآفات وسوء الظن بالعواقب كامن فى النفوس لا سيا فى البلد الذى لا يكمل عدله ولا يتراحم أهله ولذلك لا تمل الاستزادة من الدنيا قال صلى الله عليه وسلم « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً » وقال صلى الله عليه وسـلم « منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال » وذلك لان هذه المخاوف لا موقف لها ولا لها قدر مخصوص فمن تعلق رجاؤه أو خوفه بشخص كانت مساعدته له لامر يتعلق بنفسه بالآخرة وكان دافعاً لألم خوفه وساعياً فى تحقيق رجائه والشخص أنصح ما يكون لنفسه لأن نصحه لهـا طبيعي فلذلك تُساعف الناسُ الاغنياءَ بمراداتهم وتتزلف الخلق اليهم بمطالبهم و يُسعفونهم بمنافعهم تسليفاً وادخاراً لخوف مترقَّب أو رجاء متوهَّم وان لم ينالوا من مالهم ذرة ولا من جاههم مثقال خردلة واذن كانت المفاليك عن الرجاء والخوف بمعزل — وأيضاً فالدنيا محل الازدحام والتوارد على محل واحد بخلاف الآخرة ولذلك لا حسد فى الآخرة لاتساعها ووفائها بالكل بلا ازدحام فما من مقصد يرومه المفلوك الا وله فيه مُزاحم ومدافع يمانعه عنه وتقديمه على غيره ترجيح للمرجوح على الراجح وهو خـلاف صريح العقل و يلزم من ذلك تعذر المقاصد على المفاليك واخفاق مساعيهم فيها — وأيضاً فالاغنياء وذوو الجاه يتقارضون المقاصد تقارضاً و يقترضونها اقـتراضاً والتقارض يستدعى القدرة على الوفاء بالنوبة بحكم المقارضة لانه أمر على التعاقب والنوبة والقرض لا يوضع عند المعسرين والمفاليك ليسوا من أهل المقارضة ولا الاقتراض عـلى ان استلزام الفلاكة المالية للفلاكة الحالية كفلق الصبح عند المنصفين ولعل جحده مكابرة والقاعدة ان المكابرة لا يطلب لها دليل والله أعلم

الفصل التاسع

(فى ان التملق والخضوع و بسط أعذار الناس والمبالغة في الاعتذار اليهم واظهار حبهم ومناصحتهم من أحسن احوال المفلوكين وأليق الصفات بهم وأفضاها الى مقاصدهم و بيان الدليل على ذلك)

اعلم أن الناس لا يبذلون منافعهم وأموالهم سدى بغير غرض ولا علة لان المتعالى عن وجوب تعليل أفعاله بالاغراض والمصالح انما هو الله تعالى وان خالفت المعتزلة فى ذلك فلابد للاحسان أعم من أن يكون نفعاً او مالا قولا او فعلا من غرض وحظ هو عند الباذل أوْفَي مما بذله وتحصيله عنده أحب اليه من ذلك المبذول فكما ان الشخص لا يلقى ماله فى البحر إذ لا غرض له فيه كذلك لا يضع ماله في يد إنسان ولا غرض له فيه وذلك الغرض إما آجل وهو جزيل الثواب فى الآخرة قال صلى الله عليه وسلم «ايما امرئ اشتهي شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر الله له » وإما عاجل فى الدنيا وهو اما ترقب المكافأة بإحسان مثله نوعاً أو جنساً أو المنة والترفع أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب القلوب الى طاعته ومحبته واستسخارهم او ازالة مذمة البخل وخبثه والنفرة الحاصلة للبخلاء واستقباحهم عنه أو ازاحة حب الدنيا الذى هو رأس كل خطيئة عن قلبه أو ازاحة رقة الجنسية ورحمة النوعية عن قلبه ودفع الألم الحاصل له من الرقة بسبب سوء حال من يحسن إليه أو دفع ألم خوف حاضر أو مترقب. والاستقراء يدل على الحصر . ثم ان بعض هذه الاغراض أقوى من بعض و بعضها أدوم وأشد بياناً من بعض فالاحسان بالوارد الاخروى قليل الثبوت والاستمرار الا من وفقه الله تعالى وأيضاً فأعمال الخير تتقارض وينوب بعضها عن بعض والاعمال البدنية أسهل على النفوس فى تحصيل مطلوب الآخرة من الاعمال المالية و بتقدير ثبوتها فانما يثبت جنسها وأما انحصارها فى مفلوك بعينه فأقل ثبوتا بل لو قيل بعدم ثبوتها فى مفلوك بعينه البتة لم يكن بعيداً فلا يفيد المفلوك التعويل عليها . واما حب المنة والترفع فليس شاملا لعامة الخلق ولا لمعظمهم لان النفوس المستشرفة للمكارم والمعالى تأباه وتنفرعنه وانما

ذلك غالباً ممن يصدر عنه الاحسان تكرماً وتطبعاً وتكلفاً لا طبعاً فهو من فساد جوهر الانسانية.وقولنا لا يكون غالباً لان الكلام فيمن يصدر منه الاحسان لا فى مطلق الانسان فلا يجمل بالمفلوك جعله رأس ماله لانه حينئذ يكون قد رضى بأقل الناس عدداً وأفسدهم جوهراً . وأما حب الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم فذلك يقتضى وضع المكارم فى الناس على البدل والنوبة وتعميم العطاء للنظير والاعلى والادنى ويكتفى من الواحد بالشخص بالمرة والمرتين والثلاثة لان الغرض اقامة الحجة وبسط المعذرة فلا يحسن أيضاً بمفلوك التعلق بمحسن هذا غرضه لانه ماذا عسى أن يحصل من المرة والمرتين ولان العطاء العام قد لا يصادفه لان الاستدلال بالاعم على الاخص ممتنع . وأما جذب القلوب الى الطاعة والمحبة والاستسخار فهو أيضاً مما لا يوصل مفلوكا الى غاية ولا الى مطلب يؤبه له وقصاراه ان يوصله الى مبادئ الخير لان الغرض اقامة الحجة عليه واستعباده وذلك يحصل بأدنى مرتبة يمكن استعباد مثله بها. وأما ازالة مذمة البخل ووضره ونفرته فلا يختص بافاضة الاحسان على المفاليك بل قد يحصل بتنعيم النفس واظهار بزتها وزينتها وبالبسط على العيال وضيافة النظير او المساوى فى المنزلة . وأما ازاحة رقة الجنسية فتستدعى حالا غير مرضية تُستنزَل بها الرحمة زيادة على الفلاكة اذ الفلاكة الدائمة تعتاد وتؤلف فيضعف كونها طريقاً للرحمة وتلك الحال الزائدة تربو على الاحسان مرارها اضعافاً مضاعفة ثم ان رقة الجنسية من أمور الآخرة وفيه من البحث ما تقدم ولذلك كانت ازالة حب الدنيا عن القلب من أمور الآخرة وفيه من البحث ما تقدم — واذن تقرر ان الناس لا يبذلون منافعهم واموالهم بغير غرض بل لا بد لهم من غرض اما عاجل او آجل والمفلوك تمنعه الفلاكة عن المكافأة على الاحسان باحسان مثله وتمنعه أيضاً من الاخافة والأمور التى مرجعها الآخرة لا تبقى ويكتفى ببعض اعمال الخير البدنية عنها وغيرها لا يخص مفلوكا بعينه ولا يوصله الى غاية يؤبه لها ثم ان ما سوى رقة الجنسية أمور راجعة الى الباذل وحده فلا بد فى المفلوك من تحريك بواعث الناس بأمر يرجع نفعه اليهم ويكون وصفاً للمفلوك نفسه ويدخل تحت قدرته دائماً لتبقى داعيةُ الانسان متحركة دائما لا تسكن

لقدرة المفلوك على تحر بكها كل وقت — فبخضوعه وتملقه تظهر سيادتهم وعزهم ويؤمن كِبْر المفلوك عليهم وتيهه وصلفه بإسعافهم بمراده ويبسط اعذارهم بأمنون حقده فيعاودون الاحسان اليه وان سلفوه اساءة وأذى لان الاساءة طبيعية للبشر للقوة الغضبية ولما ان فى القلب ميلا للأخلاق السبعية ولان في النفوس محاكاة في الشر ولان دخول الشر تحت القدرة اكثر من دخول الخير كالصداقة والعداوة والبناء والهدم والمفلوك مظنة للاساءة اليه لوجود المقتضى وانتفاء المانع فلا بد ان تعمل الطبيعة فيه عملها ولا دواء لهذا الداء الا بسط الاعذار قال ابو الجوائز الواسطى:

دعْ الناسَ طرّاً واصرف الودَّ عنهمُ * اذا كنتَ في أخلاقهم لا تسامح
فشيئان معدومان فى الأرض: درهمٌ * حلالٌ، وخِلّ فى الحقيقة ناصح

وقال بشار بن برد:

إذا أنتَ لم تشربْ مراراً على القذَى * ظمِئتَ وأى الناس تصفو مشاربُهْ

و بالمبالغة فى الاعتذار اليهم يُتجاوز عن تقصيره وقصوره وعجزه اللوازم للفلاكة لان للاغنياء شوافع من غناهم عن ذنوبهم قد تغنيهم عن الاعتذار بخلاف المفاليك و باظهار حبهم ومناصحتهم يجدون فيه روحاً ونفعاً راجعاً اليهم فيكون اسعافهم له بمراده من لوازم سيادتهم وراجع بالآخرة اليهم ولكون هذه الامور اكثر افضاء بالمفاليك الى مقاصدهم تجد الاسافل ترتفع على الاعالى كثيراً لان نفوس الادنياء لا تأنف من الخضوع والتملق بخلاف الاعالى وقلما تخلو دولة من ذلك والسبب فيه ان الدولة اذا انقرضت وجاءت دولة اخرى فأصحاب الدولة الاولى يكونون فى نهاية سعادتهم ففيهم شمم وأنفة ومطالبة لصاحب الدولة الجديدة بحقوق لم يعطوه عليها ثمناً بل هى مما أوجبها خدمتهم فى الدولة الاولى والوقت سيف والحكم للوقت ولصاحب الدولة الجديدة نصحاء ومتملقون وان سفلت بهم المرتبة وسياسة الملك تقتضى تقديم من في تقديمه نظامه وأبهته لا جرم ترتفع الاسافل على الاعالي كثيراً — اللهم لا خير الا خيرك ولا طير الا طيرك يا خالق الاسباب والمسببات والدواعى والبواعث والعزمات لا تجعل الدنيا اكبر همنا ولا مبلغ علمنا وأشهدنا عظيم رحمتك حتى لا نرجو أحداً سواك وتجل علينا ببالغ قدرتك حتى

لا نخاف احداً غيرك اللهم انك تعلم ان الخضوع لغيرك والتملق لسواك فوق صبرى وقاطع لظهرى لا يبلغه وسعي و يضيق عنه ذرعى فاغننى بك عما سواك يا رب العالمين آمين آمين

الفصل العاشر

(فى تراجم العلماء الذين تقلصت عنهم دنياهم ولم يحظوا منها بطائل)

وأقدم قبل الشروع فى ذلك مقدمة — قال القاضى عياض فى أخرويات الشفاء ما ملخصه ان من استشهد بأحوال الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم فى الدنيا على طريق ضرب المثل والحجة لنفسه أو على التشبه بهم عند هضمة نالته أو غضاضة لحقته ليس على طريق التأسى والتحقيق بل على مقصد الترفيع لنفسه أو الهزل أو اعلاء فى وصف كقول القائل ان كذبت فقد كذب الانبياء أو صبرت فقد صبر أولو العزم وكقول القائل

فرّ من الخلد فاستجار بنا ✿ فصبر الله قلب رضوان

فحقه إن دُرِئَ عنه القتل الادبُ والسّجن وقوة تعزيره بحسب شنعة مقاله ومألوف عادته وقرينة كلامه أو خلاف ذلك لان كلامه وان لم يتضمن سباً ولا غضاً فما وقر النبوة ولا أعطاها حقها — وقال ايضاً في ايراده حكاية ما ملخصه ان حكاية الاقوال الغير السديدة تدور بين الوجوب والاستحباب والمنع فقد أجمع السلف والخلف من أئمة الهدى على حكايات مقالات الكفرة والملحدين فى كتبهم ومجالسهم ليبينوها للناس وينقضوا شبهها عليهم وحكي الله مقالات المفترين فى كتابه على وجه الانكار والوعيد عليها وكذلك الحكاية على وجه الشهادة والتعريف بقائله والانكار والاعلام بقوله والتنفير عنه والتجريح له فهذا دائر بين الوجوب والندب وأما حكاية سبه صلى الله عليه وسلم والازراء بمنصبه على وجه الحكايات والاسمار ومضاحك المجان ونوادر السخفاء فكل ذلك ممنوع و بعضه أشد فى المنع فما كان عن غير قصد أو غير عادة ولم يكن من البشاعة حيث هو ولم يظهر استحسانه زجر ونهى عن العود اليه وان قوّم ببعض الادب

فهو مستوجب له وان اتهم انه اختلقه أو كانت تلك عادة له أو أظهر استحسانه لذلك أو كان مولعاً بالتحفظ لمثله قتل ــ ثم قال وقد أسقطوا من أحاديث المغازى والسير ماهذا سبيله وتركوا روايته الا أشياء يسيرة ذكروها غير مستبشعة ليروا نقمة الله من قائلها وأخذه المفترى عليه بذنبه انتهى ملخصاً لخرج من كلامه ان ذكر الاحوال المدخولة حكاية كان او استشهاداً والانكار والتعريف والرد وتبيين ما لله فى ذلك الفعل من الحكمة في الحكاية ــ وانما قدمت هذه المقدمة لانا سنذكر تراجم العلماء الذين زوى الله عنهم الدنيا في مساق الفلاكة فقد يقول من شم طرفاً من الفقه ان ذكر العلماء فى مساق الفلاكة غض من قدر العلم وتهاون بحرمته ــ والجواب عن هذا التوهم أما أولا فما قاله القاضى على ما قررناه فى كلامه على ان ما قاله القاضى عياض رحمه الله من التفصيل انما هو فى الله تعالى وملائكته وانبيائه ــ وأما ثانياً فلا نسلم مجيء مثل هذا التفصيل في الحكاية عن العلماء ولو سلم مجيئه في العلماء فلا نسلم مجيئه فى التراجم لان أوصاف الكمال وأوصاف غير الكمال كل واحد منهما يشعر وصفه ونسبته الى الشخص بانتقال لآخر عنه ورفعه فلو اقتصر فى التراجم على احدهما لكان تلبيساً وتدليساً واغراء وحملاً على الجهل وهذا ان لم يعين أو يرجح ذكر الترجمة بطرفيها فلا أقل من ان يقتضي عدم المنع من ذكرها بطرفيها ــ وقد يقال لا حاجة بنا الي هذا البحث لان لفظ الفلاكة والمفلوك مجتنب في هذا الفصل الا نادراً وانما نذكر فيه تراجم العلماء ناقلين لها من المصنفات المعتمدة من غير اطلاق لفلاكة او مفلوك على احد والعهدة فى المنقول على المؤرخين والعذر فى اتباعهم في نقله انه لم تزل العلماء والمؤرخون يذكرون ذلك املاء وتصنيفاً شائعاً ذائعاً من غير نكير فكان اجماعاً من السلف على جوازه وقد تقدم كلام القاضي في جواز الحكاية على جهة التعريف او التنفير وتقدم ايضاً ما قلناه على سبيل البحث من ان فى ذكره أمناً من التدليس والتجهيل ــ وأما الاعتذار عن ايراد الفلاكة والمفلوك على الندور فهو أنا نقول الفلاكة وان اشعرت بتنقيص الا انا نذكرها فى هذا الفصل معراة عن معنى التنقيص والكلمات كثيراً ما تكون حاملة لمعنيين فتعرى من احدهما مجازاً وهذا فى الكشاف فى مواضع فمنه ما ذكر فى سورة الاعراف ان واو

الحال هى واو العطف استعيرت لمجرد الوصل وعلى الجملة فاستعمال الكل في الجزء مجاز شائع — أو تقول المراد بالفلاكة المذكورة في هذا الفصل وقوع ما الاولى خلافه واللغة اصطلاحية على قول والالفاظ التي يدور عليها معنى في تصنيف كالخبن والطى في العروض اصطلاحية اتفاقاً فقد سقط بهذا التقرير اعتراض من يدلع لسانه كالكاب مجادلا بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ـ اللهم عياذاً بك ممن قصر في العلم والدين باعه وطال فى الجهل وأذى عبادك ذراعه فقد اتخذ بطر الحق وغمص الناس سلماً الى ما يحبه ويرضاه ولا يعرف من المعروف ولا ينكر من المنكر الا ما يشتهيه ويأباه ولياذاً بك ممن جعل الملامة بضاعته والعذل نصيحته يجمل عداوته وأذاه حذاراً واشفاقاً وتنفيره وتخذيله اسعافاً وارفاقاً متى برّز على الجهال بأصغر به ظن انه قد زاحم العلماء بركبتيه — اذا تقرر ذلك فاعلم ان الفلاكة على ضربين أحدهما فلاكة مالية ونعنى بها كون الشخص غير محظوظ فى أمور الدنيا المالية على ما قررناه فى الفصل الاول أو وقوع ما الأولى خلافه فى الامور المالية على ما قررناه فى هذا الفصل — والثانى فلاكة معنوية ونعنى بها الاوصاف المخالفة لمحاسن الطبيعة أو لمحاسن الشريعة من الافعال المحرمة أو الافعال المكروهة والاخلاق القبيحة المذمومة — واذا عرفت انقسام الفلاكة الى هذين القسمين مالية ومعنوية اتضح لك مناسبة التراجم الآتية في هذا الفصل لمقصود الفصل — وهذا حين الشروع . وانا ننقل فيها الفاظ المترجمين بحروفها من غير تصرف فيها لتكون العهدة عليهم فى ذلك والله المستعان

« القاضي عبد الوهاب »

ابن على بن نصر المالكي كان بقية الناس . ولسان أصحاب القياس . ونبَتْ به بغداد على عادة البلاد بذوى فضلها وعلى حكم الايام فى مُحبّاً فعلها فخرج وخلع أهلها وودع ماءها وظلها فلما فصل عنها شيعه من اكابرها وأصحاب محابرها جملة موفورة وطائفة كثيرة فقال لهم لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين فى كل غداة ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنية وفى ذلك يقول

سلام على بغداد فى كل موطن ✿ وحق لها منى سلام مضاعف

فوالله ما فارقتها عن قلى لها * واني بشطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت عليّ بأسرها * ولم تكن الارزاق فيها تساعف
وكانت كخل كنت اهوى دنوّه * وأخلاقه تنأي به وتخالف

ثم توجه الى مصر فحمل لواءها وملأ ارضها وسماءها وتناهت اليه الغرائب وانثالت عليه الرغائب فمات في اول ما وصلها من اكلة اشتهاها فاكلها زعموا انه قال وهو يتقلب ونفسه تتصعد لا اله الا الله لما عشنا متنا توفي سنة ٤٢٢

« ابن مالك »

ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الاندلسى الجياني الملقب جمال الدين صاحب التصانيف المبسوطة والمختصرة والنظم والنثر شيخ النحاة فى عصره والامام فى اللغة كان كثير الاشغال والاشتغال حتى انه حفظ فى اليوم الذى مات فيه خمسة شواهد قال شارح التنبيه الشيخ ابو جعفر رفيق الأعمى نزيل حلب في ترجمته اول الشرح خرج من الدنيا ولم يتعلق باعراضها ولا قرطس سهمه فى اغراضها — قلت لقد أحسن الشيخ ابو جعفر رحمه الله العبارة عن الفلاكة فان قوله خرج من الدنيا الى آخره هو والفلاكة عبارتان عن معنى واحد توفى رحمه الله سنة ٦٧٢

« النضر بن شميل »

الشاعر التميمى المازني النحوي البصرى عالم بفنون من العلم صاحب غريب الحديث والشعر وهو من أصحاب الخليل خرج النضر يريد خراسان لما ضاقت عليه البصرة بالمعيشة فتسيعه من اهل البصرة نحو ثلاثة آلاف رجل ما فيهم الا محدث او لغوى أو عروضى او اخبارى فقال يا اهل البصرة يعز عليّ فراقكم ولو وجدت كيلجة باقلى ما فارقتكم فلم يكن فيهم احد يتكلف ذلك ودخل على المأمون فى ثوب مرقوع فقال له يا نضر ما هذا التقشف فقال شيخ ضعيف وحر شديد فأتبرد بهذه الخلقان قال لا ولكنك قشِفٌ ثم تجاذبا الاحاديث الى ان ادى بهما الحديث الي السّداد بمعنى البلغة وسدّ الثلمة فأورده المأمون بفتح السين فرده النضر عليه و بين له ان المفتوح انما هو

القصد لا البالغة فأمر له عند انصرافه بخمسين الف درهم يقبضها من الفضل بن سهل فصرفها له ثمانين الف درهم عند وقوفه على سبب الصرف وتوفي بمرو سنة ٢٠٤

« الاخفش الصغير »

هو علي بن سليمان النحوي كان اماماً في اللغة والادب وهو غير الاخفش الكبير لانه أبو الخطاب عبد الحميد والاخفش الاوسط لانه سعيد بن مسعدة أبو سعيد كان الاخفش الصغير يلازم المقام عند أبي علي بن مقلة وأبو علي يراعيه ويبره فشكا اليه في بعض الايام ما هو فيه من شدة الفاقة وزيادة الاضاقة وسأله أن يعلم الوزير أبا الحسن علي بن عيسى ويسأله له اقرار رزق من جملة من يرتزق من أمثاله ففعل فانتهره الوزير انتهاراً شديداً وكان ذلك في مجلس حافل فشق على ابن مقلة ذلك ثم وقف الاخفش على صورة الحال فاغتم لها وانتهت به الحال الى أن أكل السلجم النيّء فقيل انه قبض على فؤاده فمات منه فجأة سنة ٣١٥

« التَّلَّعْفَرِي »

محمد بن يوسف بن مسعود الاديب البارع شهاب الدين أبو عبد الله التلعفري الشاعر المشهور اشتهر ذكره وشاع شعره وكان خليعاً معاشراً وامتحن بالقمار وكلما أعطاه الملك الاشرف شيئاً يقامر به فطرده الى حلب فمدح بها صاحبها العزيز فأحسن اليه وقرر له رسوماً فسلك معه مسلك الملك الاشرف فنادي في حلب أن من قامر مع الشهاب قطعنا يده فامتنع الناس من اللعب معه فضاقت عليه الارض وترك الخدمة وجاء الى دمشق ولم يزل يستجدي بها ويقامر حتى بقي في اتون (١) من الفقر ثم نادم في الآخر صاحب حماه وبها مات سنة خمس وسبعين وستمائة

« الترمذي »

محمد بن أحمد بن نصر أبو جعفر الترمذي الشافعي لم يكن للشافعية في وقته أرأس منه ولا أورع وكان من التقلل على حال عظيم أخبر انه تقوت في سبعة عشر يوماً

---

(١) الاتون بفتح الهمزة وتشديد التاء المضمومة وقد تخفف اخدود الجيار والجصاص ونحوهما اه

بخمس حبات أو قال ثلاث حبات قيل له كيف عملت قال لم يكن عندى غيرها فاشتريت بها لفتاً فكنت آكل منه كل يوم واحدة توفى سنة خمس وتسعين ومائتين وقد اختلط فى آخر عمره

« يحيي بن علي »

ابن محمد بن الحسن بن بسطام أبو زكريا الخطيب التبريزى الشيبانى امام اللغة والنحو تخرج عليه خلق كثير شرح الحماسة والمتنبي والمعلقات وغير ذلك وكانت حصلت له نسخة من التهذيب فى اللغة للازهرى فى عدة مجلدات لطاف وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن عالم باللغة فدل على أبي العلاء المعرّى فجعل الكتاب فى مخلاة وحملها على كتفه من تبريز الي المعرة ولم يكن له ما يستاجر به مركوباً فنفذ العرق من ظهره اليها فأثرفيها البلل وهى ببعض الوقوف ببغداد واذا رآها من لايعرف صورة الحال فيها ظن انها غريقة وليس بها سوى عرق الخطيب ومن شعره

فمن يسأم من الاسفار يوماً * فاني قد سئمت من المقام
أقمنا بالعراق على رجال * لئام ينتمون الى لئام

توفي فجأة في جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسمائة

« الأبيوردي »

أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الابيوردى اشتغل فى الفقه على أبي حامد وبرع فيه قال الخطيب فى تاريخه كان شاعراً فصيحاً حسن الاعتقاد متجملاً فى فاقة يقال انه مكث سنتين لا يقدر على جبة يلبسها فى الشتاء ويقول لاصحابه بى علة تمنعنى لبس المحشو .توفي فى جمادي الآخرة سنة خمس وعشرين وأربعمائة — قلت ما أحسن قوله بي علة تمنعني لبس المحشو فانه من الايهام والتورية والعلة هى علة الفلاكة شفانا الله منها

« الشنتريني »

عبد الله بن صارة أو سارة الشاعر المشهور كان شاعراً ناثرا ناظماً ماهرا الا انه كان

قليل الحظ ومن الحرمان لم يسعه مكان ولا اشتمل على سلطان كان يبيع المحقرات و بعد جهد ارتقى الى كتابة بعض الولاة فلما كان من خلّع الملوك ما كان أتى الى اشبيلية أسود حالا من الليل وأ كثر انفرادا من سهيل وتبلغ من الوراقة فانتحلها فى كساد سوقها وخلو طريقها وفيها يقول

اما الوراقة فهي أ نكر حرفة * أوراقها وثمارها الحرمان
شبهت صاحبها بحالة ابرة * تكسو العراة وجسمها عريان

توفى سنة ٥١٧

« العز »

حسين بن محمد الشاعر الضرير الاربلى تلميذ أفضل الدين الخلنجى كان الشاعر المذكور بصيراً بالعربية رأساً فى العقليات كلها الا انه كان فيلسوفاً رافضياً تاركاً للصلاة رث الهيئة زرى الشكل قبيح المنظر يصدر منه ما يشعر بفساد العقيدة والانحلال وابتلى مع العمى بطلوعات وقروح وكان قذرا لا يتوقى النجاسات يهين الاكابر اذا حضر مجلسهم ولا يعتنى بهم ومع ذلك كان له هيبة وحرمة . توفى سنة ٦٦٠

« يحيي او محمد او عمر »

ابن حبش الملقب شهاب الدين السهروردي أبو الفتوح المعروف بالشهاب المقتول كان أوحد زمانه فى الفلسفة والحكمة مفرط الذكاء حسن العبارة وله تصانيف منها الهياكل والتلويحات والرقم القدسى فى تفسير القرآن على رأى الاوائل واللمحات فى المنطق ورد الى حلب واجتمع بالملك الظاهر غازى فأعجبه كلامه فمال اليه فكتب أهل حلب الي السلطان صلاح الدين ادرك ولدك والا تلف فكتب السلطان الى الظاهر بابعاده عنه ثم كتب اليه بقتله كان دنىء الهمة زرى الخلقة دنس الثياب وسخ البدن لا يغسل له ثوباً ولا جسما ولا يداً من زهومة ولا يقص ظفرا ولا شعراً وكان القمل يتناثر على وجهه و يسعى على ثيابه. توفى سنة ست وثمانين وخمسمائة

« الحافظ عبد الغنى »

ابن عبد الواحد أبو محمد المقدسي أنزله الشيخ عبد القادر هو ورفيقه الشيخ موفق الدين بمدرسته وما كان يمكن احــدا من النزول فيها لمـا تفرس فيهما من الخـير والصلاح كان امام وقته في الحديث رواية ودراية وصنف الكتب الحسان منها نهاية المرادفى كلام خير العباد نحواً من مئتى جزء — ومحنه كثيرة. منها انه لما دخل أصفهان وقف على كتاب أبي نعيم الحافظ فى معرفة الصحابة فأخذ عليه في مائةوتسعين موضعا فطلبوه من الخجندى ليقتــلوه فاختفى وخرج من أصفهان في ازار — ومنها انه لمـا عاد الى أصفهان دخل الموصل فقرأ كتاب الجرح والتعديل للعقيلي وذكر فيه أباحنيفة وجرحه فثار عليه أصحاب أبى حنيفة وحبسوه ولولا البرهان بن البرق الواعظ خلصه لقتلوه — ومنها لمـا قدم دمشق من الموصل كان يقرأ الحديث بعد صلاة الجمعة بحلقة الحنابلة ويجتمع الناس اليه وحصل له قبول فكان سريع الدمعة فحسده الدماشقة ودخلوا عليه بطريق الناصح الحنبلي فحسنوا له ان يعظ بعد الصلاة تحت النسر فشوش على الحافظ فصار الحافظ يقعد بعد العصر فذكر عقيدته على الكرسي فاتفق محيي الدين بن زكى الدين والخطيب الدولعي وجماعة من الدماشقة وصعدوا الى القلعة وواليها صارم الدين برغش فقالوا هذا قد أضل الناس ويقول بالتشبيه فعقدوا له مجلساً وأحضروه وناظرهم فأخذوا عليــه مواضع وارتفعت الاصوات فقال صارم الدين كل هؤلاء عــلي ضلالة وأنت على الحق قال نعم فأمر الاسارى فنزلوا الى جامع دمشق فكسروا منبر الحافظ وما كان فى حلقة الحنابلة من الدرابزينات ومنعوهم من الصلاة ففاتتهم صــلاة الظهر ثم سافر الحافظ الى مصر ونزل عند الطحانين وصار يقرأ الحديث وكان الملك العزيز في الصيــد فأفتى فقهاء مصر بإباحة دمــه وبعثوا بالفتوى الي العزيز فقال اذا رجعنا أخرجناه فاتفق انه وقع عن فرسه واشتغل بنفسه ومات وجاء الافضل الى مصر ولمـا دخل العادل مصر ومعه وزيره ابن شكر نقل اليه ما نقل الي العزيز فعرف بزهــده وفضله فأكرمه عند الدخول اليه وأقام الحافظ فى مسجد المصنع يذكر الحديث فكتب أهل مصر الي ابن شكر يقولون قد أفسد عقائد الناس ويذكر التجسيم على رؤوس

الاشهاد فكتب الى والى مصر بنفيه الي المغرب فحدث الشيخ تاج الدين الكندي ان الوزير طلبه ليكتب بنفيه وكان الحافظ قد توفى فقال للكاتب اكتب بنفيه الى المغرب ولم يكن علم بموته فقلت ما تحتاجون تنفونه هو قد نفا كم فقال ابن شكر وكيف قلت الساعة أخبرني شخص بموته فوجم ابن شكر ساعة كأنه ندم . وكانت وفاته في الثالث والعشرين من ربيع الاول سنةستمائة

« محمد بن عبد الرزاق »

ابن رزق بن أبي بكر العدل العالم شمس الدين بن محمد المحدث الرسعنى الحنبلى كان من أعيان الشهود تحت الساعات ومن شعره

ولو ان انساناً يبلغ لوعتى ✲ ووجدى وأشجانى الى ذلك الرشا
لاسكنته عينى ولم أرضها له ✲ ولولا لهيب القلب أسكنته الحشا

سافر الى مصر فى شهادة ثم عاد على حمار فسرق حماره وما عليه فى الطريق فرجع الى القاهرة شاكياً فلم يحصل له مقصود فخرج متوجهاً الي دمشق فأتى ليسقى فرسه بالشريعة فغرق ولم يظهر له خبر . توفى سنة ٦٨٩

« الخليل »

ابن أحمد بن عمرو الفراهيدي الازدى كان اماماً في علم النحو وهو الذى استنبط العروض وعنه أخذ سيبويه وغيره كان متقللا من الدنيا صبوراً على العيش الخشن الضيق وكان يقول لا يجاوز همى ما وراء بابى كان له راتب على سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة الازدى وكان والى فارس والاهواز فكتب اليه يستدعيه فكتب الخليل جوابه

ابلغ سليمان انى عنه فى سعة ✲ وفى غنى غير انى لست ذا مال
سخا بنفسي انى لاأرى أحداً ✲ يموت هزلاً ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر لاالضعف ينقصه ✲ ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر فى النفس لا فى المال نعرفه ✲ ومثل ذاك الغنى فى النفس لاالمال

فقطع عنه سليمان الراتب فأنشد بيتين فى ذلك فأعاد راتبه قال تلميذه النضر بن شميل أقام الخليل فى خص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلسين وأصحابه يكتسبون بعلمه الاموال كان اذا قدم عليه سيبويه يقول مرحباً بزائر لا يمل . توفى سنة ١٧٠

« أبو الطيب الطبرى »

طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر أبو الطيب الطبرى شيخ الشافعية أخذ عن أبى حامد الاسفراينى وأبى الحسن الماسرجسى وصنف فى الاصول والجدل وغير ذلك كان له ولاخيه عمامة وقميص اذا لبسهما هذا جلس الآخر في البيت وقد قال فى ذلك القاضى أبو الطيب

قوم اذا غسلوا ثياب جمالهم ٭ لبسوا البيوت الى فراغ الغاسل

بلغ مائة وستين سنة صحيح العقل والفهم والاعضاء يفتى ويقضى ويشتغل . توفى سنة ٤٥٠

« أبو عثمان »

ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ أخذ عنه مالك بن أنس رضى الله عنه قال بكر ابن عبد الله الصنعانى أتينا مالك بن أنس فجعل يحدثنا عن ربيعة الرأى فكنا نستزيده فى حديث ربيعة فقال لنا ذات يوم ما تصنعون بربيعة ها هو نائم فى ذلك الطاق فأتينا ربيعة فأنبهناه وقلنا له أنت ربيعة قال نعم قلنا أنت الذى يحدث عنك مالك بن أنس قال نعم فقلنا كيف حظى مالك بك وأنت لم تحظ بنفسك قال أما علمتم ان مثقالا من دولة خير من حمل علم . توفى سنة ١٣٦

« المازنى »

أبو عثمان بكر بن محمد بن عثمان المازنى البصرى كان امام عصره في النحو والادب وكان في غاية الورع ومما رواه المبرد أن بعض أهل الذمة قصده ليقرأ عليه كتاب سيبويه وبذل له مائة دينار في تدريسه فامتنع ابو عثمان من ذلك فقال له المبرد أترد هذه المنفعة مع فاقتك وشدة اضاقتك فقال ان هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة وكذا كذا آية من كتاب الله ولست أرى ان أمكن ذمياً منها غيرة على كتاب الله

تعالى فاتفق ان غنت جارية بحضور الواثق بقول العرجي

* أظلوم ان مصابكم رجلا *

واختلف من بالحضرة فى رفع رجل ونصبه فأشخصه الواثق لاعراب البيت فلما أعربه أمر له بألف دينار. توفي سنة ٦٤٩ وموضع الاستشهاد قول المبرد أترد هذه المنفعة مع فاقتك وشدة اضاقتك ولا يقال كان زاهداً بدليل قول المترجمين له انه كان شديد الورع لان الورع لا يستلزم الزهد بدليل قبوله الالف الموهوب له لان الفاقة الدائمة يلزمها حوائج مجتمعة ومصارف مؤخرة لا تفي بها الالف ولا ما فوقها والدنانير انما هي دنانير بغداد وهي دراهم في الحقيقة

« السيرافي »

أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافى النحوى شرح كتاب سيبويه وصنف عدة تصانيف كان نزهاً عفيفاً حسن الاخلاق وكان معتزلياً ولم يظهر منه شيء وكان لا يأكل الا من كدب يده ينسخ ويأكل. توفى سنة ٣٦٨

« نجم الدين »

ابن أخي قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان كان فقيهاً فاضلا وولى القضاء ببعض البلاد الشامية وكان مهوساً بالحكمة ويقول عن نفسه أنا حكيم الزمان فانقطع رزقه بهذا السبب ومقت ونسبوه الى انحلال العقيدة فسافر الى الديار المصرية وقعد مع الشهود حتى مات سنة ٧٦٢

« الأنماطي »

اسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن الحافظ البارع تقى الدين أبو الطاهر ابن الانماطي المصرى الشافعي كان اماماً ثقة حافظاً مبرزاً فصيحاً واسع الرواية ناظماً ناثراً بعيد الشبيه معدوم النظير الا انه كان كثير الدعابة مع المرد . مات سنة ٦١٩

« بدر الدين بن مالك »

هو محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك كان نحوياً عارفاً بعلم البيان

والعروض والاصول والمنطق ذكياً الا انه ينسب الى لعب ومعاشرة من لا تليق معاشرته . توفى سنة ٦٨٦

« العفيف التلمساني »

سليمان بن على بن عبد الله الاديب البارع كان حسن العشرة كريم الاخلاق ذا وجاهة وخدم فى عدة جهات من المكس كان يتهم بالخمر والفسق والقيادة كما قاله فى الجزء السابع من دول الاسلام مختصر تاريخ الاسلام لعلى بن خاف بن كامل الغزي الشافعي قال الشيخ قطب الدين رأيت جماعة ينسبونه الى رقة الدين والميل الى مذهب النصيرية وحكى تلميذه البرهان بن الفاشوشة قال رأيت ابنه فى مكان بين ركبدارية وذا يكبس رجليه وذا يبوسه فتألمت لذلك وانقبضت ودخلت الى الشيخ وأنا كذلك فقال مالك فأخبرته بالحال الذي وجدت عليه ابنه محمدا فقال أفرأيته في تلك الحالة منقبضاً حزيناً فقلت سبحان الله كيف يكون ذلك بل كان أسر ما يكون فهوّن الشيخ عليّ وقال لا تحزن انت اذا كان هو مسروراً فعرفت قدر الشيخ وسعيه قال الذهبي هذا هو الشيخ الذي لا يستحي الله من عذابه . توفى سنة ٦٩٠

« الحريرى »

على بن أبي الحسن بن منصور أبو الحسن وأبو محمد مقدم الطائفة الحريرية صاحب الزاوية كان له مكاشفات وكرامات وكان عنده من القيام بواجب الشريعة كما قاله الشيخ شهاب الدين ابو شامة ما لم يقم به أحد من المتشرعين ظاهراً وباطناً ومن اقامة شرائع الحقيقة ما لم يكن عند احد فى عصره من المحافظة على محبة الله وذكره والدعاء اليه والمعرفة به واكثر الناس يغلطون فى امره الظاهر وفى امره الباطن صحب الشيخ أبا على المغربل خادم الشيخ رسلان كان يلبس الطويل والقصير والمدور والمفرح ولابيض والاسود والعمامة والمئزر والقلنسوة وثوب المرأة والمطرز والملون ولما حبس سأله أصحابه ان يسأل ويتشفع فلم يفعل فلما اقام في الحبس اربع سنين زاد سؤالهم فأمرهم ان يكتبوا قصة فيها من الخلق الضعيف الى الراي الشريف ممن هو

ذنب كله الي من هو عفو كله سبب هذه المكاتبة الضعف عن المعاتبة « اصغر خدم الفقراء علي الحريري »

فقير ولكن من صلاح ومن تقى * وشيخ ولكن في الفسوق امام

فسعوا في القصة وارادوا ان تصل الي السلطان فما قرأ احد من الدولة القصة الا ورمي بها فبلغه ذلك فاحتد وقال ما قلت لكم ألم أنهكم عن السعى واقام بالحبس ست سنين وسبعة اشهر كان يعاشر الاحداث و يصحبهم و يقيمون عنده ولم يكن عنده مراقبة ولا مبالاة بل يدخل مع الصبيان الاحداث و يعتمد معهم ما يسمونه تخريباً وكان له قبول عظيم لا سيا عند الاحداث فانه كان اذا وقع نظره على احد من الاحداث مال اليه بحيث لا ينتفع اهله به . توفي سنة ٦٤٥

« القطب الشيرازي »

قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الشيرازى كان امام عصره في المعقولات وفي غاية الذكاء وله التلاميذ الكثيرة والتصانيف المشهورة منها شرح المختصر لابن الحاجب كان كريماً متطوحاً الا انه كان متهاوناً بالدين محباً للخمر ويجاس فى حاق المساخر كما قاله الاسنوى فى طبقاته ومع ذلك كان معظماً عند ملوك التتار فمن دونهم وهو تلميذ النصير الطوسى . توفي سنة ٧١٠

« ابن دريد »

محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الازدى اللغوى البصري امام عصره فى اللغة والادب والشعر الفائق كان يشرب الخمر الى ان جاوز تسعين سنة قال ابن شاهين كنا ندخل على ابن دريد فنستحي مما نري من العيدان المعلقة والشراب مصفى موضوعاً. توفي سنة ٣٢١

« يحيي بن اكثم »

ابن محمد التميمى المروزي احد أعلام الدنيا روى عنه الامام احمد بن حنبل وغيره

وغلب على المأمون حتى لم يتقدمه احد عنده من الناس جميعاً وكانت كتب يحيي في الفقه اجل كتب وتركها الناس لطولها وكان له كتب فى الاصول ايضاً وكان من ادهى الناس واخبرهم بالامور كان اذا رأى فقيهاً سأله عن الحديث اومحدثاً سأله عن النحو او نحوياً سأله عن الكلام فيخجله و يقطعه كان ابن زيدان الكاتب يكتب بين يدى يحيي بن اكتم وكان غلاماً متناهى الجمال فقرص القاضى خده فخجل الغلام واستحيا وطرح القلم من يده فقال له خذ القلم واكتب فأملاه

ايا قمراً خمشته فتغضبا * واصبح لي من تيهه متجنبا

اذا كنت للتخميش والعض كارهاً * فكن ابداً يا سيدي متنقبا

ولا تظهر الاصداغ للناس فتنة * وتجعل منها فوق خديك عقربا

فتقتل مسكيناً وتفتن ناسكا * وتترك قاضى المسلمين معذبا

ولما تواتر النقل عن يحيي الى المأمون فى هذا المعنى اراد امتحانه فأغرى به مملوكاً فى غاية الجمال وذهب الى الخلاء ثم تجسس عليه فسمعه يقول له لولا انتم لكنا مؤمنين فدخل المأمون وهو ينشد بيتى ابن حكيمة راشد بن اسحاق الكاتب

وكنا نرجي ان نرى العدل ظاهرا * فأعقبنا بعد الرجاء قنوط

متى تصلح الدنيا و يصلح اهلها * وقاضى قضاة المسلمين يلوط

ذكر ذلك كله ابن خلكان فى تاريخه وذكره الحصرى فى كتابه الذي سماه زهر الآداب وتحامل عليه فى هذا المعنى بما لا يليق ذكره وذكر ولوع الشعراء به ومما انشده فيه قول الشاعر

يا ليت يحيي لم تلده اكنمه * ولا وطت ارض العراق قدمه

أَلْوَطُ قاضٍ فى الانام نعلمه * أيّ دواة لم يلقها قلمه

وايّ جُحر لم يلجْه أرقمه

توفي سنة ٢٤٢

« محمد »

ابن على بن يوسف بن هود الشيخ الزاهد الكبير بدر الدين ابو على بن هود

المرسي احد الاجلاء فى التصوف ترك الحشمة وتغرب وصحب ابن سبعين واشتغل بالفلسفة والطب وترهات الاتحادية وزهديات التصوف وخلط هذا بهذا كان ذا هيبة وسكون وتلامذة علي رأسه قبعة وعلى جسـده دلق وكان غارقاً فى الفكرة قليـل الصلاة والذكر متواصل الاحزان حمل مرة الى والى البلد وهو سكران أخـذوه من حارة اليهود وكان له مشاركات فى علوم شتى . توفى سنة ٦٩٩ بدمشق

« القاضي الرفيع »

عبد العزيز بن عبد الواحد بن اسماعيل قاضي قضاة دمشق رفيع الدين ابو حامد الشافعى كان فقيهاً فاضلا متكلماً مناظراً متفلسفاً ردىء العقيدة مغتراً ثم ولى قضاء دمشق فى أيام صاحبها الملك الصالح اسماعيـل ووزيره أمين الدولة السامرى فاتفق هو وامين الدولة في الباطن على المسلمين فكانت عنده شهود زور ومدعون زوراً تدعي وتشهد على شخص بألف دينار فيأمره بالصلح قال ابو المظفر ابن الجوزى حـدثنى جماعة من الاعيان انه كان فاسـد العقيدة دهرياً مستهزئاً بامور الشريعة يجيء الي صـلاة الجمعة سكران وان داره كانت مثل الحانة ثم أوقعت الدنيا بينه وبين الوزير فعذره السامرى وسعى به عند السلطان فاعتقل ببعلبك واستأصل ماله ثم نقل الي جبل لبنان وخنق هناك أو دفع من شاهق فوقع فمـات سنة ٦٤٣

« البدر التستري »

بدر الدين محمد بن أسعد التسترى امام وقتـه في الاصلين والمنطق والحكمة وضع تعاليق على البيضاوى والطوالع والمطالع متضمنة لنكت غريبة وان كانت عباراتها قلقة ركيكة وشرح كتب ابن سيناء كان مداوماً عـلى لعب الشطرنج رافضياً كثير الترك للصلاة قال الاسنوى ولهذا لم يكن عليه انوار اهل العلم ولاحسن هيئتهم مع ثروته الزائدة وحسن شكله . توفى بهمذان في نيف وثلاثين وسبعمائة

« أبو عبيدة »

اللغوى النحوى مَعْمَر بن المثنى لم يكن فى الارض خارجي ولا اجماعى اعلم بجميع

العلوم منه وكان الغريب يغلب عليه وأخبار العرب وايامها وكان يكسر الشعر ولا يقيم وزنه واذا قرأ او حدث لحن اعتماداً منه وكان وسخاً الثغ مدخول النسب هجاء يميل الى مذهب الخوارج لا تقبل له شهادة عند احد من الحكام لانه كان يتهم بالميل الى الغلمان قال الاصمعى دخلت انا وأبو عبيدة يوماً المسجد فاذا على الاسطوانة التى يجلس اليها ابو عبيدة

صلى الاله على لوط وشيعته * ابا عبيدة قل بالله آمينا

فقال لى يا اصمعى امح هذا فركبت ظهره ومحوته بعد ان أثقلته فقال أثقلتنى وقطعت ظهرى فقلت لقد بقيت الطاء فقال هى شر حروف البيت وكان الكاتب لها ابا نواس و بعد البيت

فأنت عندى بلا شك بقيتهم * منذ احتلمت وقد جاوزت تسعينا

توفى سنة ٢٠٩

« ابن هانئ »

ابو الحسن محمد بن هانئ الازدى الاندلسى الشاعر المشهور كان متهماً بمذهب الفلاسفة مشتهراً بحب الخمر أضافه شخص ببرقة فأقام عنده في المجلس الانس أيام فيقال انهم عربدوا عليه فقتلوه سنة ٣٦٢

« صاعد »

الربعي اللغوى البغدادى أبو العلاء صاحب كتاب الفصوص كان محسناً فى السؤال حاذقاً فى استخراج الاموال غير انه كان يتهم بالكذب فى نقله فلهذا رفض الناس كتابه ولما ظهر للمنصور كذبه فى النقل وعدم تثبته رمى كتاب الفصوص فى النهر فقال فيه بعض شعراء عصره

قد غاص فى البحر كتاب الفصوص * وهكذا كل ثقيل يغوص

فلما سمعه صاعد انشد

عاد الى عنصره انمــا * تخرج من قعر البحور الفصوص

توفي سنة ٤١٧ بصقلية

« ابن النحاس »

بهاء الدين محمد بن ابراهيم بن محمد الامام العلامة كان من أذكياء بنى آدم وله خبرة بالمنطق واقليدس مشهور بالدين والصدق مع اطراء التكلف والتجمل وصغر العمامة فيه ظرف النحاة وانبساطهم وكان يتحدث فى تعليمه وخطابه بلغة عامة الحلسيين ولا يتقعر فى عبارته وأظنه لم يتزوج . توفي سنة ٦١٨

« أبو الحسن »

على بن صاعد الصدفى المنجم المعروف بابن يونس المصرى المشهور صاحب الزيج الحاكمي المعروف بزيج ابن يونس فى اربع مجلدات كبار كان ابن يونس المذكور أبله مغفلا يعتم على طرطور طويل ويجعل رداءه فوق العمامة وكان طويلا واذا ركب ضحك الناس منه لشهرته وسوء حاله ورثاثة لباسه وكان له مع هـذه الهيئة اصابة بليغة غريبـة فى النجامة لا يشاركه فيها غيره وكان احد الشهود ومتفنناً فى علوم كثيرة دخل مرة على الحاكم العبيدى صاحب مصر ومداسه في يده فقبل الارض وجلس والمداس الى جانبه والحاكم يراها وهو بالقرب منه ولما انصرف قبـل الارض ولبسها وانصرف . توفى سنة ٣٩٩

« التاج المراكشي »

تاج الدين محمد بن ابراهيم بن يوسف المراكشي حصل علوماً عـديدة اكثرها بالسماع لانه كان ضعيف البصر مقاربا للعمى كان ذكياً عجولا محتقراً للناس كثـير الوقيعة فيهم ولهذا عمل عليه قاضى القضاة جـلال الدين القزويني حتي أخرجه من مصر الى دمشق مرسماً عليه. توفى فجأة سنة ٧٥٢

« العلم الاصفوني »

عـلم الدين احمد بن محمد بن عبد العليم المعروف بالاصفونى كان رجلا

فاضلا مشاركا في علوم متعددة مشاركة جيدة لكنه كان شرس الاخلاق مائلا الى الحسد لاتدوم له صحبة مع احد لا سيما من يرى اقبال الناس عليه من اهل العلم. توفي سنة ٧٤٩

« الفخر الفارسى »

الفيرزابادى نزيل مصر الشافعي الصوفى المحقق المحدث له مصنفات كثيرة منها كتاب مطية النقل وعطية العقل والاصول والكلام وغير ذلك كان فاضلا بارعاً فصيحاً بليغاً متكلماً ذا معاملات ورياضات ومقامات الا انه كان بذئ اللسان كثير الوقيعة فى الناس لمن عرف ومن لم يعرف كثير الجراءة لا يفكر فيا يقول وعنده دعابة فى غالب الوقت كذا قاله عمر بن الحاجب وابن بعطة فيا نقله عنهما عماد الدين ابن كثير في طبقاته . توفي سنة ٦٢٢

« الشيخ خضر الكردى »

شيخ الملك الظاهر كاشف السلطان فى أشياء كثيرة أصاب فيها وكان حظياً عنده وله المكانة الرفيعة لديه ينزل السلطان اليه فى كل اسبوع مرة او مرتين وبنى له جامعاً شهد عليه عند السلطان بالزنا واللواط وشرب الخمر وكان السلطان قد قدمت له هدية من صاحب اليمن من جملتها كر نفيس فأعطاه السلطان للشيخ خضر فدفعه لامرأة وزنى بها وأحضروها وأحضروا الكر بين يدى السلطان .توفى سنة ٦٧١

«ابن الخشاب»

أبو محمد عبد الله بن احمد المعروف بابن الخشاب البغدادى العالم المشهور فى الادب والنحو والتفسير والحديث والنسب والفرائض والحساب له فى العلوم اليد الطولى كان فيه(١) بذاذة وقلة اكتراث بالمأكل والملبس زاد الحافظ الذهبى ناقلا له عن ابن النجار وجمال الدين القفطي انه كان بخيلا وسخاً قذراً تبقى عمامته على رأسه حتى تتقطع مما يلى رأسه من الوسخ ويرمي عليها العصافير ذرقها فيتركه على حاله ولم يتزوج

(١) البذاذة سوء الحال وبذالهيئة وبذهارتها اه من القاموس

قط ولا تسرى وكان يستقي بجرة مكسورة ويلعب بالشطرنج حيثما وجده ويقف على المشعبذ واصحاب النرود ويستعير الكتاب فلا يعيده متعللا بضياعه بين كتبه وكان مزاحاً — وساق ابن النجار عنه من ذلك حكايات فمنها انه قرا عليه بعض المعلمين قول العجاج

اطرباً وأنت قنسرى * وانما يأتى الصبا الصبي

فجعله الصبي بالياء فيهما فقال له هـذا عندك في المكتب فاستحى — ومنها انه سأله بعض تلامذته فقال القفا يمد أو يقصر فقال يمد ثم يقصر — ومنها انه سأل بعض تلامذته ما بك فقال فؤادي يوجعني فقال لو لم تهمزه ماوجعك . توفي سنة ٥٦٧

« ابن برى »

ابو محمد عبد الله ابن أبي الوحش بن برى المقدسي الامام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية كان علامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره وله على كتاب الصحاح للجوهري حواش فائقة استدرك فيها عليه مواضع كان عارفاً بكتاب سيبويه وكانت فيه غفلة ولا يتكلف في كلامه ولا يتقيد بالاعراب بل يسترسل فى حديثه كيفما اتفق قال يوماً لبعض تلاميذه اشتر لى هندبا بعروقو فقال له التلميذ هندبا بعروقه فعز عليه كلامه وقال لا تأخذه الا بعروقو وان لم يكن بعروقو فلا آكله ومن غفلته انه كان يدخل الحطب والبيض جميعا فى كمه وعليه الثياب الفاخرة وربما جاء الى البيت فلم يجده مفتوحا فيرمى بالبيض من الطاق الى داخل ويضع العنب بين الحطب فيتفجر وينقط على رجليه فيقول مطر والسماء صاحية . وقريب من حكاية رمي البيض ما نقل عن أبي على الشلوبين انه وقع من يده كراس فى الماء وبقي معه آخر فجره به من الماء فتلفا جميعا . توفي سنة ٥٨٢

« الباجي »

علاء الدين على بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بالباجي الامام فى الاصلين والمنطق الفاضل فيما عداها من أذكياء الناس قريحته لا تكاد تنقطع الا انه كان قليل

المطالعة جداً ولا يكاد احد يراه ناظراً فى كتاب وكذلك نقل عن محمد بن زياد أبي عبد الله بن الاعرابي صاحب اللغة انه كان يحضر مجلسه زهاء مائة نفس كل يسأله أو يقرأ عليه وهو يجيب من غير كتاب قال ابو العباس لزمته بضع عشرة سنة ما رأيت بيده كتاباً قط توفى ابن الاعرابى سنة ٢٢١ وكان الباجي المذكور يجلس فى حوانيت الشهود وناب فى الحكم بالشارع ثم ترك ذلك كله وأعرض عن التكلف فى حاله كله توفي سنة ٧١٤

«الحافظ المزى»

بكسر الميم ابو الحجاج جمال الدين يوسف الحلبى المعروف بالمزي انتهت اليه الرحلة من اقطار الارض كان اماماً فى اللغة والتصريف صنف (تهذيب الكمال في أسماء الرجال) وكتاب الاطراف ودرس بدار الحديث كان منقبضاً عن الناس طارحاً للتكلف فقيراً. توفى سنة ٧٤٢

« أبو جعفر »

احمد بن اسماعيل بن يونس المرادى النحاس المصرى النحوى كان من الفضلاء وله التصانيف المفيدة منها اعراب القرآن والناسخ والمنسوخ وتفسير ابيات سيبويه بما لم يسبق الى مثله وفسر عشرة دواوين واملاها وله كتاب طبقات الشعراء وله شرح الحماسة وله غير ذلك وكان فيه خساسة وتقتير على نفسه واذا وهب عمامة قطعها ثلاث عمائم بخلا وشحاً وكان يلي شراء حوائجه بنفسه ويتحامل فيها على اهل معرفته ومع هذا كان للناس رغبة كثيرة في الاخذ عنه. توفى بمصر سنة ٣٣٨ وكان سبب موته انه جلس على درج المقياس على شاطئ النيل واخذ يقطع العروض من الشعر فقال بعض العوام هذا يسحر النيل حتى لا يزيد فتغلو الاسعار فدفعه برجله فى النيل فلم يوقف له على خبر والنحاس نسبة الى الصفر

« مروان بن أبي حفصة »

الشاعر المشهور المشكور كان يمدح الخلفاء والبرامكة ومعن بن زائدة

وكان يحصل له من الاموال شيء كثير جداً وكان مع ذلك من أبخل الناس لا يكاد يأكل من اللحم من بخله ولا يشعل في بيته سراجاً ولا يلبس من الثياب الاالكرابيس والفرو الغليظ خرج يوماً الى المهدى فقالت امرأة من اهله ان أطلق لك الخليفة شيئاً فاجعل لى منه شيئاً فقال ان اعطانى مائة الف درهم فلك درهم فأعطاه ستين الف درهم فأعطاها اربعة دوانيق . توفى سنة ١٨٢

« محمد بن داود »

ابن على ابو بكر الفقيه ابن الفقيه الظاهرى بن الظاهرى كان عالماً بارعاً أديباً شاعراً فقيهاً ماهراً قال ابن كثير قال ابن الجوزى فى المنتظم وقد ابتلى بحب صبي اسمه محمد بن جامع ويقال محمد بن زخرف ويعشقه ولم يزل ذلك دأبه فيه مع العفاف حتي كان سبب وفاته وقيل عنه انه كان يبيح العشق بشرط العفاف وحكى هو عن نفسه انه لم يزل يتعشق مذ كان فى الكتاب وانه صنف كتاب الزهرة فى ذلك وكان يتناظر هو وأبو العباس بن شريح فقال له ابن شريح يوماً أنت بكتاب الزهرة أمهر منك بهذا فقال له أتعيرنى بكتاب الزهرة وانت لا تحسن تتم قراءته وهو كتاب جمعناه هزلا فاجمع أنت مثله جداً.توفى سنة ٢٩٧

« الحسن بن سفيان »

ابن عامر ابو العباس الشيبانى النسوى محدث خراسان والذى كانت تضرب آباط الابل اليه في معرفة الحديث والفقه.رحل الى الآفاق وتفقه على أبي ثور وأخذ الادب من اصحاب النضر بن شميل اتفق له انه كان هو وجماعة من اصحابه بمصر في رحلتهم لطلب الحديث فضاقت عليهم الحال حتى مكثوا ثلاثة ايام لا يأكلون فيها شيئاً ولا يجدون ما يبيعونه للقوت واضطرهم الحال الى تجشم السؤال وأنفت نفوسهم من ذلك والحاجة تضطرهم فاقترعوا فيا بينهم أيهم يقوم بهذا الامر فوقعت القرعة على الحسن بن سفيان فقام عنهم واختلى فى زاوية المسجد وصلى ودعا فما انصرف من الصلاة حتي دخل شاب حسن الهيئة فقال الامير بن طولون يعتذر اليكم وهذه مائة

دينار لكل واحد منكم فقلنا وما الحامل فقال انه أحب ان يختلي فجاءه فارس بيده رمح في الهواء وقال قم فأدرك الحسن واصحابه فانهم في المسجد الفلاني جياعاً . توفي سنة ٣٠٣

« بشر بن غياث »

ابو عبد الرحمن المرسى المتكلم شيخ المعتزلة واليه تنسب الطائفة المرسية راج عند المأمون وحظي عنده . كان لا يحسن النحو وكان يلحن لحناً فاحشاً كما قاله ابن كثير. توفي في ذي الحجة سنة ٢١٨ وصلى عليه عبيد الشونيزى المحدث فليم في ذلك فقال ألا تسمعون كيف دعوت له في صلاتي قلت اللهم ان عبدك هذا كان ينكر عذاب القبر اللهم فأذقه عذاب القبر وكان ينكر شفاعة نبيك فلا تجعله من اهلها وكان ينكر رؤيتك في الدار الآخرة فاحجب وجهك الكريم عنه وهذا معنى ماقاله بعض السلف من كذب بكرامة لم ينلها قاله ابن كثير

«واصل بن عطاء المعتزلى»

ابو حذيفة المعروف بالغزال لملازمته الغزالين احد الائمة البلغاء المتكلمين وكان يلثغ بالراء فيجعلها غيناً ولكونه قبيح اللثغة في الراء كان يخلص كلامه منهـا ولا يفطن لذلك احد لاقتداره على الكلام وسهولة ألفاظه والى ذلك اشار الشاعر بقوله

وجعلت وصلي الراء لم تنطق به * وقطعتنى حتى كأنك واصل

كان طويل العنق فنظر اليه عمر بن عبيد فقال من قبل ان يكلمه لا يصلح هذا ما دامت عليه هذه العنق . توفي سنة ١٣١

«أبو حاتم الرازى»

محمد بن ادريس بن المنذر ابو حاتم الحنظلى الرازى احد الحفاظ الاثبات العارفين بعلل الحديث والجرح والتعديل وهو قرين ابي زرعة الرازي تغمدهما الله برحمته سمع الكثير وطاف الاقطار والامصار وروى عن خلق من الكبار ، وحدث عنه الربيع ابن سليمان ويونس بن عبد الاعلى وهما اكبر منه . قال لابنه عبد الرحمن يا بني مشيت

على قدمي فى طلب الحديث اكثر من الف فرسخ وذكر أنه لم يكن له شئ ينفق منه في بعض الاحيان وانه مكث ثلاثاً لا يأكل شيئاً حتى استقرض من بعض اصحابه نصف دينار. توفي سنة ٢٧٧

« سيبويه »

ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر البصرى الحجة في النحو والعلم فيه امام النحاة شرح النحاة كتابه فانغمروا في لجج بحره واستخرجوا من جواهره حاصله ولم يبلغوا الى قعره وزعم ثعلب انه لم ينفرد بتصنيفه وقد ساعده جماعة فى تصنيفه كانوا نحواً من اربعين نفساً هو احدهم وهو اصول الخليل بن احمد ونكته فادعاه سيبويه لنفسه هكذا نقله ابن كثير عن ثعلب ونقله فى مرآة الزمان عن ابي عبد الله المرزبانى وتعقبه وقال هذا وهم من المرزبانى لاجماعهم على ان سيبويه هو الذى جمع اوزان العرب وحصرها وقرر اصول الكتاب وفصوله ورتب ابوابه وقال ابن كثير بعد نقله ذلك عن ثعلب وقد استبعده السيرافى فى طبقات النحاة ولما قدم سيبويه بغداد وناظر الكسائي واصحابه فلم يظهر عليهم سأل عمن يرغب من الملوك فى النحو فقيل طلحة بن طاهر فشخص الى خراسان فلما انتهى الى ساوه مرض مرض الموت فتمثل

يؤمل دنيا لتبقى له * فمات المؤمّل قبل الامل
حثيثاً يروّي اصول الفسيل * فعاش الفسيل ومات الرجل

توفي وعمره ثنتان وثلاثون سنة سنة ١٨٠ والفسيل والفسيلة الودىّ وهو صغار النخل والجمع الفسلان قاله الجوهرى

« شريك »

ابن عبد الله بن أبي شريك ابو عبد الله القاضى النخعى الكافى سمع ابا اسحاق السبيعى وغير واحد اكرهه المنصور على القضاء كان مشكوراً فى حكمه وامضائه اياه على الاكابر . ذكر الخطيب بسنده ان عمر بن الهياج قال كنت صاحب شريك

فأتيته يوماً فخرج اليّ في فرو ليس تحته قميص وعليه كساء فقلت له لقد اصبحت عن مجلس الحكم فقال غسلت أمس ثيابي فلم تجف وانا منتظر جفافها اجلس قال فجلست فجعلنا نتذاكر باب العبد يتزوج بغير اذن مولاه وكانت الخيزران قد وجهت رجلا نصرانياً وكتبت الى موسى بن عيسى لا يعصي له امراً فظلم رجلا فتعلق ذلك الرجل بشريك فاقتص له منه بيده ثم عاد يذاكر عمر في العبد تزوج كأن لم يفعل شيئاً وقد ساق الحكاية بطولها فى مرآة الزمان ناقلا لها عن الخطيب . قال فى مرآة الزمان وقد روى عن ابن عون ان شريكا كان يشرب النبيذ المثلث على رأى اهل العراق و بذلك عابوه . توفى سنة ١٧٧

ابن يونس

موسى بن محمد بن منعة المعروف بابن يونس الموصلى الشافعي احد المتبحرين فى العلوم المتنوعة قيل انه كان يتقن اربعة عشر علماً. كان يقرأ عليه الحنفيون كتبهم وكان يقرأ عليه اهل الكتاب التوراة والانجيل فيقرون انهم لم يسمعوا بمثل تفسيره لهاوكان الشيخ تقى الدين بن الصلاح يبالغ فى الثناء عليه فقيل له يوماً من شيخه فقال هذا الرجل خلقه الله عالماً لا يقال على من اشتغل فانه اكبر من هذا قال ابن خلكان وكان يتهم فى دينه لكون العلوم العقلية غالبة عليه . توفى سنة ٦٣٩

وانشد العماد المعرى فى ابن يونس

اجدك ان قد جاد بعد التعبس ... غزال بوصل لى واصبح مؤنسى

وعاطيته صهباء من فيه مزجها ... كرقة شعرى او كدين ابن يونس

قال الموفق عبد اللطيف وكان مستغرق الوقت والعقل فى حب الكيمياء حتى صار يستخف بكل ما عداها

أبو بكر النيسابورى

عبد الله بن محمد بن زياد النيسابورى الحافظ الفقيه الشافعى العلامة المعروف بابى بكر بن زياد قال يوسف القواس سمعت ابا بكر النيسابورى يقول أتعرف من اقام

اربعين سنة لم ينم الليل ويتقوّت كل يوم بخمس حبات، ثم قال أنا هو . توفى سنة ٣٢٢

محمد شمس الدين

أبو عبد الله بن الامام العلامة عفيف الدين التلمسانى الشاعر ابن الشاعر تعاطى الكتابة وولي عمالة الخزانة كان فيه عشرة ولعب وخلاعة كما قاله الغزى فى مختصر تاريخ الاسلام — قال فى الذيل وكان شمس الدين محمد المذكور قد اضافه اولاد المشطوب وطلبوا منه ان يبيت عندهم فقال لهم أعلموا والدي بمبيتي عندكم حتى لا يتشوش خاطره هو والوالدة فبعثوا الى والده الشيخ عفيف الدين ولدهم العماد اسماعيل وهو يومئذ من أحسن الفتيان صورة لإعلام الشيخ عفيف الدين بمبيت ولده عندهم فتكلّف عفيفُ الدين بديها هذين البيتين و بعث بهما صحبة العماد اسماعيل

بعثتموا لي رسولا في رسالته ... حلو المراشف والاعطاف والهيَف

وقُدتما ويسير ذاك إنكما ... أوْقَدْتُما النار فى بادي الضنى دنِف

فرد عليه ولده شمس الدين بديها وكتب على ظهر الرقعة

مولاي كيف اثنى عنك الرسول ولم ... تكن لوردة خديه بمقتطِف

جاءتكَ من بحر ذاك الحسن لؤلؤة ... فكيف ردّت بلاثَقب إلى الصّدف

لما قدم السجاعي دمشق خاف منه شمس الدين لكونه كاتب الخزانة خوفاً عظيما انقطع منه قلبه فمات شاباً سنة ٦٨٨

ابن حزم

أبو محمد على الظاهرى الامام العلامة الحافظ المجتهد كان كثير الوقوع فى العلماء فنفرت عنه القلوب وتألب عليه الفقهاء واتفقوا على بغضه وتضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم عن الدنو منه فأقصته الملوك وشردته عن بلادها حتى انتهى الى بادية فلاة فتوفى بها سنة ٤٥٦

أبو الحسن

على بن بوعت كان شاعرا مجيدا الا انه كان قليل الحظ من الدنيا لم يزل رقيق

الحال ضعيف القدرة الى ان توفى وهو على حاله من الضرورة وشدة الفاقة بمصر سنة٤١٦

ابو حاتم السجستانى

قال التبغاشى وغيره كان افضل اهل زمانه علماً وورعاً و بلغ من فضله انه كان يتصدق كل يوم بدينار ويختم القرآن فى كل اسبوع وكان من اظرف اهل زمانه واطيبهم خلوة واحسنهم مفاكهة الا انه كان مولعاً بالغلمان يذهب فيهم مذهب الاستمتاع بالنظر لافضاء الوطر وذكر ان المبرد ابا العباس كان يحضر حلقته يقرأ عليه وكان المبرد من اجمل اهل زمانه فقال فيه ابوحاتم

وقف الجمال بخده ... فسما به حذو الامام
حركاته وسكونه ... تحيا بها مهج الانام
فاذا خلوت بمثله ... وعزمت فيه على اغترام
لم أعد افعال العفا ... ف وذاك اوكد للغرام
نفسى فداؤك يا ابا ال ... عباس حل بك اعتصام
فارحم اخاك فانه ... نَزْرُ الكرى بادى السقام
وأنله ما دون الحرا ... م فليس يطمع فى الحرام

وقرأت من خط الشيخ شهاب الدين السجستاني ، ابوحاتم السجستاني سهل بن محمد ابن عثمان السجستاني ثم البصرى النحوى المقرى صاحب المصنفات اخذ عن ابى عبيدة وابى زيد الانصارى والاصمعى وغيرهم وحمل الناس القرآن والحديث والعربية وكان جماعاً للكسب وله اليد الطولى فى اللغة والشعر والعروض والمعمى ولم يكن حاذقاً فى النحو وله اعراب القرآن وكتاب ما يلحن فيه العامة والمقصور والممدود وكتاب القسى والنبال والسهام وكتاب الهجاء وكتاب الشتاء والصيف وكتاب النحل والعسل وكان ابو العباس المبرد يلازم حلقته وهو غلام وسيم فى نهاية من الجمال فعمل فيه ابو حاتم وذكر الابيات المذكورة توفى سنة ٢٥٠

ابن الجبان

الاصفهاني محمد بن على بن عمر بن الجبان الاصفهانى ابو منصور احد حساب الرى وعلمائها الاعيان جيد المعرفة باللغة ومن تصانيفه كتاب أبنية الافعال وكتاب الشامل فى اللغة وهو كتاب كبير وشرح الفصيح وهو حسن قال ياقوت وجدت خطه على كتاب الشامل له وقد كتبه فى سنة ٤١٦ وذكره يحيى بن منده فقال بينه وبين الصاحب ابن عباد مكاتبات وعلق غلاما من الديلم يقال له الـتركاني فاتفق للغلام انه عزم على الحج فلم يجد ابن الجبان بدا من موافقته ومرافقته فلما بلغا الميقات وأحرما وأخذا فى التلبية قال ابن الجبان لبيك اللهم لبيك والتركانى ساقنى اليك وكان هجيراه

يانسيم الروض فى السحر وشبيه الشمس والقمر
ان من اسهرت ليلته لقرير العين بالسهر

ثم ابتلى بفراقه فكتب اليه

ياوحشتى لفراقكم اترى يدوم علىّ هذا
الموت والاجل المتا ح وكل معضلة ولا ذا

نقلت هذه الترجمة من خط الشيخ نور الدين الابياري

السهيلى

عبد الرحمن بن عبدالله بن احمد ابوالقاسم وابو زيد وابو الحسن الخثعمى السهيلى الاندلسي المالقي النحوى الحافظ. ناظر على بن الحسن بن الطراوة فى كتاب سيبويه وسمع منه كثيراً من كتب اللغة ذكر انه استخرج الروض الانف من نيف وعشرين ومائة ديوان وله كتاب التعريف والاعلام بما ابهم فى القرآن وكتاب شرح آية الوصاية وشرح الجمل ولم يتمه واستدعي الى مراكش ليسمع بها وبها توفى قال ابن خلكان وكان يتسوغ بالعفاف ويتبلغ بالكفاف حتى نمى خبره الى صاحب مراكش فطلبه وأحسن اليه واقام بها نحو ثلاثة اعوام ثم توفى سنة ٥٨١

ابن دحية الكلبي

العلامة ابو الخطاب عمر بن حسن بن علي بن محمد بن الجميل المعروف بابن دحية الكلبي كان يكتب لنفسه ذو النسبتين بين دحية والحسين وانه سبط ابي البسام الحسيني الفاطمي. كان له التصانيف الفائقة والرحلة الواسعة والدراية الحسنة بالنحو واللغة والحديث متناً واسناداً وروى عن جماعة وروى عنه جماعة طول الحافظ الذهبي روايته ومن روى هو عنه واطال ترجمته الى ان قال قال ابن واصل وكان ابو الخطاب مع فرط معرفته بالحديث متهما بالمجازفة فى النقل وبلغ ذلك الملك الكامل وقد بنى له دار الحديث بالقاهرة فأمره ان يعلق شيئاً على احاديث الشهاب فعلق كتاباً تكلم فيه على احاديثه واسناده فلما وقف الملك الكامل على ذلك قال له بعد حين قد ضاع مني فعلق لى مثله ففعل فجاء فى الثاني بمناقضة الاول فعلم السلطان صحة ما قيل عنه وعزله من دار الحديث قال ابن نقطه كان يدعى اشياء لا حقيقة لها — ذكر لى ابو القاسم بن عبد السلام وهو ثقة قال نزل عندنا ابن دحية فكان يقول انا احفظ صحيح مسلم والترمذى فخلطنا له احاديث من الترمذى باحاديث موضوعة وامتحناه بها فلم يعرف منها شيئاً قال ابن خلكان وصنع لمظفر صاحب اربل قصيدة ادعى أنها له فظهرت فى ديوان الاسعد بن مماتى قال الذهبي وكذلك نسبه شئ لا حقيقة له قرأت بخط بن مدى كان ابوه تاجراً يعرف بالكلبي بين الفاء والباء وهو اسم موضع بدانية وكان ابو الخطاب يكتب اولا الكلبي معاً نشارة الى النسب والبلد توفي سنة ٦٣٣

المسعودي

شارح المقامات محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود ابوسعيد وابو عبد الله ابن ابي السعادات المسعودى الخراساني روى عن جماعة وروى عنه جماعة وكان المحدثون يلينونه كما قال الذهبي وقال ابن خليل الادمي لم يكن فى نقله بثقة ولا مأمون توفي سنة ٥٨٤

الشاطبي

القاسم بن فيره بن خلف الرعيني الاندلسي الشاطبي المقرى احد الاعلام كان اماما علامة نبيلا واسع المحفوظ كثير الفنون بارعاً فى القرآت وعللها حافظاً للحديث استاذا فى العربية وقصيدتاه في القرآت والرسم ما يدل على تبحره — قال الذهبي وصبر على فقر شديد ثم قدم القاهرة فطلبه القاضى الفاضل للاقراء بمدرسته فأجاب بعد شروط اشترطها — قال السخاوى أقطع بأنه كان مكاشفاً وانه سأل الله تعالى كفاف حاله ما كان احد يعلم اى شيء هو — توفى سنة ٥٩٥

ابن طارق

احمد بن طارق بن سنان ابو الرضى الكركي الاصل البغدادى المولد التاجر المحدث سمع من ابي نصر موهوب بن الجواليقى وابي الفضل بن الارموى واحمد بن طاهر المهسى وجماعة غيرهم طول روايته وذكر من روى عنه الذهبي ثم قال قال ابن النجارالا انه كان غالياً فى التشيع شحيحا مقتراً على نفسه يشترى من لقم المكدين ويتبع المحدثين ليأكل معهم ولا يشعل فى بيته ضوأ وخلف تجارة تساوى ثلاثة آلاف دينار مات فى سنة ٥٩٢ وبقى فى بيته اياما لا يدرى به واكلت الفارة اذنيه وانفه

القاضى الفاضل

ابو على بن القاضى الاشرف ابى الحسين اللخمى العسقلانى البيسانى مسودات رسائله لا تقصر عن مائة مجلد قال الموفق عبد اللطيف كان قليل النحو لكن له دربة قوية تعرض له قلة اللحن وكان متقللا فى مطعمه ومنكحه وملبسه لباسه البياض لا يبلغ جميع ما عليه دينارين وكان فيه سوء خلق يكتمه ولا يظهره — توفى سنة٥٩٦

ابن بيان

ذو الرياستين محمد بن محمد ذى الرياستين بن ابى الطاهر الابيارى المصرى ابو الفضل سمع من خلق وكتب الكثير بخطه وتولى ديوان النظر فى الدولة المصرية وتقلب في الخدم فى الايام الصلاحية وكان القاضى الفاضل ممن يغشى بابه ويمتدحه

و يفتخر بالوصول اليه فلما جاءت الدولة الصلاحية قال القاضى الفاضل هذا رجل كبير القدر يصلح ان يجرى عليه ما يكفيه ويجلس فى بيته ففعل به ذلك ثم انه توجه الى اليمن ووزر لسيف الاسلام ثم عاد وعليه ديون ثقيلة وأدى أمره الى ان جاس في والجامع الازهر وكان ينتقص القاضى الفاضل لا يراه بالعين الاولى والفاضل يقصر فى حقه فيقصر الناس معه مراعاة له وكان بعض من له عليه دين اعجمياً جاهلا فصعد الى سطح الجامع وسفه عليه وقبض على لحيته ففر والقى نفسه من سطح الجامع فتهشم وحمل الى داره فبقى اياما ثم مات سنة٥٩٦

ابن بصيلة

عبد الله بن خلف بن رافع الحافظ ابو محمد بن بصيلة المكى الاصل القاهري كان حافظا محصلا عالما بالتواريخ والوفيات وجمع مجاميع مفيدة وشرع فى تاريخ مصر وعجز عن اكماله لضيق ذات يده — توفى سنة ٥٩٨

شميم

على بن الحسن بن عنتر الاديب ابو الحسن النحوى المعروف بشميم الشاعر الحلى قدم بغداد وتأدب بها على ابى محمد بن الخشاب وغيره وحفظ كثيرا من اشعار العرب واحكم اللغة والعربية وقال الشعر الجيد الا ان حمقه أخرّه — قال الذهبى قرات بخط محمد ابن عبد الجليل الموماني قال بعض العلماء وردت الى آمد سنة ٥٩٤ فرأيت أهلها مطبقين على وصف هذا الشيخ فقصدته ودخلت عليه فوجدته شيخا كبيرا نحيف الجسم و بين يديه حمدان مملوء كتباً من تصانيفه فسلمت عليه ثم قلت انما جئت لأقتبس من علومك شيئا فقال أى علم تحب قلت الادب قال ان تصانيفي في الادب كثيرة وذلك ان الاوائل جمعوا أقوال غيرهم و بوبوها وأما أنا فكل ما عندى من نتائج فكرى فانى قد عملت كتاب الحماسة وابو تمام جمع اشعار العرب فى حماسته وانا فعلت حماسة من شعري ثم سب ابا تمام وقال رأيت الناس مجمعين على استحسان خمريات أبى نواس فعملت كتاب الخمريات من شعري ورأيتهم مجمعين على خطب

ابن نباتة فعمات خطبا وجعل يزرى بالمتقدمين و يصف نفسه ويجهل الاوائل ويقول ذاك الكلب قال كذا قلت فانشدنى شيئا من شعرك فأنشدني من الخمريات له فاستحسنت ذلك فغضب وقال ويلك ما عندك غير الاستحسان فقلت فما أصنع قال تصنع هكذا ثم قام يرقص و يصفق الى ان تعب ثم جلس يقول ما أصنع ببهائم ثم شطح في الكلام وقال ليس فى الوجود الا خالقان واحد في السماء وواحد في الارض فالذى فى السماء هو الله تعالى والذى في الارض انا ثم التفت الىّ وقال هذا لا يحتمله العامة لكونهم لا يفهمونه انا لا اقدر علي خلق شيء الا خلق الكلام فقلت يا مولانا انا محدث وان لم يكن في المحدث جراءة مات بغيظه وأحب ان اسألك عن شيء فتبسم وقال ما اراك تسأل الا عن معضلة هات فقلت لم سميت شميا فشمنى وقال اعلم أنني بقيت مدة لا اتغوط ثم يجيء كالبندقة من الطين فكنت آخذه وأقول لمن أنبسط اليه شمه فانه لا رائحة له فلقبت بذلك أرضيت ياابن الفاعلة — قال ابن النجار كان اديباً مبرزا فى علم اللغة والنحو لكنه كان احمق قليل الدين رقما يستهزئ بالناس ولا يعتقد ان في الدنيا مثله ولايكون أبدا — وحكى ابن العديم بسنده انه كان لايأكل الا التراب فكان رجيعه يجيء يابسا لا ريح له فيجعله فيجنبه فمن دخل عليه اشمه اياه و يقول قد تجوهرت — توفى سنة ٦٠١ وله عدة كتب كثيرة يطول ذكرها

الجزولى

عيسى بن عبد العزيز بن يللبخت بن عيسى العلامة ابو موسى الجزولىاليزدكتنى المراكشى النحوى حج ولزم العلامة عبد الله بن بري وأخذ العربية عنه جماعة وكان علامة لا يشق غباره فى النحو مع جودة التفهيم وحسن العبارة وأتي فىمقدمته بالعجائب حتى ان الشخص يعرف المسئلة من النحو معرفة جيدة واذا رآها فى الجزولية يدور رأسه فيها واسم هذه المقدمة القانون وكان ينكر أنها له تورعا لانها نتائج بحوثه على ابن بري و بحوث رفقائه و يللبخت جده رجل بربري وجزولة بطن من البربر قال الذهبي وقرأت بخط محمد بن عبد الجليل الموقانى ان الجزولى قاسى بمدة مقامه بمصر كثيرا من

الفقر ولم يدخل مدرسة وكان يخرج الى الضياع يوم بقوم فيحصل ما ينفقه في غاية الصبر ورجع الى المغرب فقيرا مدقعا فلما وصل الى المرية او نحوها رهن كتاب ابن السراج الذى قرأه علي ابن برى وعليه خطه فأنهى المرتهن امره الى الشيخ ابى العباس المغربي احد الزهاد بالمغرب وكان يصاحب بني عبد المؤمن فأنهى ابو العباس ذلك الى السلطان فأمر باحضاره وقدمه واحسن اليه انتهى — وصنف كتابا فى شرح أصول ابن السراج واخذ عنه النحو ابو على الشلوبين ويحيى بن معطي — توفى سنة ٦٠٧

التاج الكندي

زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن العلامة تاج الدين ابو اليمن الكندي البغدادى المقرى النحوى اللغوى اعلى أهل الارض اسنادا فى القرآت — قال ابن النجار كان اعلم اهل زمانه بالنحو اظنه يحفظ كتاب سيبويه ما دخلت عليه قط الا وهو في يده يطالع فيه وهو فى مجلد واحد بخط رفيع والشيخ يقرأه بلا كلفة وقد بلغ التسعين — قال القفطي كان بحلب يبتاع الخليع من الملبوس ويتجر به الى بلد الروم ثم ترقت به الحال وكان لينا في الرواية معجباً بنفسه فيما يذكره ويرويه اذا نوظر جبه بالقبيح ولم يكن موفق العلم رأيت له اشياء باردة — قال واشتهر عنه انه لم يكن صحيح العقيدة قال الموفق عبد اللطيف كان معجبا بنفسه مؤذيا لجليسه — توفى سنة ٦١٢

ياقوت

ابن عبد الله شهاب الدين الرومى الحموى البغدادى الامام النحوى اللغوى الاخبارى صنف كتاب معجم البلدان وكتاب معجم الادباء وارشاد الالباء الى معرفة الادباء فى اربع مجلدات (54) وأخبار الشعراء المتأخرين ومعجم الشعراء وكتاب المشترك وضعاً المختلف صقعاً وكتاب المبدا والمآل في التاريخ وكتاب المقتضب فى النسب اتفق له مرة أنه تنقص علياً رضى الله عنه فثار عليه الناس وكادوا يقتلونه فهرب الى حلب ثم الى الموصل واربل ودخل خراسان واستوطن مرو يتجر ثم دخل خوارزم فصادفه خروج التتار فانهزم بنفسه وقاسي شدائد وتوصل الى الموصل وهو فقير داثر — قال الذهبي قال جمال

لدين القفطى في تاريخ النحاة له انه كتب اليه رسالة من الموصل شرحا لما تم على خراسان ومنها كان المملوك لما فارق مولاه اراد استعتاب الدهر الجامع واستدرار حلب الزمان الجامح اغترارا بان الحركة بركة والاغتراب داعية الاكتساب فامتطى غارب الآمل الى الغربة وركب ركوب التطواف مع كل صحبة فلم يرث له دهره الخؤن ولا رق له زمانه المفتون

ان الليالى والايام لو سئلت عن عيب أنفسها لم تكتم الخبرا

وهيهات مع حرفة الادب بلوغ وطر أو ادراك أرب ومع عبوس الحظ ابتسام الدهر الكظ ولم ازل مع الدهر فى تفنيد وعتاب حتي رضيت من الغنيمة بالاياب وهي طويلة - توفى سنة ٦٢٦

ابن معطى

يحيى بن عبد النورالشيخ زين الدين ابو الحسين الزواوي المغربى النحوي الحنفي صنف فى الادب والنحو والعروض وحمل الناس عنه وكان اماما مبرزا فى علم اللسان شاعرا محسنا وكان احد الشهود بدمشق وليس له من طرق الكسب ما يقوم بكفايته كما قال الحافظ الذهبي فحضر مع العلماء عند الملك الكامل وكان له طرف من النحو فسألهم فقال زيد ذهب به هل يجوز فى زيد النصب فقالوا لا فقال ابن معطي يجوز النصب على ان يكون المرتفع بذهب المصدر الذى دل عليه ذهب وهو الذهاب وعلى هذا فموضع الجار والمجرور الذي هو به النصب فيجيء من باب زيد مررت به اذ يجوز فى زيد النصب فكذلك ههنا فاستحسن السلطان جوابه وامره بالسفر معه الى مصر فسافر وقرر له معلوما قال الذهبي فلم تطل مدة حياته فتوفى سنة ٦٢٨

أبو حامد

الاسفراينى احمد بن محمد بن احمد الاسفراينى الشيخ ابو حامد بن ابي طاهر شيخ طريقة العراق بل امام المذهب على الاطلاق شيخ الاسلام والمسلمين قاطبة ورحلة الطلاب طبق الشيخ ابو حامد الارض بالاصحاب وجمع مجلسه ثلثمائة متفقه

واتفق الموافق والمخالف على تفضيله حتى قال ابو الحسين القدورى هو عندى أفقه او انظر من الشافعي وافتى وهو ابن سبع عشرة سنة وقام يفتي الى ثمانين سنة انتهت اليه رئاسة الدين والدنيا حتى انه قال للخليفة انك لست بقادر على عزلى من ولايتى التى أولانى الله تعالى اياها وانا اقدر ان اكتب الى خراسان بكلمتين او ثلاثة اعزلك عن خلافتك وارسل الى مصر فاشترى امالى الشافعى بمائة دينار — قال السبكي فى الطبقات عن سليم الرازى ان الشيخ ابا حامد كان يحرس فى درب وكان يطالع في زيت الحرس ويأكل من اجرة الحرس — توفى فى شوال سنة ٤٥٦

ابن عُنَيْن

محمد بن نصر الله بن مكارم بن الحسين بن عنين الاديب الرئيس شرف الدين ابو المحاسن الانصاري الكوفى الدمشقى الشاعر المشهور سمع من الحافظ ابى القاسم ابن عساكر كان غزير المادة مطلعا على اشعار العرب واشتغل على القطب النيسابورى والفخر الرازي وجال فى البلاد ومدح الملوك والوزراء وهجا الصدور والكبراء أقامه الملك المعظم مقام نفسه في ديوانه فأحسن السياسة الا انه في الاخير ظهر منه سوء اعتقاد وطعن فى السلف واستهتار بالشريعة وكثر عسفه وظلمه وترك الصلاة وسب الانبياء صلوات الله عليهم ولم يزل يستورد الخمر الى ما قبل وفاته بقليل — توفى سنة ٦٣٠

ابن حمويه (55)

اليزدى على بن احمد بن الحسين بن احمد بن الحسين حمويه الامام ابو الحسن اليزدى الشافعى المقرى المحدث نزيل بغداد حدث عن خلق ذكرهم الحافظ الذهبي وذكر من روى عنه قال وقرأت بخط احمد بن شافع أن مصنفاته زادت على خمسين مصنفاً قال ابو سعيد السمعانى فقيه فاضل سخي النفس بما يملك كان له عمامة وقميص بينه و بين أخيه اذا خرج ذلك قعد هذا واذا خرج هذا قعد الآخر هكذا ترجمه الذهبي وطول فى ترجمته فذكر مشيخته وكراماته الا انه قال زاهد — توفى سنة ٥٥١

نفطويه

ابراهيم بن عرفة ابو عبد الله النحوى المعروف أخذ العربية عن المبرد وثعلب ومحمد بن الجهم وخلط نحو الكوفة بنحو البصرة وتفقه على مذهب داود بن على الظاهرى ومن تصانيفه كتاب التاريخ. غريب القرآن. المقنع فى النحو. المصادر. الوزراء. وغير ذلك وكان مع كونه من اعيان العلماء غير مكترث باصلاح نفسه وكان يفرط به الصنان فلا يعرّه وحضر يوما مجلس وزير المقتدر حامد بن العباس فتأذى هو وجلساؤه من صنانه فطلب الوزير مرتكا فبدأ بنفسه واداره على الجماعة فتمرتكوا وفطنوا مراده فقال نفطويه لا حاجة لى به فراجعه فأبي فاحتد حامد وقال عاض كذا من امه انما تمرتكنا من اجلك فانا تأذينا بصنانك قم لا أقام الله لك وزناً اخرجوه وابعدوه بغداد --- توفى سنة ٣٢٣ ولقب نفطويه لرمامته وأذيته تشبيهاً بالنفط

إمام الأئمة ابن خزيمة

محمد بن اسحاق بن خزيمة امام الائمة ابو بكر السلمى النيسابورى المجتهد المطلق البحر العجاج روى عن خلائق وروى عنه الائمة البخارى ومسلم ويحيى بن محمد بن صاعد وغيرهم — قال الحاكم سمعت ابا عمرو بن اسماعيل يقول كنت فى مجلس ابن خزيمة فاستمد مدة فناولته القلم بيساري اذ كانت يمنى قد اسودت من الكتابة فلم يأخذ القلم وأمسك فقال بعض اصحابه لو ناولت الشيخ بيمينك فقد امتنع ان يأخذ من يسارك فأخذت القلم بيمينى وناولته اياه فأخذه منى وقد اطال الحاكم فى تاريخ نيسابور ترجمته بما لا مزيد على حسنه — قال السبكي في الطبقات قال ابو احمد الدارمي كان له قميص يلبسه وقميص عند الخياط فاذا فرغ الذى يلبسه وهبه وغدوا الي الخياط وجاؤا بالقميص الآخر وقيل له يوماً لو حلقت شعرك في الحمام فقال لم يثبت عندى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل حماما قط ولاحلق شعره انما تأخذ شعرى جارية بالمقراض —توفى سنة ٣١١

أبو عمر

محمد بن عبد الواحد الزاهد المعروف بغلام ثعلب أحد أئمة اللغة المشاهير المكثر بن صحب ابا العباس ثعلبا فعرف به وله تصانيف كثيرة وكان لسعة روايته وحفظه يكذبه ادباء زمانه فى اكثر نقل اللغة و يقولون لو طار طائر يقول ابو عمر حدثنا ثعلب عن ابن الاعرابي ويذكر في معنى ذلك شيئاً وكان أغلب تصانيفه من حفظه حتى انه املى في اللغة ثلاثين الف ورقة فلهذا الاكثار نسب الى الكذب قال الملك المؤيد صاحب حماه في تاريخه وكان اشتغاله بالعلوم قد منعه من اكتساب الرزق فلم يزل مضيقاً عليه — توفى سنة ٣٤٥

أبو الوقت السّجْزى

عبد الاول بن عيسى بن شعيب بن ابراهيم بن اسحاق ابو الوقت السجزى الاصل الهروى الصوفى مسند العصر ورحلة الدنيا روى عن خلائق وروى عنه امم لا يحصون حكي عنه والده انه اخذه ماشيا من هراة الى بوشيخ ليسمعه الحديث وكان ابوه ايضاً ماشياً فكان اذا أعيا حمله على كتفه وعمره اذ ذاك دون عشر سنين قال وكنا نلتقى علي افواه الطرق فلاحين فيقولون ياشيخ عيسى ادفع الينا هذا الطفل نركبه واياك فيقول معاذ الله ان يركب فى طلب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فاحسن نية الوالد صارت الوفود ترحل اليّ من الامصار — توفى سنة ٥٥٣

ابن نُباتة السّعدى

ابو نصر عبد العزيز بن نباتة السعدى اديب فضله تام وروض علمه زاهر اصفى عليه حرمانه ولم يسعفه زمانه ورد على ابي الفضل بن العميد وامتدحه بقصيدته التى اولها

بَرِحَ اشتياقٌ وادّكار	ولهيب أنفاس حِرار
ومدامع عبراتها	ترْفضّ عن نوم مُطار
لله قلبى ما يجنّ	من الهموم وما يُوارِى

وكبرت عن وصل الصغا ر وما سلوت عن الكبار

ومنها

لم يبق لى عيش يا ذ سوى معانقة العقار

واذا استهل فتى العميد د تضاحكت ديم القطار

حر صفت اخلاقه صفو السبيك من النضار

فتأخرت صلته فشفع هذه القصيدة بأخرى وأتبعها برقعة فلم يزدها ابن العميد غير الاهمال فتوصل الى أن دخل عليه ومجلسه محتفل بالاعيان فأشار بيده اليه وقال أيها الرئيس انى لزمتك لزوم الظل وذللت لك ذل النعل وأكلت النوى المحرق انتظاراً لصلتك ووالله ما بي الحرمان ولكن شماتة قوم نصحوني فاغتششتهم وصدقونى فاتهمتهم فبأى وجه ألقاهم فان كان للنجاح علامة فأين هى وما هى ان الذى تحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طينتك وان الذين هجوا كانوا مثلك فزاحم بمنكبيك أعظمهم سناء وأنورهم شعاعاً فحار ابن العميد وشدِه واطرق ساعة ثم قال هذا وقت يضيق عن الاطالة منك فى الاستزادة وعن الاطالة منا فى المعذرة واذا ترامينا مادفعنا اليه استأنفنا ما نتحامد عليه فقال ابن نباتة هذه نفثة مصدور والغنيّ اذا مطل لئيم فاستشاط ابن العميد وقال والله ما استوجبت هذا العتب من احد من خلق الله ولست ولى نعمتي فأحتملك ولاصنيعتى فاغضى عنك وان بعض ماأقررته فى مسامعى تنقض منه مرة الحليم ويبدد شمل الصبر — هذا وما استقدمتك بكتاب ولااستدعيتك برسول ولا سألتك مدحى — فقال ابن نباتة لما جلست فى صدر ايوانك بأبهتك وقلت لايخاطبنى أحد الا بالرياسة دعوتني بلسان الحال وان لم تدعني بلسان المقال فثار ابن العميد مغضباً ودخل حجرته وتموص المجلس وسمع ابن نباتة ذاهباً وهو يقول والله ان سف التراب والمشى على الجمر أهون من هذا فلعن الله الأدب ان كان بائعه مهينا له ومشتريه مماكساً فيه فلما سكن غيظ ابن العميد وثابَ اليه حلمه التمسه ليعتذر اليه فكأنما غاص بين سمع الارض و بصرها فكان حسرة فى قلب ابن العميد الى ان مات اه ملخصاً من ابن خلكان

الزَّبِيدِى

محمد بن يحيى بن على بن مسلم القرشى الزبيدى الواعظ أبو عبد الله كان له معرفة بالنحو والادب قال الذهبي قال احمد بن صالح بن شافع كان له فى علم الاصول وعلم العربية حظ وافر وصنف كتبا في فنون العلم تزيد على مائة تصنيف قال الحافظ الذهبى وكان صبوراً علي الفقر متعففاً حنفي المذهب قال ابو الفرج ابن الجوزى حدثنى لوزير ابن هبيرة قال جلست مع الزبيدى من بكرة الى قريب الظهر وهو يلوك شيئاً فى فيه فسألته فقال لم يكن لى شئ فأخذت نواة أتعلل بها قال ابن السمعانى كان فينا عجيباً يخضب بالحناء ويركب حماراً مخضوبا ويعظ ويجبه بالحق — توفى سنة ٥٥٥

أبو النَّجِيب السُّهْرَوَرْدِى

عبد القاهر بن عبد الله بن محمد الشيخ ابو النجيب السهروردى الصوفى الواعظ الفقيه الشافعي قال الذهبي الزاهد حفظ كتاب الوسيط فى التفسير للواحدى وسمع كتب الحديث المشهورة وتفقه على اسعد الميهنى وتأدب على الفصيحى وكتب عنه ابو سعد السمعانى — قال ابن النجار انبأنا يحيى بن القاسم التكريتى انبأنا ابو النجيب قال كنت ابقي اليوم واليومين لا استطعم بزاد وكنت انزل الى دجلة وأتقلب في الماء حتى يسكن جوعى حتى دعتنى الحاجة الى ان اتخذت قربة وكنت استقي بها الماء لاقوام فلما تعذر ذلك فى الشتاء خرجت الى بعض الاسواق فوجدت رجلا بين يديه طبرزين وعنده جماعة يدقون فقلت هل لك ان تستأجرنى فقال أرنى يديك فأريته فقال هذه يد لا تصلح الا للقلم ثم ناولنى قرطاسا فيه ذهب فقلت ما آخذ الا اجرة عملى وكان رجلا يقظا فقال اصعد وقال لغلامه ناوله تلك المدقة فناولنى فدققت معهم فلما عملت ساعة قال تعال فجئت اليه فناولنى الذهب وقال هذه اجرتك فاخذته وانصرفت ثم وقع فى قلبي الاشتغال فاشتغلت ثم قال ابن النجار ثم وعظ على اصحابه بخربة على دجلة يحضره الرجل والرجلان الى ان اشتهر اسمه وصار له القبول عند الملوك وزارته السلاطين وبنى تلك الخربة رباطا وبنى الى جانبها مدرسة ثم ولى التدريس بالنظامية وعزل عنها بعد سنتين توفى سنة ٥٤٥

الميدانى

احمد بن محمد بن احمد بن ابراهيم ابو الفضل الميدانى صاحب الامثال تلميذ ابى الحسن الواحدي واشتمل كتابه فى الامثال على ستة آلاف مثل ولما وقف عليه الزمخشري حسده فزاد فى لفظة الميداني نوناً قبل الميم فصار النميدانى وهو بالفارسية الذى لايعرف شيئاً فعمد الى تصنيف الزمخشرى وعمل الميم نوناً فصارت الزنخشرى وهو بالفارسية بائع زوجته قال محمد بن المعالى فى كتابه ضالة الاديب من الصحاح والتهذيب سمعت اكابر اصحاب الميداني يقولون لو كان للوفاء والشهامة والفضل صورة لكان الميدانى صورتها ومن نظمه رحمه الله تعالى

شــفة لمَــاها زاد في آلامى   فى رشف ريقَتِها شـفاء سـقامى
قــد ضمنا جنح الدجى وللَثْمِنَا   صوت كقَطِّكَ اروُس الاقلام

توفي سنة ٥٣٩

ابو العلاء الهمذانى

الحسن بن أحمد بن الحسن بن احمد الحافظ أبو العــلاء الهمذانى العطار المقرئ الحنبلى المحدث شيخ مدينة همذان اربي على أهل زمانه فى كثرة السماعات وتحصيل الاصول و برع على حفاظ عصره في حفظ ما يتعلق بالحديث من الانساب والتواريخ والاسماء والكني والقصص والسير ــ قال الحافظ عبد القادر الرهاوى شيخنا الامام ابو العلاء أشهر من ان يعرف بل تعذر وجود مثله فى أعصار كثيرة سمعت ان من جملة محفوظاته كتاب الجهرة رآني يوماً وعلى رأسى قلنسوة مكشوفة فقال لا تلبسها مكشوفة فان اول من أظهر لبس القلانس مكشوفة ابو مسلم الخراساني ثم شرع في ذكر ابي مسلم فذكر احواله من اولها الى آخرها وجاءته مرة فتوى فى امر عثمان فأخـذها وكتب فيها من حفظه ونحن جلوس درجاً طويلا ذكر فيها وفاته وسنه ومولده وأولاده وما قيل فيه الى غـير ذلك وكان من أبناء التجار وورث مالا فأنفقه في طلب العلم حتي

سافر الى بغداد واصبهان مرات كثيرة ماشياً وكان يحمل كتبه على ظهره وسمعته يقول كنت أبيت ببغداد فى المساجد وآكل خبزاً أدهن وسمعت شيخنا أبا الفضل الاديب الهمذانى يقول رأيت الحافظ أبا العلاء فى مسجد من مساجد بغداد يكتب وهو قائم على رجليه لان السراج كان عالياً ثم نشر الله ذكره فى الآفاق وعظم شأنه عند الملوك والعوام حتى انه كان يمر فى همذان فلا يبقى أحد يراه الا قام ودعا له حتى الصبيان واليهود — توفى سنة ٥٦٩

ابن مكتوم

صاحب الدر اللقيط تلميذ ابى حيان احمد بن عبد القادر بن احمد بن مكتوم القيسى الحنفى تاج الدين الامام النحوى المحدث المؤرخ صاحب التصانيف المفيدة فمنها تاريخ النحويين وكتاب الحيل وكتاب الدر اللقيط الذى انتقاه من البحر المحيط لابي حيان ومنها شرح تصريف ابن الحاجب واختصار تاريخ القفطى وشرح فصيح ثعلب وله مجاميع حسنة بخطه ورأيت بخط العلامة نور الدين الابيارى اشياء حسنة يذكر أنه نقلها من خطه قال ابن مكتوم ومن خطه نقلت اذكر مرة وقد حمل الحسد على العلم بعض من ابتلاه الله بالجهل ممن كان يجالسنى من الشهود على ان تألب عليّ واعانه على ذلك نويس من اشكاله فاجتمع عنده نحو الخمسة منهم وكتب هو بخطه رسما نسبني فيه الى الوقوع فيما يعلم الله براءتي منه وقدمه اليهم ليشهدوا فيه عليّ زورا بما تضمنه فأراد كل منهم ان يتقدمه غيره الى ذلك وجبنوا وألقى الله الرعب فى قلوبهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة فتفرقوا من فورهم خاملين وصاروا عن قليل بعد الصحبة الاكيدة متعادين يذكر كل منهم عن الآخر ما اذا سمعه احزنه وغمه ولا يرقب فى شتمه واغتيابه الا ولا ذمه فالحمد لله الذى كفاني شرهم وجعل محل كيدهم نحرهم وحتى بلغني ذلك من بعضهم ومن آخرين سواهم فلم اعتب أحداً منهم على مافعله اذ داء الحسد كما علم لا دواء له فقال

سوى وجع الحساد داوِ فانه   اذا حل في قلب فليس يحول

وقال محمد بن عيسى بن حمدان القرطبي

كُنْ من أخ فى فؤاده دَغَلٌ   أخوفَ من كاسح بجاهده
برء السقام الخفي اعسر من   بر، سقام بدت شواهده

اه ما أردت نقله من خطه وجدت بخطه مجموعاً ومنه نقلت ما كتبت هنا وهو مكتوب فى ظهور الحجج والوثائق التى تجتمع عنـد الشهود بحيث انه صار مقسوماً صفحتين صفحتين بين كل ظاهرين باطنان فيهما الوثيقة وهذا اما عن فقر عظيم اوعن شح عظيم وأياً ماكان فهو مستحق للذكر فى هذا الفصل

ابن خالويه

الحسين بن أحمد بن حمدان بن خالويه الهمدانى اللغوى المقرى النحوى ابو عبد الله احد العلماء المشهورين والادباء المصنفين ومن تصانيفه كتاب الاشتقاق وكتاب الجمل في النحو وكتاب القراآت وكتاب اعراب ثلاثين سورة من القرآن وكتاب المقصور والممدود وشرح شعر ابى فراس الحمدانى وغير ذلك — قرأت بخط العلامة ابن مكتوم انه كان يلقب بذى النونين لانه كان يطولها في خطه وهما نون الحسين ونون ابن قال وقد رأيتهما طويلتين فى آخر كتاب الجمهرة بخطه وقد طولها جداً كما ذكر عنه ووجد على نسخة من اصلاح المنطق بخط أبي الحسن على بن عبد الله بن احمد البزار ما مثاله لما فرغت من هذا الجزء كان ابو سعيد العطاردى حاضرا فقال على لساني

قرأت ما فيـه على الحسين   قرأة صدق لم تشب بمين
مستفهم الشكل مرتين   فجاء كالملك على لجين
أو كعذار فوق عارضين   حتى اذا ما تم لى باون
* شرفني الاسـناد بالنونين *

قال ابن مكتوم كما نقلته من خطه وكان ابن خالويه على امامتـه في اللغة ضعيفاً فى النحو وعلاه ضعيفاً في التصريف وله في ذلك مع ابى عـلى الفارسى وتلميذه أبي الفتح بن جنى حكايات معروفة ويحكى ان ابا الطيب المتنبي لما انشد سيف الدولة بن حمدان قوله   * وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه *

قال له ابن خالويه انما يقال شجاه لا اشجاه توهمه فعلا ماضياً فقال له المتنبي اسكت فما وصل الامر اليك وجرى بينه و بين الفارسى كلام فقال ابن خالويه تتكلم في كتاب سيبويه فقال له الفارسى لا بل تتكلم في الفصيح ولابي علي الفارسي فى تغليطه كتاب نقض الهادور. قلت: وانت اذا وقفت على ضعفه في العربية وقفت على سر الحكاية المشهورة عنه وانها ليست من هضم النفس فى شئ وهى انه قال له رجل أشتهي ان اتعلم من العربية ما اقيم به لساني فقال انا منذ خمسين سنة أتعلم النحو ما تعلمت ما أقيم به لسانى — توفي سنة ٣٧٠

ابن الجصّاص

المتموّل الصدر الرئيس ابو عبد الله الحسين بن عبد الله الجصاص البغدادى الجوهري التاجر السفار وقال ابن طولون لا يباع لنا شئ الا على يد ابن الجصاص صادره المقتدر فى سنة ٣٠٢ فأخذ له من الذهب والجوهر ماقوم باربعة آلاف دينار وقال ابن الجوزى في المنتظم اخذوا له مامقداره ستة عشر الف الف دينارعينا وورقاً وخيلاً وقماشاً ويحكي عنه بله وتغفل. مر به صديق له فقال كيف انت فقال ابن الجصاص الدنيا كلها محمومة وكان قد حُمّ ونظر مرة فى المرآة فقال لصاحبه تري لحيتي قد طالت فقال المرآة فى يدك قال الشاهد يرى مالا يرى الغائب ودخل يوماً على الوزير ابن الفرات فقال عندنا كلاب يحرموننا نام فقال الوزير لعلهم جراء فقال بل كل واحد قدي وقدك وفرغ من الاكل فقال الحمد لله الذى لا يحلف باعظم منه وأراد ان يقبل يوماً راس الوزير فقال ان فيه دهنا فقال أقبله ولو ان فيه خرأ ووصف يوماً مصحفاً قديماً فقال كسروىّ توفى سنة ٣١٥

الأديب ابو بكر بن بقيّ

ترجم له صاحب قلائد العقيان فقال نبيل النثر والنظام قليل الارتباط والانتظام ضنأ عليه حرمانه وما صفا له زمانه فصار قعيد صهوات وقاطع فلوات مع توهم لا يطفئه باماني ومن نظمه الرقيق المعانى

عاطيته والليـل يسحب ذيله صهباء كالمسك العتيق لناشق
حتى اذا مالت به سنة الكرى زحزحته شيئاً وكان معانقي
باعدته عن أضلع تشتاقه كي لا ينام على وساد خافق

وله من قصيدة

ولكن ما جدى صبا غير لاقح يسد طريق المزن عن ارضي الفل
أخلاى والآداب تجمع بيننا وبعض طباع لست اقضى على كل
ذوى أملي عند اهتزاز غصونه وارخصني الدهر الذى كان بي يُغْلِي

ومنها

وامدحهم ما حسبى الله كاذباً فيجزوننى بالمنع شكلا على شكل

أبو الحسن

على بن احمد بن نوبخت كان أديباً مجيداً الا انه كان قليـل الحظ من الدنيا لم يزل رقيق الحال ضعيف المقدرة حتى توفي بمصر فى شعبان سنة ٤١٦ وهو علي حاله من الضرورة وشدة الفاقة فكفنه ابو محمد بن حيران متولى كتب السجلات بمصر

الصولى

ابو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله المعروف بالصولى احـد الادباء الفضلاء المشهورين روى عن ابى داود السجستانى والمبرد وغـيرهم وروى عنـه الدار قطنى والمرزباني وله التآليف المشهورة وكان اوحد وقته فى لعب الشطرنج و به يضرب المثل فيه خرج من بغداد لاضاقة لحقته فتوفي سنة ٣٣٥

ابن ظَفَر

ابو عبد الله محمد الصقلي له التصانيف المتعددة منها سُلوان المطاع وخير البشر وأنباء نجباء الابناء والينبوع فى التفسير وشرح مقامات الحريرى والحاشية على درة الغواص ذكره العماد فى الخريدة ولم يزل يكابد الفقر حتى مات. قيل انه زوّج ابنته بحماة من غير كفء للضرورة فرحل بها الزوج عن حماة و باعها فى بعض البلاد توفى سنة ٥٧٥[56]

ابن السِّكيت

ابو يوسف يعقوب بن اسحاق السكيت الامام اللغوى النحوي كان اول الامر يؤدب اولاد العامة ببغداد بدرب القنطرة ثم ادب ولد ابن طاهر والمتوكل وجعفر قال الحسين بن عبد المجيب سمعت يعقوب بن السكيت في مجلس ابى بكر بن شبة يقول

ومن الناس من يحبك حباً　　ظاهر الحب ليس بالتقصير
فاذا ما سألته نصف فلس　　لحق الحب باللطيف الخبير

قيل ان المتوكل قتله وذلك ان المتوكل امره بشتم رجل من قريش فلم يفعل فأمر القرشي ان ينال منه ففعل فأجابه يعقوب فلما أجابه قال له المتوكل امرتك ان تفعل فلم تفعل فلما شتمك فعلت فأمر بضربه فحمل من عنده صريعاً مقتولا ووجه المتوكل الى بنى يعقوب من الغد عشرة آلاف درهم. قاله الأنبارى في نزهة الألبَّاء

الاديب ابو جعفر

ابن المثنى ترجم له صاحب قلائد العقيان فقال رافع راية القريض وصاحب آية التصريح والتعريض اقام شرائعه واظهر روائعه وجعل عصيه طائعه وكان اليف غلمان وحليف كفر لا ايمان ما نطق متشرعاً ولا رتق متورعاً ولا اعتقد حشرا ولا صدق بعثا ولا نشرا وربما تنسك مجونا وفتكا وتمسك باسم التقى وقد هتك هتكا لا يبالي كيف ذهب ولا بما تمذهب وقد اثبت له ما يرتشفه ريقا ويلحو الاوان منه شروقا فمن ذلك قوله

كيف لا يزداد قلبي　　من جوي الشوق خبالا
واذا قلت علىّ　　بهر الناس جمالا
هو كالغصن وكالبد　　ر قواماً واعتدالا
ان من رام سلوى　　عنه قد رام محالا
لست اسلو عن هواه　　كان رشداً او ضلالا

ولما اشتهر عند ناصر الدولة ما تقرر وتردد على مسمعه انهتاكه وتكرر أخرجه ونفاه وطمس رسم فسوقه وعفاه

« الامام ابو سهل الصعلوكى »

محمد بن سليمان بن محمد بن سليمان بن هارون الحنفى نسبا من بني حنيفة العجلى الامام ابو سهل الصعلوكي شيخ عصره وامام الدنيا فى الفقه والتفسير والادب واللغة والنحو والشعر والكلام والتصوف وغير ذلك من أصناف العلوم — وعن الصاحب ابي القاسم بن عباد لم تر خراسان مثله ولا رأى هو مثل نفسه لقي ابا بكر بن خزيمة وابا العباس الماسرخسي الثقفى وغيرهم ومن الصوفية الرئيس الشبلى وابا على الثقفى وغيرهم وحكي عنه انه قال ما مرت بى جمعة الاولى على الشبلى وقفة او سؤال وانه قال دخل الشبلي على ابى اسحاق المروزي فرآني عنده فقال هذا المجنون من اصحابك لا بل من اصحابنا — وعن الشيخ ابى عبد الرحمن السلمى انه قال قلت للاستاذ ابي سهل فى كلام جري بيننا لم فقال لى اما علمت انه من قال لاستاذه لم لم يفلح ابداً — قال السبكي فى الطبقات قال الاستاذ ابو القاسم القشيرى سمعت ابا عبد الرحمن السلمى يقول وهب الاستاذ ابوسهل جبته من انسان فى الشتاء وكان يلبس جبة النساء حين يخرج الى التدريس اذ لم يكن له جبة اخرى فيقدم الوفد المعروفون من فارس وفيهم من كل نوع امام من الفقهاء والمتكلمين والنحويين فأرسل اليه صاحب الجيش ابو الحسن وأمره ان يركب لاستقبالهم فلبس دراعة فوق تلك الجبة التى للنساء وركب فقال صاحب الجيش انه مستخف بي امام البلد يركب في جبة النساء ثم ناظرهم فغلبهم اجمعين فى كل فن — توفى في ذى القعدة سنة ٣٦٩ وصلى عليه ابنه ابو الطيب ودفن في المجلس الذى كان يدرس فيه

« الغزى »

ابو اسحاق ابراهيم بن يحيي بن عثمان بن محمد الكلبي الغزى الشاعر المشهور ذكره الحافظ بن عساكر فى تاريخه وقال انه دخل دمشق ثم بغداد وأقام بالمدرسة النظامية سنين كثيرة ومدح ورثى ثم رحل الى خراسان وانتشر شعره هناك وأثنى عليه

اه وذكره العماد الكاتب فى الخريدة واثنى عليه وقال انه جاب البلاد وتغرب وا كثر التنقل والحركات وتغلغل فى اقطار خراسان وكرمان ولقي ناصر الدين بن مكرم بن العلاء وزير كرمان ومدحه بقصيدته البائية التى يقول فيها

حملنا من الايام ما لا نطيقه　　كما حمل العظم الكسير العصائبا

ومنها في قصر الليل

وليل رجونا ان يدب عذاره　　فما اختط حتي صار بالفجر شعائبا

ومن شعره

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة　　باب الدواعى والبواعث مغلق

خلت الديار فلا كريم يرتجى　　منـه النوال ولا مليح يعشق

ومن العجائب ان نراه كاسدا　　ويخان فيه مع الكساد ويسرق

ومن شعره

وخز الاسنة والخضوع لناقص　　امران فى ذوق النهى مران

والرأي ان تختار فيما دونه ال　　مران وخز أسـنة المران

ومن شعره

من آلة الدست ما عند الوزير سوى　　تحريك لحيتـه في حال ايماء

فهـو الوزير ولا أزر يشدّ به　　مثل العروض له بحر بلا ماء

ولـه

وجف الناس حتى لو بكينا　　تعـذر ما تبـل به الجفون

فمـا تنـدى لممدوح بنان　　ولا ينـدي لمهجوّ جبين

ولد بغزة وتوفى وقد جاوز التسعين ودفن ببلخ سنة ٥٣٤

ومن نظم الغزى

قالوا بعـدت ولم تقرب فقلت لهم　　بعدى عن الناس في هذا الزمان حجا

اذا خروجك لم يخرجك عن كرب　　حسدت من كان حِلسَ البيت ماخرجا

كم عالم لم يلج بالقرع باب غنى　　وجاهـل قبل قرع الباب قد ولجـا

قعدت في البيت اذ ضيعت منتظرا من رحمة الله بعد الشدة الفرجا

قال المصنف رحمه الله ﴿ تنبيه ﴾ قال كاتبه ومصنفه احمد بن على الدلجى عافاه الله من الفلاكة مهما وجدت فى ترجمة عالم او شاعرانهطاف البلاد وجال وتنقل فاحكم عليه ما لم يكن محدثاً بانه في غاية الفلاكة وهذا امر يصححه عندي الذوق والوجدان ولا أشك فيـه **وانا اقطع بأن التنقل من لوازم الفلاكة وما خرج احد من بلد ويمكنه الاقامة فيها والله اعلم**

« الفارابي »

محمد ابو نصر بن محمد بن اوزلغ بن طرخان من مدينة فاراب من بلاد الترك كان اماماً فاضلا وفيلسوفاً كاملا برع في الفلسفة واتقنها وأظهر محاسنها وتفنن في فن الموسيقى واخترع فيه مالم يسبق اليه وشرح كتب الاوائل كان في اول الامر قاضياً ببلاده فأودع عنده رجل من التجار جملة من كتب ارسطاطاليس فنظر فيها فصادفت منه قبولا فترك القضاء واكب عليها بجملته وتجرد وسافر الى بغداد واقام بها وقرأ بها المنطق على يوحنا بن حبلان وقرأ النحو على ابي بكر بن السراج ثم سافر الى مصر ثم رجع الى دمشق وأقام بها الى ان مات — قال ابو الحسن الآمدى كان الفارابي متقنعاً باليسير من الرزق وكان فى اول امره ناطوراً يبستان بدمشق وهو فى مثل هذه الحالة ملازم للاشتغال ليله ونهاره وكان فى اكثر لياليه يستضئ على المطالعة بقنديل الحارس ولم يزل كذلك حتى ظهر فضله وكثرت تلامذته واجتمع به الامير سيف الدولة ابو الحسن على بن عبد الله الثعلبي فاكرمه وأوسع عليـه فلم يقبل منه سوى اربع دراهم فضة في اليوم يصرفها فى الضرورى من عيشه ومن دعائه اللهم ألبسنى حلل البهاء وكرامات الانبياء وسعادة الاغنياء وعلوم الحكماء وخشوع الاتقياء ومن شعره

بزجاجتـين قطعت عمرى وعليهـما عولت امرى
فزجاجـة ملئت بحـبر وزجاجـة ملئت بخـمري
فبـذى ادوّن حكمتى وبذى ازيل هموم صدري

وكان يرى الانفراد على شرب الخمر ولايحب المنادمة عليها — توفى رحمه الله في شهور سنه ٣٣٤ نقلت ذلك كله من عيون الانبا في طبقات الاطباء مما اختاره الحسن ابن احمد بن زفر الاربلى الشافعى من تاريخ ابن اصيبعة

« الهروى »

صاحب الغريبين ابو عبيد احمد بن محمد بن محمد بن عبيد العبدي الهروي القاشانى من كبار العلماء اخذ عن ابى منصور الازهرى اللغوى وكتابه المذكور فسر فيه غريب القرآن وغريب الحديث النبوى وسار فى الآفاق قال ابن خلكان وقيل انه كان يحب البذلة ويتناول فى الخلوة ويعاشر اهل الادب فى مجالس اللذة والطرب عفا الله عنه وقد أشار الباحزرى فى ترجمة بعض ادباء خراسان الى شئ من ذلك اه توفى سنة ٤٠١ وضبط القاشانى بالقاف والشين المنقوطة

« ابن فارس اللغوى »

ابو الحسين احمد بن فارس بن زكريا بن محمد الرازي اللغوى كان اماماً فى علوم شتى خصوصاً اللغة فانه اتقنها والف كتابه المجمل فى اللغة وهو على اختصاره جمع اشياء كثيرة وله رسائل أنيقة ومسائل فى اللغة يعايي بها الفقهاء ومنه اقتبس الحريرى ذلك الاسلوب في مقامته التى وضع فيها مائة مسئلة وعنه اخذ البديع الهمذاني ومن نظامه

اذا كنت في حاجة مرسلا — وانت بها كلف مغرم
فأرسل حكيماً ولا توصه — وذاك الحكيم هو الدرهم

ولـه

سقى همذان الغيث لست بسائل — سوى ذا وفى الاحشاء نار تضرم
ومالى لا أصفى الدعاء لبلدة — افدت بها بستان ما كنت اعلم
نسيت الذى احسنته غير اننى — مدين وما فى جوف بيتى درهم

ولـه

وقالوا كيف حالك قلت خير — تقضى حاجة وتفوت حاج

اذا ازدحمت هموم الصدر قلنا　　عسى يوماً يكون لها انفراج
نديمى هرتي وأنيس نفسى　　دفاتر لى ومعشق فى السراج

توفى سنة ٣٩٠

جَحَظَة

ابو الحسين احمــد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك المعروف بجحظة البرمكي كان فاضلا صاحب فنون واخبار ونجوم ونوادر ومنادمة واشعار ومن شعره

فقلت لها بخلت عليّ يقظى　　فجودى في المنــام لمستهام
فقالت لى وصرت تنام ايضاً　　وتطمع ان ازورك في المنــام

ولــه

اصبحت بين معاشر هجروا الندى　　وتقبلوا الاخلاق من اسلافهم
قوم احاول نيلهــم فكأنمــا　　حاولت نتف الشعر من آنافهم
هــات اسقنيها بالكبير وغننى　　ذهب الذين يعاش في اكنافهم

ولـــه

وقائلة لى كيف حالك بعــدنا　　أفى ثوب يسر أنت أم ثوب مُعْسِر
فقلت لهــا لا تسأليني فاننى　　اروح واغــدو فى حِرامٍ مقتر

توفى سنة ٣٢٦

ابن الخياط

الشاعر المفطور صاحب الديوان المشهور ابو عبد الله احمد بن محمد التغلبي المعروف بابن الخياط طاف البلاد واستدح الناس ودخل بلاد العجم دخل مرة الى حلب وهو رقيق الحال لا يقدر على شيء فكتب الى ابن حبوس الشاعر المشهور

لم يبق عنــدى ما يباع بحبة　　وكفاك منى منظرى عن مخبرى
الا بقيــة ماء وجــه صنتها　　من ان تباع وأين اين المشتري

وقصيدته البائية كفاه بها تعريفاً بفضله وهى التى اولها. خذا من صبا نجد اماناً لقلبه.

توفى سنة ٥١٧

الحافظ ابو الفضل

محمد بن طاهر المقدسی ذکره الامام العلامة الحافظ عبد الکريم بن السمعانی فی ذيله علی تاريخ بغداد وقال في أثناء ترجمته كان بحراً فی الحديث وقال ايضاً في أثناء الترجمة ردا علی الطاعنين فيه وفضل محمد بن طاهر ومعرفته بعلم الحديث وتصانيفه وتبحره لا ينكر ومن أنكر من مشايخنا عليه فانما انكر سيرته واملـه تاب - ونقل عن ابی الحسن بن ابی طالب الكرخی الفقيه انه قال عنه ما كان علی وجه الارض له نظير ثم نقل عنه انه صنف كتاباً فی جواز النظر الی المرد وانه قال رأيت جارية بمصر مليحة صلی الله عليها فقيل له تصلی عليها فقال صلی الله عليها وعلی كل مليح ونقل ايضاً عنه حكاية خرج منها انه كان فی غاية الفقر وملخصها ان الحال اعوزته وهو يكتب الحديث ولم يبق معه غير درهم وهو محتاج الی كاغد والی خبز فردده بين الامرين يوماً وثانيه فلما كان اليوم الثالث قال لم يبق الا الخبز فاني ان اشتريت به كاغداً لا أقدر علی النسخ لاجل الجوع فوضعه فی فيه وخرج ليشتری به فاتفق انه ابتلعه فأخذه الضحك فلقيه ابو طاهر الصانع فسأله عن سبب ضحكه فكتمه اياه فألح عليه فامتنع فحلف عليه بالطلاق ليخبرنه الخبر فأخبره بالحال فحمله الی البيت وتسبب له فی دراهم كثيرة اه ملخصاً

ابو العلاء محمد بن محمد بن صالح بن الهبارية

كان اماماً فی علوم الادب بحراً فی النظم والنثر سلس الشعر مع قوة المعنی وصحة المبنی ومن نظمه يمدح امين الدولة بن التلميذ وكان نصرانياً وكان محمد بن الهبارية شريفاً عباسياً

يا بني التلميذ لو وافيتكم	لم تكن نفسی بأهلی شغفَهْ
انما طلقت كِرمان بكم	انكم لی عوض ما أشرفَهْ
برئيس الحكماء المرتجی	انه لی جَنّة مُخْترَفَهْ
شمس مجد لا تراها أبداً	عن سموات العلی منكسفَهْ

جل ان يدرك وصفٌ مجدَه | انه اكثر من كل صفه
لوتمكنت لكانت جملتي | فى زوايا داره معتكفه
فيه تفتخر الدنيا التي | اصبحت من غيره مستنكِفه
انما اخبو بني التلميذ بال | مدح اذ كلهم ذو معرفه
فابن يحيي منهم محيي الندا | زاد فى الجود على من خلفه
حقق الكنية من والده | كرماً فيه وطبعاً ألفه
وهم من صاعد عن سادة | بأبي مجدهم ما أنطفه
لا تقسهم بالورى كلهم | فتقس لب السرى بالجعدفه
فابن ابراهيم لَاهُوتُ العلى | من دعاه بشراً ما أنصفه
يا رئيس الحكماء استجلها | من بنات الفكر بكراً مترفه
انني انفدت نجلي قاصداً | اشتكي دهراً قليل النَّصَفه

قلت وقوله فابن يحيي منهم يحيي الندا الخ أراد به ابو الفرج يحيي بن التلميذ وهو يحيي بن صاعد بن يحيي بن التلميذ الملقب معتمد الملك وله فيه مدائح غيرها فمنها قوله

يحيي بن صاعد بن يحيي لم يزل | للمكرمات الى حِيالي جالبا
ما زال يُغريني عُلاه ولم ازل | بعلاه ما بين البرية خاطبا

ومنها

لا تحوِجنّ أخاك لابل عبدك الـ | ـقِنَّ بن عبدك ان يروم اجانبا
فلأنت اولى بي لما عودتني | عمن غدا لي فى الاصول مناسبا
ثقةَ الخلافة سيدَ الحكماء معـ | ـتمدَ الملوك الفيلسوفَ الكاتبا
مازِحْ وطايِبْ ما استطعت فما الفتى | ممن يكون ممازحاً ومطايبا
وفداك من نُوَب الزمان وصَرْفه | قوم يزيدون الزمان معايبا

وسبب ذلك أنه أتاه الى اصفهان فحصَّل له مالا جزيلا من كبارها

ابن المنير

ابو الحسين احمد بن المنير الطرابلسي الملقب مهذب الدين عين الزمان الشاعر المشهور مهر في اللغة والادب وقال الشعر فأجاد قدم دمشق وسكنها وكان كثير الهجاء بذى اللسان ولما كثر منه ذلك سجنه نورى بن اتابك صاحب دمشق وعزم على قطع لسانه فشفع فيه ونفى وله من جملة قصيدة

واذا الكريم رأى الخمول نزيله　　فى منزل فالرأى أن يتحولا
كالبدر لما ان تضاءل جد في　　طلب الكمال فحازه متنقلا

ومنها

لله على بالزمان وأهله　　ذنب الفضيلة عندهم أن تكملا
طبعوا على لؤم الطباع فخيرهم　　ان قلت قال وان سكت تقولا

توفى في جمادي الآخرة سنة ٥٤٨

النفيس

ابو العباس احمد بن ابى القاسم المنعوت بالنفيس كان من العلماء والادباء وله ديوان شعر جاد فيه — ذكره العماد فى الخريدة فقال فقيه مالكى المذهب له يد فى علوم الاوائل والادب ومن شعره

يسر العيد اقوام لهم سعة　　من الثراء وأما المقترون فلا
هل سرنى وثيابي فيه قوم سبا　　ام راقنى وعلى رأسى به ابن جلا

— توفى سنة ٦٠٣ بقوص بعد ان جاب البلاد واستجدى الناس بشعره

ابو الصلت

امية بن عبد العزيز الاندلسى كان اديباً ماهراً فى علوم الاوائل ذكره العماد فى الخريدة واثنى عليه ومن نظمه

وقائلة ما بال مثلك خاملا　　أأنت ضعيف الرأى ام أنت عاجز
فقلت لها ذنبي الى القوم انني　　لما لم يحوزوه من الفضل حائز

توفى سنة ٥٣٨

مَبْرَمان

النحوى شارح كتاب سيبويه وان كان لم يتمه هو ابو بكر بن محمد على العسكرى أخذ عن المبرد وتصدر بالأهواز — قال الذهبي كان وضيع النفس يأخذ من الطلبة و يطلب حمال قفص فيحمله الى داره من غير عجز وربما انبسط فبال على الحمال و يتنقل بالتمر فيحذف بنواه الناس - توفى سنة ٣٢٧ ولقبه المبرد مبرمان لكثرة سؤاله له ومن مصنفاته كتاب علل النحو وكتاب التلقين وكتاب شرح شواهد سيبويه وكتاب شرح سيبويه وكان اذا ركب فى طبلية الحمال و بال عليه اعتذر له بقوله احسب انك حملت رأس غنم

ابو الحسن الربعى

علـى بن عيسى بن الفرج بن صالح ابو الحسـن الربعى النحوى الزبدى أحد أئمة النحو كان دقيق النظر فى النحو جيـد الفهم والقياس لازم ابا على الفارسى عشرين سنة فقال له ابو على ما بقيت تحتاج الىّ ولو سرت من الشرق الي الغرب لم تجـد أنحى منك ومن تصانيفه شرح الايضاح للفارسي وكتاب شرح مختصر الجرمى وكتاب البديع في النحو وكتاب المبنى على فعال وكتاب التنبيه على خطا ابن جـني فى تفسـير شرح المتنبي وكتاب شرح سيبويه وكان يرمى بالجنون مر يوماً بسكران ملقى على قارعة الطريق فحل سراويله وجلس على أنفه وجعل يضرط وينشد

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

ونازعه يوماً شخص فى مسئلة فعمد الى شرحه لكتاب سيبويه فوضعه في اجانة وصب عليه الماء وغسله وجعل يلطم الحيطان ويقول جزاء من يجعل اولاد البغالين نحاة وسأل من تلامذته ان يركبوا معه الى كلواد فظنوا حاجة عرضت فركبوا معه وعرضوا عليه الركوب فأبى فلما صار بحذائهم اوقفهم على سلم واخذ كساء وعصا وما زال يعـدو على كلب هناك وهو يهرب منه تارة ويثب عليه اخرى حتى اعياه ذلك فعاونوه عليه فامسكه وعضه عضاً شديداً وقال هذا عضنى منذ ايام فاردت اخالف فيه قول الشاعر

شاتمني عبد بنى مسمع فصنت عنه النفس والعرضا
ولم أجبه لاحتقاري له ومن يعض الكلب ان عضا

توفي سنة ٤٣٠

القالى

ابو الحسن على بن احمد بن على القالى كانت له نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد وكان كلفا بها فدعته الحاجة الى بيعها فباعها فاشتراها الشريف المرتضى فوجد فيها أبياتاً بخط بائعها ابى الحسن القالى المذكور

انست بها عشرين حولا وبعتها فقد طال وجدى بعدها وحنينى
وما كان ظنى اننى سأبيعها ولو خلدتنى فى السجون ديونى
ولكن لضعف وافتقار وصبية صغار عليهم تستهل جفوني
فقلت ولم املك سوابق عبرة مقالة مكوى الفؤاد حزين
وقد تخرج الحاجات يا ام مالك ودائع من رب بهن ضنين

البيهقى

احمد بن الحسين بن على بن عبد الله بن موسى البيهقى الخسروجردي الامام ابو بكر وخسروجرد بضم الخاء المعجمة وسكون السين المهملة وفتح الراء وسكون الواو وكسر الجيم وسكون الراء وفى آخره دال هو الامام الجليل الحافظ الفقيه الاصولى القائم بنصرة مذهب الشافعى صاحب التصنيفات له كتاب السنن الكبير وكتاب المبسوط فى نصوص الشافعى وكتاب دلائل النبوة وكتاب شعب الايمان وكتاب معرفة السنن والآثار — قال تقي الدين السبكي معناه معرفة الشافعى بالسنن والآثار وغير ذلك قال تاج الدين السبكي فى الطبقات كان على سيرة العلماء قانعا من الدنيا باليسير متجملا فى زهده وورعه — توفى في نيسابور فى جمادى الاولى سنة ٤٥٨

« أبو سعيد الاصطخرى »

الحسن بن احمد بن يزيد بن عيسى الامام الجليل ابو سعيد الاصطخرى القاضي

قال الخطيب احد الائمة المذكورين من شيوخ الفقهاء الشافعيين كان ورعاً زاهـدا متقللا قال الطبرى وحكي عن الداركي انه قال ما كان ابو اسحاق المروزى يفتى بحضرة الاصطخرى قال ابو اسحاق المروزى سئل يوماً ابو سعيد عن المتوفى عنها زوجها اذا كانت حاملا هل تجب لها النفقة فقال نعم فقيل ليس هذا من مذهب الشافعي فـلم يصدق فأراه كتابه فلم يرجع وقال ان لم يكن مذهبه والا فهو مذهب على وابن عباس قال ابو اسحاق فحضر يوماً مجلس النظر مع ابي العباس بن شريح فتناظرا فجري بينهما كلام فقال له ابو العباس انت سئلت عن مسئلة فأخطأت فيها وانت رجل كثرة اكل الباقلاء قد ذهبت بدماغك فقال له ابو سعيد وانت كثرة اكل الخل والمري قد ذهب بدينك — قال الطبرى وكان من الورع والزهد بمكان لم يصله سواه يقال انه كان قميصه وعمامته وسراويله وطيلسانه من شقة واحدة وكانت فيه حدة وله تصانيف كثيرة فمنها كتاب أدب القضاء ليس لاحد مثله ومن مفردات مسائله قوله انه ينتقض الوضوء بمس الامرد — توفى ببغداد فى ثاني الجمادين سـنة ٣٢٨ نقلته من طبقات السبكي

السيد ركن الدين

الحسن بن محمد بن شرفشاه العلوي الحسينى الاسترابادى تلميذ النصير الطوسى ابو الفضائل له عدة مصنفات منها شرح اصول ابن الحاجب وشرح مقدمته فى النحو وشرح الحاوى شرحين وكان له ادرارات وجوامك كل يوم ستون درهماً كان يعيـد دروس النصير الطوسى في الحكمة قال الشيخ شهاب الحسباني ومن خطه نقلت وكان فى دينه رقة — توفى سنة ٧١٨ بالموصل

ابو هفان

عبد الله بن احمد بن حرب بن خالد ابو هفان النحوى اللغوى روي عن الاصمعي وصنف كتباً منها كتاب صناعة الشعر كبير وكتاب اخبار الشعراء قرأت بخط الحسبانى انه كان مقتراً عليه ضيق الحال وان دعبلا الخزاعى اضافه وسقاه نبيذاً حلواً ووصى الجوارى بن لا يدلوه على الخلاء ثم تركه ونام فقال لبعض الجوارى اين الخلاء فقالت لها الاخرى

ما يقول سيدى فقالت يقول غنى

خلا من آل عاتكة الديار ‏ ‏ ‏ ‏ فثوى اهلها منهم قفار

فغنت هذه وصرخت هذه وشربوا اقداحاً فقال احسنتم غير انكم لم تأتوا على مافى نفسي فلما اجهده الامر قال لعل الجارية بغدادية لا تعرف الخلاء فقال لها اين المستراح ففعلوا كفعلهم الاول فقال لعلهن حجازيات اين الحش ففعلوا كذلك ثم قال لعلهن كوفيات اين الكنيف فأعادوا ذلك فحل سراويله وذرق فى وجوههن فانتبه دعبل وامر له بثياب وهي حكاية طويلة قال سعيد بن حميد لابى هفان لان ضرطت عليك ضرطة لأ بلغنك الى قَيْدٌ(57) فقال له ابو هفان أسعدني بأخرى تبلغني الى مكة فانى ما حججت بعد — مات سنة ٢٥٥

« الرياشي »

العباس بن الفرج الرياشي مولاهم قال المبرد سمعت المازنى يقول قرأ الرياشي عليّ كتاب سيبويه فاستفدت منه أ كثر مما استفاد مني يعني انه أفاده لغته وشعره وافاده هو النحو قال المبرد وكان الرياشى والله أحمق ومن حمقه انه اذا كان صائماً لا يبلع ريقه

« ابن بابشاذ »

النحوى البصرى العلامة طاهر بن احمد بن بابشاذ ابو الحسن كان يأ كل يوماً مع بعض أصحابه طعاماً فجاء قط فرمي اليه بشيء فأخذه وذهب به وعاد سريعاً ثم فعل ذلك مرة بعد أخري فعلم ان له سبباً فاتبعوه فاذا بقط آخر أعمي فى سطح فقال الشيخ هذا حيوان بهيم قد ساق الله له رزقه أفلا يرزقنى وأنا عبده فترك علائقه الدنيوية ولزم غرفة في جامع عمرو بن العاص وأقبل على العلم وجمع تعليقه فى النحو قريباً من خمسة عشر مجلداً وأصحابه كابن برّي وغيره ينقلون منها ويسمونه تعليقة الغرفة وكان له معلوم ورواتب على قراءته للكتب التى يكتبونها عن السلطان واصلاحها تعرض عليه قبل أن تحمل الي الجهة التى عينت لها ـ سقط من سطح جامع عمرو بن العاص فمات من وقته سنة ٤٦٩

عبد الرحمن

ابن محمد بن عبيد الله بضم العين مصغر ابن ابي سعيد كمال الدين ابو البركات الانبارى النحوي صاحب التصانيف المفيدة منها هداية الذاهب في معرفة المذاهب وبداية الهداية فى الاصول والداعي الى الاسلام في الكلام والنور اللائح فى اعتقاد السلف الصالح وفى الادبيات ما يزيد على خمسين مصنفاً انتهت الرحلة اليه بالعراق من سائر الاقطار — قال الموفق عبد اللطيف لم نر فى العباد والمنقطعين اقوى طريقة ولا اصدق منه فى اسلوبه جدّ محض لا يعتريه تصنع ولا يعرف السرور ولا احوال العالم كان له من ابيه دار يسكنها ودار وحانوت مقدار اجرتها نصف دينار فى الشهر يقنع به و يشتري منه ورقاً ولا يوقد عليه ضوأ وتحته حصير قصب وعليه ثوب وعمامة قطن يلبسهما عند المضي الى الجمعة ويلبس فى بيته ثوباً خلقاً ولا يخرج منه الايوم الجمعة وسير اليه المستضيء خمسمائة دينار فردها فقال له اجعلها لولدك فقال ان كنت خلقته ارزقه — توفى ليلة الجمعة تاسع شعبان سنة ٤٧٧ ودفن في تربة الشيخ ابى اسحاق الشيرازي

الواحدى

على بن احمد بن محمد ابو الحسن الواحدى كان مفسراً نحوياً لغوياً اصولياً انفق فى صباه مالا على تحصيل العلم وكان من أولاد التجار وذكر فى مقدمة تفسيره الذى سماه البسيط أشياخه ومن قرأ عليه قيل للغزالى لما صنف كتبه ما عملت شيئاً أخذت الفقه من امام الحرمين من نهايته وأسماء الكتب من الواحدى وكان الغزالى يقول من أراد أن يسمع التفسير كأنه من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعليه بتفسير الواحدى وله كتاب نفي التحريف عن القرآن الشريف وغيره وكان عديم النظير الا انه كان يبسط لسانه في العلماء — توفي سنة ٤٦٨

(ابن برهان)

عبد الواحد بن على بن عمر بن اسحاق بن ابراهيم أبو القاسم بن برهان النحوي الاسدى العكبرى صاحب العربية والنحو والتاريخ وأيام العرب قرأ على عبد السلام

البصري وأبي الحسن التميمي كان فيه شراسة على من يقرأ عليه وكان الطلبة يمشون حوله يميناً وشمالا وهو يلقي عليهم المسائل وتكبر عـلى أولاد الرؤساء وكان يتعصب لمذهب أبي حنيفة وكان يحب الباذنجان و يقول فى تفضيله الناس يأكلونه ثمـانية أشهر فى العام وهم أصحاء ولو أكلوا الرمان أربعة أشهر فلجوا . قرأت بخط الشيخ شهاب الدين الحسباني انه كان على امامته وديانته يحب مشاهدة المليح و يقبل أولاد الامراء والاتراك وأرباب النعم بمحضر من آبائهم ولا ينكرون عليـه ذلك لعلمهم بدينه وورعه — توفى سنة ٤٤٦ قال ولم يكن يلبس سراويل ولا على رأسه غطا

« الحريرى »

صاحب المقامات القاسم بن على بن محمد بن عثمان أبو محمـد البصرى الحرامى الحريرى أحد الأئمة فى النظم والنثر وعمل بعد الحريرى مقامات كثيرة. مقامات ابن الصقيل. مقامات أبى العباس يحيي النصرانى المعروفة بالمسيحية . مقامات أبى الهيجاء شهنيروز . شرح المقامات ابن ظفر شرحين كبير وصغير والمطرزى والشريشى وغير واحد قيل وكانت مسوداتها نحو حمل جمل سمع الحريرى من أبي تمام محمد بن الحسن بن موسى المقري وأبي القاسم بن الفضل المقصافى الاديب وقرأ النحو على أبي الحسن بن فضال المجاشعي شيخ امام الحرمين فى العربية وتفقه على الشيخ أبي اسحاق الشيرازى كان الحريري غنياً له ثمانية عشر الف نخلة كل نخلة فى سنة بدينار وقيل انه كان قذراً فى نفسه وشكله ولبسه قصيراً ذميا بخيلا مولعاً بنتف ذقنه وحكي بعض اهل الادب ان الحريرى لمـا قـدم بغداد وكان الناس يهتفون بفضائله و يتطلعون الى لقائه فحضر اليـه ابن حكينا المعروف بالبرغوث الشاعر فلم يجده على ما كان في ظنه فنظم أبياتا

شيخ لنـا من ربيعة الفرس ينتف عثنونه من الهـوس
أنطقـه الله بالمشَّان وقد ألجمـه فى العراق بالخرس

وقيل ان الحريري حضر مجلساً فذكروا فيه قول بعض الادباء ان لم يكن لنا طمع في دركك دركك فاعفنا من شركك شركك استحسنها الحاضرون فعمل الحريرى فى الحال

ان لم تدننا من مبارك مباركٌ فأعدنا عن معارك معارك و بلغه ان صاحباً له يسمى أبا زيد المطهر بن سلام البصري الذى عمل المقامات على لسانه شرب مسكراً فكتب اليه ابا زيد اعلم ان من شرب الطلا تدنس فافهم سر قولى المهذب ومن قبل سميت المطهر والفتى يصدق بالافعال تسمية الاب فلا تحْسُبَا كي ماتكون مطهراً والا فغيرذلك الاسم واشرب

ابو العباس

احمد بن الحسين النحوى الموصلي المعروف بابن الخباز كان من علماء النحو وفرسانه اديباً لطيف الروح عذب العبارة حسن النظر كثير الاطلاع والحفظ قال ابن هشام مصنف المغنى فيما وجدته بخطه وكأنه كان غير منصف من اهل زمانه وقد وقفت له على عدة تآليف يشكو فيها حاله فمن ذلك قوله فى خطبة كتابه الذى سماه الفريدة فى شرح القصيدة وهى قصيدة ابي عثمان سعيد بن المناس الشهير بابن الدهان فان اصبت فمن فضل الله الرحيم وان اخطأت فمن الشيطان الرجيم ومن علم حقيقة حالى عذرنى اذا قصرت بان عندى من الهموم ما يزع الجنان عن حفظه ويكف اللسان عن لفظه ولو ان ما بى بالجبال لهدها وبالنار اطفأها وبالماء لم يجر وبالناس لم يحيوا وبالدهر لم يكن وبالشمس لم تطلع وبالنجم لم يسر وانا اسأل الله العظيم ان يكفيني شر شكواى وان لا يزيدني على بلواى فانى كلما اردت خفض العيش صار مرفوعاً وعاد بالحزن سبب المسرة مقطوعاً والله المستعان في كل حال ومنه المبدأ واليه المآل نقلت ذلك كله من خط العلامة جمال الدين بن هشام مصنف المغنى وقال المصنف رحمه الله نقلت من خط الشيخ نور الدين الابيارى الصعاليك من العرب عروة بن الورد العبسى وتأبط شرا الفهمى والشنفرى الازدي أزد شنوءة وعمرو بن معدى كرب الزبيدي والاسعر بن مالك الاودى وعمرو بن برّاق الهمداني وشراحيل بن الاشهب الجعفى وابو خراش الهذلى وعمرو ذو الكلب الهذلى ونقلت من خطه ايضاً قال الذهبي كان في الاشعر دعابة ومزح كثير وكان يقنع باليسير وكان له بعض قرية من وقف جدّهم الامير جلال بن أبي بردة ويقال انه بقي الى سنة ٣٣٠

الفصل الحادى عشر

فى مباحث تتعلق بالفصل قبله ومن المباحث النكبات الحاصلة للاعيان لا يحملنك قلة من عددنا في الفصل قبله من العلماء الذين تقلصت عنهم الدنيا على توهم انبساط الدنيا على غالب العلماء أو معظمهم واعتقاد تمتعهم بها فان لانحصارهم في العدد المذكور فى الفصـــل قبله أسباباً منها انا لم نذكر من العلماء الا من زويت عنه الدنيا ولم يترجم بزهد وشدة تقشف وردّ للدنيا واعراض عنها وسقط بذلك طائفة كثيرة مثل الشيخ

(محيي الدين النواوى)

يحيي بن شرف بن مرى مع انه كان لا يأكل الا أكلة بعد عشاء الاخيرة ولا يشرب الا شربة واحدة عند السحر ولا يشرب الماء المبرد ولا يأكل من فاكهة دمشق معللا ذلك بان الاوقاف والاملاك للمحاجير فيها كثيرة والتصرف لهم لا يجوز الا علي وجه الغبطة والمعاملة فيها على وجه المساقاة وفيها خلاف والناس لا يفعلونها الا على جزء من الف جزء للمالك وكان لا يدخل الحمام ولم يتزوج ولم يشرب الفقاع ومأكله كعك يابس وتين حوران يأتيه به ابوه وملبسه الثياب المرقعة توفى سنة ٦٧٦

ومثل السهروردى

صاحب عوارف المعارف امام وقته لسانا وحالا وعلماً وعملا مع انه عمي فى آخر عمره واقعد ومات ولم يخلف كفناً — توفى سنة ٦٣٢

والحسن بن العباس الرسخى

الاصفهانى مع انه كان يسمع عليه الحـــديث وهو فى رثاثة من الملبس والمفرش بحيث لا يساوى طائلا كما ذكره ابن كثير فى طبقاته — توفى سنة ٥٦١

ومثل ابراهيم بن اسحاق

ابن بشير ابو اسحاق الحوى احد الأئمة فى الفقه والحديث وغير ذلك امام مصنف عالم يقاس بالامام احمد شيخ الدارقطنى كان يقول الرجل الذى يدخل غمه على نفسه

ولا يدخله على عياله وقد كان بي شقيقة[58] منذ خمس واربعين سنة ما اخبرت بها احدا قط ولي عشر سنين ابصر بفرد عين ما اخبرت به احداً أنفق على نفسه وعياله فى بعض الرمضانات درهما واربعة دوانيق ونصفا وبعث اليه المعتضد بعشرة آلاف درهم فابي ان يقبلها فرجع الرسول يقول له قال لك امير المؤمنين فرقها على جيرانك فقال هذا شئ لا نجمعه ولا نفرقه اما أن يتركنا واما أن نتحول من بلده — توفى لتسع بقين من ذي الحجة سنة ٢٨٤ **وكغيرهم من العلماء والاولياء**

ومنها انا لم نذكر أيضاً من لم ينص على فقره صريحاً او بلازم واضح وكثيراً مايقول المترجمون كان متقللا ويقتصرون عليه فلا أذكره مع الظن بانه من المستحقين للذكر فى الفصل قبله فمن ذلك (ابن الانبارى) عبد الرحمن بن محمد بن الانبارى صاحب أسرار العربية والمصنفات التى تزيد على مائة تصنيف فانهم قالوا في ترجمته انقطع للعبادة والعلم صابراً على خشن العيش والتقلل منه — توفي سنة ٣٧٧ - ومنه (عزيزي بن عبد الملك الشافعي المعروف بشيدله) صاحب مصارع العشاق فانهم قالوا في ترجمته كان زاهداً متقللا من الدنيا — توفي سنة ٤٩٤ — ومنه (المبارك) بن محمد ابن عبد الله السوادى الواسطى نزيل نيسابور أحد اركان الفقهاء المكثرين الحافظين للمذهب القوى المناظرة قالوا في ترجمته كان متجملا قانعاً باليسير ومع ذلك ما ذكرته وغيرهم ممن لم يتضح لى فقره الا بلازم ضعيف أو عبارة مُجَمْجَمَة[59] وسقط بذلك طائفة كبيرة — ومنها انا لم نذكر كل من شدا أطرافا من العلم كيف ما كان وقعدت عنه الدنيا بل انما ذكرنا الاعيان وسقط لذلك طائفة كبيرة — ومنها انى لم أذكر الا من صرح بفقره او بلازم فقره الجلى أما من لم يصرح بفقره ولا بغناه ولا يسند اليه تولية منصب ولا تدريس بل ترجموه بالعلم وسَيّبوه[60] فلم أذكره وفيه بحث لانه لا يلزم من عدم ذكر الفقر عدم الفقر ولا يقال هو معارض بمثله لانه لا يلزم من عدم ذكر الغنى عدم الغنى لانا نقول لكن الترجيح معنا لما ان المؤرخين بصدد ذكر كمالات المترجم حتى انهم يذكرون تداريس لا يعبأ بها فى بعض التراجم فلو كان لذكر لتوفر الداعية على نقله فلما لم يذكر علم انه لم يقع وسقط بذلك طائفة كثيرة مثل (ابن الحاجب) ابى

عمرو عثمان المالكي المتوفي سنة ٦٤٦ ومثل (ابن عصفور) على بن مؤمن بن محمد العلامة الاشبيلي المتوفى سنة ٦٦٤ ومثل ابى محمد عبدالله (ابن الخشاب) وغيرهم من العلماء الائمة ومثل (الزمخشرى) ومن نظمه

خليليّ هل تجدى عليّ فضائلي	اذا انا لم ارفع على كل جاهل
من الغبن ذو نقص ينال منازلا	اخو الفضل محقوق بتلك المنازل
كفى حزناً ان يرغم العلم والحجا	بضد زياد طيشه غير عاقل
ومن لى بحق بعد ما وقرت على	اراذلها الدنيا حقوق الاماثل
كذا الدهر كم شوها، فى الحلى جيدها	وكم جيد حسناء المقلد عاطل
ومما شجانى ان غُرّ مناقبي	يغنى بها الركبانُ بين القوافل
وطارت إلى اقصى البلاد قصائدى	وسارت مسير النيرات رسائلى
وكم من أمالٍ لى وكم من مصنّف	اصاب بها ذهني محز المفاصل
غنى من الآداب لكننى اذا	نظرت فما فى الكف غير الانامل
فيا ليتنى أصبحت مستغنياً ولم	اكن فى خوارزم رئيس الافاضل
ويا ليتنى مرضٍ صديقٍ ومسخط	عدوّي وأني فى فهاهة باقل
فلست بفضلى بالغاً ولو اننى	كقُسّ إياد او كسحبان وائل
وما حق مثلى ان يكون مضيقاً	وقد عظمت عند الوزير وسائلى
فلا تجعلونى مثل همزة واصل	فيسقطنى حذف ولا راء واصل
فكل امرئ امثاله عدد الحصا	وهات نظيرى في جميع المحافل
فوقع الى هذا الزمان فانه	غلامك يجعلني كبعض الاراذل

(ومنها) انا لم نذكر من ترجم بفقر ثم بغنى زائد تغليباً لجانب الغنى المتأخر وسقط بذلك ايضاً طائفة (ومنها) ان الكتب والزمان لم يساعدا على استيفاء هذا المقام واعطائه حقه فلعل مالم نره اكثر مما وقفنا عليه (ومنها) انا لم نذكر الا ما وقفنا عليه فى كتاب معتمد وضع للتراجم اما الكتب الادبية ففيها اشياء كثيرة لم اذكرها (منها) ما في العقد لابن عبد ربه وشرح الزيدونية لابن نباتة ان ابا الاسود الدؤلى النحوى

وسهل بن هارون الملقب بُزُرْجِمْهر الإسلام والكندى الامام فى العلوم العقلية الملقب بفيلسوف العرب كانوا في غاية البخل وفى عــدم ذكر ابي الاسود الدولى معني آخر هو جلالته وصيانته عن نسبة البخل اليه (ومنها) انى لم اذكر فى الفصل قبله فى النكبات العارضة للاعيان فقلما خلا عالم او نبيل من نكبة وانا اذكر هنا طرفاً لائقاً بمقصودى من ذوى النكبات

« مالك بن انس »

ابن ابي عامر بن الحرث بن غيمان بالغين المعجمة ابو عبد الله الامام المدنى احد أئمة الاسلام سعى به الى جعفر بن سليمان بن على ابن عم ابي جعفر المنصور فدعا به وجرّده وضربه سبعين سوطاً ومدت يداه حتى انخلع كتفاه وسبب ضربه انهم سألوه عن مبايعة محمد بن عبــد الله بن حسن وقالوا له ان فى اعناقنا مبايعة ابي جعفر فقال انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين فأسرع الناس الى محمد فسعى به فضرب لذلك ثم لم يزل بعده في علو ورفعة كأنما كانت تلك السياط حليا تحلى بها — توفى سنة ١٧٤

أبو حنيفة

النعمان بن ثابت الفقيه الكوفى احد الائمة المتبوعين كان يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراقين فأراده لقضاء الكوفة ايام مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية فأبى فضربه مائة ســوط وعشرة اسواط كل يوم عشرة أسواط وبقى عــلى الامتناع وسجنه فتوفى بالسجن فى احد القولين سنة ١٥٠ ببغداد

الامام احمد بن حنبل

أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني المروزى ثم البغدادى استحوذ عــلى المأمون جماعة من المعتزلة وقوّلوه بخلق القرآن فمنّ له بطرسوس ان يكتب الى نائب بغداد اسحاق بن ابراهيم بن مصعب يأمره ان يدعو الناس الى القول بخلق القرآن فكان ذلك اول الفتنة وكان ذلك آخر عمر المأمون قبل موته بشهور سنة ٢١٨ فلما وصل الكتاب استدعي جماعة من العلماء فامتنعوا فهــددهم بالضرب وقطع الارزاق

فاجاب أكثرهم مكرهين واستمر على الامتناع احمد بن حنبل ومحمد بن نوح الجيدسابوري فحملا على بعير متعادلين مقيدين الى الخليفة عن امره بذلك ثم جاء الصريخ بموت المأمون في الثلث الاخير ثم جاء الخبر بان المعتصم قد ولى الخلافة وان الامر شديد فرد الى بغداد فى سفينة مع بعض الاسارى ومات محمد بن نوح فى الطريق وأودع الامام احمد السجن ببغداد نحواً من ثمانية وعشرين شهراً ثم احضره المعتصم فى قيوده واجاسه فجاس ودعاه الى القول بخلق القرآن فامتنع وقال فما قال ذلك ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الى شهادة ان لا اله الا الله وأنا اشهد ان لا اله الا الله وان القرآن علم الله ومن علم ان علم الله مخلوق فقد كفر اعطونى شيئاً من كتاب الله او سنة رسوله حتى أقول به وناظره احمد بن ابي داود وغيره وانكروا الآثار التى أوردها وقالوا للمعتصم هذا أكفرك وا كفرنا وقال له اسحاق بن ابراهيم نائب بغداد يا امير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة ان تخلى سبيله ويغلب خليفتين فعند ذلك حمى واشتدغضبه فأخذ وجيء بالعقابين والسياط وضربه ضرباً مبرحاً شديدا حتى أغمى عليه وغاب عقله وامر باطلاقه الى اهله فنقل وهولا يشعر ولما شفي من الضرب بقى مدة وابهاماه يؤذيهما البرد وكان الضرب فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ٢٢١ وتوفى سنة ٢٤١

البويطى

يوسف بن يحيي البويطي صاحب الامام الشافعي كان الشافعي يسئل عن الشئ فيحيل عليه فاذا اجاب قال هو كما اجاب وقال عنه الشافعي هو لسانى حمل الى بغداد فى ايام الواثق بالله من مصر وفى عنقه غل وفى رجليه قيد و بين الغل والقيد سلسلة حديد فيها طوق وزنتها اربعون رطلا وارادوه على القول بخلق القرآن فامتنع ومات بالسجن في قيوده سنة ٢٣١

البخارى

ابو عبد الله محمد بن اسماعيل أراد منه خالد بن احمد الذهلي ان يأتيه فى بيته

يسمع اولاده فأبي وقال «في بيته يؤتى الحكم» فاتفق ان جاءه كتاب من محمد بن يحيى الذهلي من نيسابور بأن البخارى يقول بأن لفظه بالقرآن مخلوق وكان قد وقع بين محمد ابن يحيى الذهلي وبين البخارى فى ذلك كلام وصنف البخارى في ذلك كتابه خلق افعال العباد فأراد الأمير ان يصرف الناس عن السماع من البخارى فلم يقبلوا فأمر عند ذلك بنفيه من البلاد فخرج منها ودعا على خالد بن احمد فلم يمض شهر حتى أمر ابن طاهر بأن ينادى على خالد بن احمد على اتان وزال ملكه وسجن ببغداد حتى مات فبرح البخارى الى بلد يقال لها خرتنك — فمات سنة ٣٥٦ نقلته بلفظه من تاريخ ابن كثير

« النسائي »

احمد بن على بن شعيب النسائي صاحب السنن امام عصره والمقدم على اضرابه رحل الآفاق وأخذ عن الحذاق وكان ينسب الى شئ من التشيع قالوا دخل دمشق فسأله أهلها ان يحدثهم بشئ من فضائل معاوية فقال ما يكفى معاوية ان يذهب رأساً برأس حتى يروى له فضائل فجعلوا يطعنون فيه حتى اخرج من الجامع فسار الى مكة فمر بالرملة فسئل عن فضائل معاوية فامسك عنه فضربوه في الجامع فقال اخرجونى الى مكة فأخرجوه وهو عليل — فتوفى بمكة مقتولا شهيداً سنة ٣٠٣

« أبو عمرو »

عيسى الثقفى النحوى شيخ سيبويه صاحب كتاب الجامع الذي قيل ان سيبويه اخذه وزاد عليه ما استفاده من الخليل ونسبه اليه اودعه شخص وديعة فنمى الخبر الى يوسف بن عمر امير العراقين فكتب الى نائبه بالبصرة يأمره ان يحمل اليه عيسى بن عمر مقيداً فدعا به ودعا حدادا وامره بتقييده فلماقيده قال له لا بأس عليك انما ارادك لتعليم ولده قال فما بال القيد اذاً فلما وصل اليه سأله فانكر فأمر بضربه فضرب بالسياط توفى سنة ١٤٩ كان كثير الاستعمال للغريب والتقعر في كلامه وهو القائل افرنقعوا عني قال يوماً لابي عمرو بن العلاء انا افصح من معد بن عدنان فاستنشده ابو عمرو بيتاً فيه

بدا بمعنى ظهر وقال له كيف تسنده الى جماعة الاناث اتقول بدين او بدان فقال بدين فقال اخطأت ولو قال بدان لاخطأ ايضا وانما أراد ابو عمرو تغليطه وانما الصواب بدون من بدا يبدو اذا ظهر وبدأ يبدأ اذا شرع فى الشئ معنى آخر ذكرت هذا استطرادا لاشتماله على فائدة

محمد بن الزيات

ابو جعفر بن عبد الملك وزير المعتصم ثم ابنه هارون الواثق ثم لما مات الواثق أشار هو بتولية ولده واشار القاضي احمد بتولية اخيه المتوكل وتم امر المتوكل فحقد ذلك عليه مضموماً الى حقده عليه القديم لانه كان يغلظ عليه في حياة الواثق تقرباً اليه وكان ابن الزيات قد صنع تنوراً من حديد فى ايام وزارته وله مسامير محددة الى داخله يعذب فيه الناس وكان يقول اذا استرحم الرحمة خور فى الطبيعة فلما اعتقله المتوكل ادخله التنور وقيده بخمسة عشر رطلا من الحديد ومات في التنور فوجد قد كتب فى التنور بفحمة

من له عهد بنوم يرشد الصب اليه
سهرت عيني ونامت عين من هنت عليه
رحم الله رحيما دلّ عينيّ عليه

— توفى سنة ٢٣٣

ابن الدهان

ناصح الدين ابو محمد سعيد المعروف بابن الدهان النحوى البغدادى شارح كتاب الايضاح والتكملة وكتاب اللمع لابن جنى وكان يفضل على ابى محمد الجواليقي وابن الخشاب وابن الشجرى المعاصرين له انتقل الى الموصل قاصدا جناب الوزير جمال الدين الاصفهانى المعروف بالجواد وكانت كتبه ببغداد واستولي الغرق فى تلك السنة على البلد فغرقت كتبه وكان خلف داره مدبغة ففاضت بالغرق الي بيته فتلفت كتبه بهذا السبب زيادة على تلف الغرق فارسل من احضرها له وكان قد افنى عمره فيها

فاشاروا عليه ان يطيبها بالبخور و يصلح ما امكنه فيها فبخرها باللاذن ولازمها بالبخور الى ان بخرها باكثر من ثلاثين رطلا لاذناً فطلع ذلك الى راسه وعينيه فاحـدث له العمى — توفي سنة ٥٦٩

ابن عطاء

ابو العباس احمد بن محمد بن عطاء احد أئمة الصوفية حدث عن يوسف بن موسى القطان والمفضل وغيرهما كانت له ختمة يتلوها ١٧ سنة يتدبرها مات ولم يكملها احضر في امر الحلاج وقد كتب الحلاج اعتقاده فسأله الوزير حامد بن العباس عما قاله الحلاج فقال من لا يقول بهذا فهو بلا اعتقاد فقال له الوزير ويحك تصوب مثل هذا الاعتقاد فقال مالك ولهذا عليك بما نصبت له من اخذ اموال الناس وظلمهم مالك والكلام مع هوءلاء السادة فامر الوزير بضرب شدقيه ونزع خُفّيْه وان يضرب بهما راسه فما زال يفعل به كذلك حتى سال الدم من منخريه وامر بسجنه فقيل له ايها الوزير ان العامة تتشوش بهذا فحمل الى منزله قال ابن عطاء اللهم اقتله اخبث قتلة واقطع يديه ورجليه فمات ابن عطاء بعد سبعة ايام سنة ٣٠٩ وقتل الحلاج قبله بعد ان ضُرب نحوا من الف سوط وقطعت يداه ورجلاه ثم احرقت جثته بالنار ونصبت يداه ورجـلاه ورأسه أياماً على الجسر وكان ذلك لست بقين من ذى الحجة سنة ٣٠٩ ثم مات الوزير مثل ما دعا عليه ابن عطاء مقطوع اليدين والرجلين مقتولا

« ابن شَنَبوذ »

المقري محمـد بن احمد بن ايوب بن الصلت ابو الحسين المقرى المعروف بابن شنبوذ روى عن ابي مسلم وبشر بن موسى وخلف وكان يختار حروفاً انكرها أهل زمانه عليه وصنف ابو بكر بن الانبارى محمد بن القاسم الحافظ الذى كان يحفظ في كل جمعة عشرة آلاف ورقة كتاباً في الرد عليه كان ابو بكر المذكور من اعلم الناس بالنحو والادب وكان لا يأكل الا البقالى ولا يشرب ماء الا قريب العصر مراعاة لحفظه عقـد لابن شنبوذ مجلس في دار الوزير ابي على محمد بن مقلة وادعي عليه بالحروف التى كان يقرؤها

فأقر بالبعض فضربه الوزير ابو على بالدرة على رأسه واستتيب فدعا على ابن مقلة فلم يفلح بعد ذلك — وتوفي سنة ٣٢٨

« ابن مقلة »

الوزير أحد المشاهير الكتاب محمد بن على بن الحسين بن عبد الله ابوعلى المعروف بابن مقلة الوزير كان له بستان كبير جداً وعليه جميعه شبكة من ابريسم وفيه من الطيور والقمارى والهزار والطواويس شيء كثير وفيه من الغزلان وبقر الوحش وحميره والنعام والأيل شيء كثير ايضاً وولى الوزارة لثلاثة من الخلفاء المقتدر والقاهر والراضى وبنى له داراً فجمع عند بنائها خلق كثير من المنجمين فاتفقوا على ان تبنى فى الوقت الفلانى فأسس جدرانها بين العشاءين كما اشاروا فما لبث بعد استتمامها الا يسيراً وقد انشد فيه بعض الشعراء

قل لابن مقلة لا تكن عجلا ... واصبر فانك في أضغاث احلام

تبني بانقاض دور الناس مجتهداً ... داراً ستنقض أيضاً بعد ايام

ما زلت تختار سعداً تطلبن لها ... فلم يوف بها من نحس بهرام

ان القران وبطليموس ما اجتمعا ... فى حال نقض ولا فى حال ابرام

ثم عزل عن وزارته واحرقت داره وانقلعت اشجاره وقطعت يده ثم قطع لسانه واغرم الف الف دينار ثم سجن وحده مع الكبر والضعف والضرورة وكان يستقى الماء بنفسه من بير عميق يدلى الحبل بيده اليسرى ويمسكه بفيه وقاسى جهداً جهيدا حتى مات في الحبس سنة ٣٢٨ ومن نظمه وهو يبكي على يده

اذا ما مات بعضك فابك بعضاً ... فانّ البعض من بعض قريب

والنكبات كثيرة لا تحصى وفيما ذكرناه مقنع **فان الكتاب كله أنموذج ومسودة فى بابه** والله تعالى اعلم

الفصل الثاني عشر في اشعار الملوكين

(ومن فى منامهم من مقاصد شتى وبان ان الحامل عليها انما هو الفلاكه)

اعلم ان الفلاكة اذا استولت على شخص وسلبته القدرة على الافعال انتقل الى الاسترواح والتنفس بالاقوال وذلك لما ان في الكلام راحة وفرجاً وتنفيساً من ألم الباطن ولذلك قلما يطيق كتمان الاسرار الا الواحد الفذ وكذلك ايضاً قلما يطيق الانسان استدامة أقوال تخالف ما في باطنه بل لا بد له من فلتات مطابقة لما في باطنه لما ان النفس بطبعها تطمح الى طلب الراحة والاستلذاذ بحسب المقدور واذا اتضح ان في الاقوال تنفساً وراحة ولذة وتنفيساً من آلام الباطن وضحت الحكمة في انتصاب المفلوكين خطباء وشعراء وحكماء فمرة يسلون انفسهم بترجيح الكمالات النفسانية على الكمالات المالية بالادلة الخطابية والتشبيهات الشعرية ومرة يذكرون عوارضهم اللازمة بمقتضى الفلاكة ويصوغون عنها اعذاراً وحكمة وتشبيهات رائقة وكلمات فائقة تنفيساً من قبح صورتها وليشغلوا الناس بما أوردوه فيها من محاسن الكلام عن الفكرة في صورتها الشنيعة - ومرة يسابقون الى ذكر نقائصهم ويجعلونها رقة أدبية أو نكتة شعرية او كلمة هزلية قبل ان يذكرها غيرهم عنهم ليصرفوا الناس عن الاشتغال بها لان النفوس تكره المعاد ولذلك قيل في الامثال أقبح من معاد وليكون ذلك اخف على نفوسهم لما ان الشخص لا يتأنف من نفسه ما يتأنفه من غيره ولا يثقل عليه كلامه ككلام غيره — حكي ان الاخفش الصغير كان يحفظ الاهاجي التي هجاه بها ابن الرومي ويوردها في جملة ما يورده والحكمة فيه ما ذكرته لا ما ذكره ابن خلكان في تاريخه من انه كان يقول انوّه بذكرى بها فان ذلك ان قاله الاخفش فقوله غطاء على المعنى الحقيقي ولذلك أيضاً يذكرون الاسفار ويغرون بها مرة وينهون عنها اخري فالاغراء لما قدمته في الفصل الرابع والنهي يكون حيرة ودهشاً ولذلك ايضاً يغرون بتطلب المجد والثروة تارة ويأمرون بالقناعة اخرى قلقاً واضطراباً ويذمون الايام ويتضجرون ويتململون ويستعتبون ويشعرون وهم لا يشعرون ويتفتنون وهم يفتنون ويحسبون انهم يحسنون صنعاً الا انهم هم الخاسرون ويتلطفون وهم يستثقلون ويتعذرون ولكن لا يعذرون أم تسألهم خرجاً فهم من مغرم مثقلون فانا لله وانا اليه راجعون والاغنياء عن ذلك كله بمعزل

وعن العناء فيه بألف منزل قد أغناهم الفعل عن القول والفضل عن الفضول والاعذار عن الاعتذار والاحسان عن صوغ اللسان وأنا أورد ان شاء الله تعالى أحاسن ما يحضرنى من أشعار المفلوكين ومن فى معناهم فى هذه المقاصد كلها وانما قلت **(أو من فى معناهم) دفعاً لسؤال مقدر توجيهه ان المذكور في هـذا الفصل من الشعر منه ما هو من كلام الاماثل والعظماء والنبلاء فالجواب انه وان صـدر عن عظيم او نبيل فانمـا ذكر بلسان المفلوكين وشرحا لحالهم ونيابة عنهم ورحمة عليهم او عند عارض فلاكة حقيقية عرضت** للوجيه العظيم صيرته فى حكم المفلوك بحسب تلك الحالة **او عنـد عارض فلاكة حالية بحكم الوارد عـلى القلة** فان الوارد كما هو مقرر فى كتب الصوفية اذا ورد عـلى القلب وشايعته النفس بالأستحسان والاستحلاء ولم يمانعه أكسب حالا واذا علمت الاحوال المقتضية للاشعار الآتية والحامل عليها فها كها غير ناس ولا غافل عما قررته فى مقـدمة الفصل العاشر فانه محتاج اليها فى هذا الفصل فمن ذلك قول القائل

الى الله اشكو جور دنيا كم التى ... تغر الفـتى حتى يوارى برمسه
فتكسبه ان اقبلت حسن غيرهِ ... وتسلبه ان ادبرت حسن نفسه

ومنـه

ما تطعمت لذة العيش حتي ... صرت للبيت والكتاب جليسا
اي شيء أعز عندي من العلـ ... ـم فمـا ابتـغى سـواه انيسا
انما الذل ـفي مخالطـة النا ... س فـدعهم وعش عزيزاً رئيسا

ومنـه

تلحى على البخل الشحيح بماله ... افلا تكون بماء وجهك أبخلا
أكرم يديك عن السؤال فانما ... قدر الحياة اقل من ان تسألا
ولقد اضم اليّ فضل قناعتى ... وأبيت مشتملا بهـا متزملا
وأرى العدوّ على الخصاصة شارة ... تصف الغنى فيخالنى متموّلا
واذا امرؤ افنى الليالى حـيرة ... وامانياً ، افنيتهن توكلا

ومنــه

عجبت سعاد من ارتياحي للعلا   في العدم وهو يفلّ غرب الجامح
لا يغشنى الاقتــار عاراً انني   رحب الذراع بكل خطب فادح
ولربمـا نهض المقــل بعبئــه   وحبا به المـثرون حبو الرازح
مثل السماكين انتفاعك منهما   بالاعزل المـدحوض فوق الرامح
ولــئن خفيت عن الورى وفضائلى   كمـد الحسود ونار غيظ الكاشح
فالنــار فى اشجارهــا مخبوءة   حتى يتاح لهـا يمين القادح

ومنــه

أهوى الخمول لكي أظل مرفّهاً   ممـا يعانيـه بنو الازمان
ان الرياح اذا عصفن لواقحا   تولى الاذية شامخ الاغصان

ومنــه

المرء يحظى ثم يعلو ذكره   حتى يزيّن بالذى لم يفعل
وتري الشقى اذا تكامل عيبه   يرمي و يبخل بالذى لم يعمل

ومنــه

شغلنا بكسب العلم عن مكسب الغني   كما شغلوا عن مكسب العلم بالوفر
وصار لهم حظ من الجهـل والغنى   وصار لنا حظ من العـلم والفقر

ومنــه

لا تحقرنّ أديباً راق رونقه   عن الفصاحة إمّا راح في شمل
فالسكر العسلىّ الحلو من قصب   والنرجس البابلى الغض من بصل

ومنــه

ينجد بى تارةَ ويتهم بى   ضر زمان بأهـله جافى
حتى كأنى قـذاةُ مقلتـه   أو خبث فوق كاسه طافي

ومنــه

وقالوا توصلْ بالخضوع الى الغني　　وما علموا ان الخضوع هو الفقر
و بيني و بين المـال بابانِ حرّما　　عليّ الغنى: نفسى الأبيةوالدهر
إذا قيل هذا اليسرُ أبصرت دونه　　مواقف خيرمن وقوفي بها العسر

ومنــه

ولا تمُــدّنَّ رزقًا ما ظفرتَ به　　الا اذا دار بين الحلق والحنك

ومنــه

لا يؤيسنّك من مجد تباعده　　فان للمجد تدريجاً وترتيبا
ان القناة التى أبصرت رفعتها　　تنمو وتحدُث أنبوبًا فأنبوبا

ومنــه

والحُرُّ من حذر الهوا　　ن يحاذر الأمرَ الجسيما
والعاجز المـأيوف أو　　عــد ما يكون إذا أقيما

ومنــه

المرء يجمع والزمانــ يفرق　　و يظل يرقع والخطوب تمزق
ولئنــ يعادى عاقــلا خير له　　من أن يكون له صديق أحمق
وان امرؤ لسعته أفعي مرة　　تركته حين يُجرّ حبــلٌ يفرق
لا ألفينــك ثاويًا فى غربة　　إن الغريب بكل نبل يرشق
ما الناس الا عامــلان فعاملٌ　　قد مات من عطش وآخر يغرق
والناس فى طلب المعاش وانمـا　　بالجد يرزق منهم من يرزق
لو يرزقون علـي وزان عقولهم　　ألفيْت اكثر من تري يتصدق (61)
لو سار ألف مدجج فى حاجة　　لم يقضها إلّا الذى يترفق

هذه الابيات لصالح بن عبد القدوس وقوله يتصدق هو ببناء المجهول حتى يصح

المعنى المراد وهو ان الغالب على الناس قلة العقل والخفة وأصله يتصدق عليه فحذف عليه ولو قرئ ببناء المعلوم لا نعكس المعني وكان معناه ان العقلاء هم الاكثر وليس بصحيح لا دراية ولا رواية وهذا الرجل[56] اتهمه المهدى بالزندقة فأمر بحمله اليه فلما خاطبه اعجب بغزارة علمه وأدبه وحسن ثباته فأمر باطلاقه فلما ولى ردّه وقال ألست القائل

والشيخ لا يترك اخلاقه   حتى يواري في ثرى رمسه
اذا ارعوى عاد الى جهله   كذي الضنى عاد الى نكسه

فقال بلى وانت لا تترك اخلاقك فأمر به فقتل سنة ١٦٧ **فانظر الى الفلاكة قال حكة فكانت سبباً في قتله** ومثله قول عمارة اليمني الملقب نجم الدين الشاعر

هذا ابن تومرت قدكانت بدايته   كما يقول الورى لحماً على وضم
وكان أول هذا الدين من رجل   سعى الى ان دعوه سيد الامم

أراد اظهار معنى بديع مبتكر فكان سبباً فى قتله فى أحد الاقوال في سنة ٥٦٩ —
وكنت هممت ان اضع فصلا فى الكلمات التى كانت سبباً للحوق ضرر عظيم لاصحابها كهاتين الحكايتين واسميها بالفلاكة اللفظية لتكون الفلاكة ثلاثة أنواع مالية ومعنوية ولفظية ثم بدا لي فى ذلك وخشيت ان يصير الكتاب ادبياً لا علمياً ولنرجع الى مقصود الفصل ومنه

ليس الخمول بعار   على امرئ ذى جلال
فليلة القدر تخفى   وتلك خير الليالى

ومنه

يا هذه ان رحت فى   شمل فما في ذاك عار
هذى المدام هى الحيا   ة قميصها خرق وقار

ومنه

وليس قبح المكان مما   يزرى به منصبى ودينى
فالشمس علوية ومع ذا   تغرب في حمأة وطين

ومنـه

احتل لحقـدك فاللبيـ ب بلطفه يستلّ ثاره
امضى الحـديد أرقّه والماء يثقب فى الحجاره
والهجو بيت منه لا يطفى طويل المدح ناره
يخفى الكثير من الحلا وة فى القليل من المراره

ومنـه

ولاغرو أن يبلى الشريف بناقص فمن ذنَب التنين تنكسف الشمس

ومنـه

واني واعدادي لدهري محمدا كلتمس إطفـاء نار بنافـخ

ومنـه

فان تكن الدنيـا أنالتـك ثروة فاصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
فقـد كشف الاثراءُ عنـك خـلائقا من اللـؤم كانت تحت ثوب من الفقر

ومنه

حيائى حافظ لي ماء وجهى ورفـق في مطالبـتى رفيقى
ولو أنى سمحت ببذل وجهى لكنت الى الغني سهل طريقى

ومنـه

ما الناس الا مـع الدنيا وصاحبها فكيف ما انقلبت يوماً به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فان وثبت عايه يوماً بمـا لا يشتهى وثبوا

ومنـه

قالت وقد انتضت سيوف اللحظ والدر ممـازج لذاك اللفظ
ذا حظك ما انقصك قلت لهـا لو شئت لمـا كنت قليـل الحظ

ومنـه

من منصفي من معشر كثروا عـليّ وكبروا

صادقتهم وأرى الخرو ج من الصداقة يعسر
كالخط يسهل فى الطرو س ومحــوه يتعــذر
ومــتى أردت كشطْتَه لكنّ ذاك يؤثر

ومنــه

اذافات الفتى شيئان أضحى بعيداً من ممــازجة القلوبّ
جمال الوجه او مال عظيم يزينان في حضور او مغيب
فكثر المال يشفع فى المساوى وحسن الوجه يشفع فى الذنوب

ومنه

ان الغني الذى ترضى معيشته لامن يظل على مافات مكتئبا
لا تحقرن من الأيام محتقراً كل امرئ سوف يجزى بالذي كسبا
قد يحقر المرء ما يهوى فيتركه حتى يكون الي توريطه سببا
ان العدوّ وان ابدي مكاشرة اذا رأى منــك يوماً فرصــة وثبا
اذا وترت امرأ فاحــذر مغبته من يزرع الشوك لايحصد به عنبا

ومنــه

أتعبت نفسك بين ذلة كادح طلب الحياة و بين حرص مؤمل
ونثرت دهرك لا خلاعة ماجن حصلت فيــه ولا وقار مبجــل
وأضعت حظ النفس فى الدنيا وفى ال اخرى ورحت عن الجميع بمعزل

ومنــه

اهل المناصب فى الدنيا ورفعتها اهــل الفضائل محقورون بينهم
قد انزلونا لأنا غــير جنسهم منازل الوحش فى الاهمال عندهم
فليتنا لو قــدرنا ان نعــرّفهم مقــدارهم عندنا أوْ لوْ دَرَوْهُ هُمُ
لهم مُريحان: من جهل وفرط غنى وعندنا المتعبان العلم والعدم

ومنه

اذا كان غير الله في عدة الفتى　　أتته الرزايا من وجوه الفوائد

ومنه

اذا لم يكن عون من الله للفتى　　فاكثر ما يجني عليه اجتهاده

ومنه

اذا شئت ان تحيا سعيداً فلا تكن　　على حالة الا رضيت بدونها
ومن يطلب الغالى من العيش لم يزل　　حزيناً على الدنيا رهين غبونها

ومنه

انى رأيت الدهر فى حكمه　　يمنح حظّ العاقل الجاهلا
وما أرانى نائلا ثروة　　كأنه يحسبنى عاقلا

ومنه

اذا وجد الشيخ من نفسه　　نشاطاً فذلك موت خفى
ألست ترى ان ضوء السراج　　له لهب قبل ان ينطفى

ومنه

انفض يديك من الانام فكلهم　　شحاً يحل وانت عجزا تعقد

ومنه

انفض يديك من الزمان وخيره　　واحذر بنيه تفز بقلة ضيره
ولقد صفوت فما وجدت مصافيا　　في الله أصحبه ولا في غيره

ومنه

وأخ لى تكدرت　　بعد صفو مشار به
صاحبى حين لا يرى　　في الوري من يصاحبه
واذا ما حظى به　　صدّ وازورّ جانبه

ومنـه

اذا لم يكن صدر المجالس سيداً فلا خير فيمن صدّرته المجالس
وكم قائل مالي رأيتـك راجـلا فقلت له من أجل أنك فارس

ومنـه

وأخ ان رام مني حاجة كان بالانجاح مني واثقا
واذا ما رمت منه حاجة كان بالرد بصيراً حاذقا
يعمل الحيلة في الرد لها قبل ان افرغ منها ناطقا

ومنـه

اذا ما مدحت الباخلين فانمـا تذكرهم ما في سواهم من الفضل
وتهـدى لهم غمّاً كثيراً وحسرة فان منعوا منك النوال فبالعـدل

ومنـه

واذا المسافر آب مثلي مفلساً صفر اليدين من الذي رجاه
وخلا من الشيء الذي يهديه لا إخوان عنـد لقائهم اياه
لم يفرحوا بقـدومه وتثقلوا بوروده وتكـرهوا لقيـاه
واذا أتاهم قادمـاً بهـدية كان السرور بقـدر ما أهداه

ومنـه

لوكنت أجهل ما علمت لسرني جهلي كما قد ساءني ما أعـلم
فالصعو يرتع في الرياض وانما حُبِسَ الهـزار لأنه يتكلم

ومنـه

ان قدّم الصاحب ذا ثروة وعاق ذا فقر وافلاس
فالله لم يدع الى بيتـه الا المياسيرَ من الناس

ومنـه

لا يدرك المجد من لا يركب الخطرا ولا ينال العـلا من قدم الحذرا

ومن أراد العـلا صفواً بلا كدر   قضى ولم يقض من ادراكه وطرا
وأحزم الناس من لو مات من ظمأ   لايقرب الورد حتى يعرف الصدرا

ومنـه

وقائـلة ما بال مثلك خامـلا   أأنت ضعيف الرأي ام انت عاجز
فقلت لها ذنبي الى القـوم انني   لمـالم يحـوزوه من المجـد حائز
وما فاتني شيء سوي الحظ وحده   واما المعالى فهي عنـدي غرائز

ومنـه

من أخمـل النفسَ احياها وروحها   ولم يبت طـاويًا فيهـا على ضجر
ان الرياح اذا اشتدت عواصفها   فليس ترمي سوى العالى من الشجر

ومنـه

ألا موت يباع فأشـتريه   فهذا العيش مالا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتى   يخلصنى من الموت الكريه
اذا أبصرت قبراً من بعيد   وددت لو انى فـيما يليـه

ومنـه

ولو انى استزدتك فوق ما بى   من البـلوى لأعوزك المزيد
ولو عرضت على الموتي حياة   بعيش مثـل عيشى لم يريدوا

ومنـه

قالوا أقمتَ وما رزقتَ وانما   بالسير يكتسب اللبيب ويرزق
فأجبتهـم ما كل سـير نافعاً   الحظ ينفـع لا الرحيـل المقلق
كم سفرة نفعت واخرى مثلها   ضرت ويكتدح الحريص ويخفق
كالبدر يكتسب الكمال بسيره   وبه اذا حـرم السعـادة يمحق

ومنه

سافر اذا حاولت قدرا   سار الهلال فصار بدرا

والماء يكسب ما جرى طيباً ويخبث ما استقرا
و بنقـــلة الدرر النفيـ ـسة بدلت بالبحر نحرا

ومنـه

قوض ركابك عن ارض تهان بها وجانب الذل ان الذل يجتنب
وارحل اذا كان في الأوطان منقصة فالمندل الرطب في اوطانه حطب

ومنـه

اذا ما نبت بالحـر دار يودّها ولم يرتحل عنها فليس بذى حزم
وهبـه بها صبـا ألم يدر أنه سـيزعجـه عنهـا الحمـام على رغم
ولم تكنِ الدنيا تضيق على فتى يرى الموت خيراً من مقام على هضم

ومنـه

وقالوا اضطرب في الارض فالرزق واسع فقلت ولكن موضع الرزق ضيق
اذا لم يكن فى الأرض حر يعيننى ولم يك لى كسب فمن اين ارزق

ومنـه

قالوا اغـترب عن بلاد كنت تألفها انضاق رزق تجد فى الأرض مقترحا
قلت انظروا الريق فى الأفواه مختزنا عـذباً فان بان عنهـا صار مطرحا

ومنـه

عوّد ركابك كل يوم مـنزلا وتنقلنْ كي لاتمـلّ وتضجرا
فالماء يعذب ماجرى وتلاطمت امواجـه فاذا أقام تغـيرا

ومنـه

اذا أنا لم اجد رزقاً حلالا ولم آكل حراماً مت جوعا

ومنـه

قالوا حبست فقلت ليس بضائرى حبسي واى مهند لا يغمد

ومنه

لم ينصبوا بالشاد ناج صبيحة ال اثنين مسبوقا ولا مجهولا
نصبوا بحمد الله ملء قلوبهم شرفاً وملء صدورهم تبجيلا
ما ضره ان يُزّعنه لباسه فالسيف اهول ما يرى مسلولا

ومنه

لا ينبغي للضيف ان كان ذا حزم وتدبير وطبع لطيف
ان يتعدى أبداً طوره ولا يرى الا بحكم المضيف
فالأمر للانسان فى بيته انشاء ان ينصف اوان يحيف
وانما ينقض أحكامه عليه ذو جهل وعقل سخيف

ومنه

اذا شئت ان تستقرض المال منفقاً على شهوات النفس في زمن العسر
فسل نفسك الانفاق من كنز صبرها عليك وارفاقاً الى زمن اليسر
فان قبلت كنت الغني وان ابت فكل منوع بعدها واسع العذر

ومنه

اذا مالم تكن ملكا مطاعاً فكن عبداً لمالكه مطيعا
وان لم تملك الدنيا جميعاً كما تختار فاتركها جميعا
هما سببان من ملك ونسك ينيلان الفتي الشرف الرفيعا
ومن يقنع من الدنيا بشيء سوى هذين عاش بها وضيعا

ومنه

يا أيها العالم لا تشتكي فالحذق محسوب من الرزق
العلم لا يسلبه اهله والمال مسلوب من الخلق

ومنه

المال اشرف ما اقتنيت فلا تكن سمحاً به وتأنَّ فى تفصيله

ما صنف الناس العلوم بأسرها   الا ليحتالوا على تفضيله

ومنـــه

احمد الله كم اجوّد فى الدهـ   ـر مقالا وما يفيـــد المقال

كلمى فى الانام سحر ولكن   انا والسحر باطـــل بطال

ومنـــه

وفى الجهل قبل الموت موت لاهله   وليس لهم حتى النشور نشور

وأرواحهم فى وحشة من جسومهم   وأجسادهم قبـــل القبـــور قبور

ومنـــه

من ظن ان الغنى بالمال يجمعه   فاعـلم بأن غناه فقـره أبدا

فاستغن بالعلم والتقوى وكن رجلا   لا ترتجى غير رزاق الورى أحدا

ومنـــه

تصفو الحياة لجاهل او غافل   عما مضى منها وما يتوقع

ولمن يغالط فى الحقائق نفسه   ويسومها طلب المحال فتطمع

ومنـــه

انى تركت لذى الورى دنياهم   وظللت انتظر الممات وارقب

وقطعت عن نفسى المطامع ليس لى   ولد يموت ولا عقار يخرب

ومنـــه

يقولون لى فيك انقباص وانما   رأوا رجلا عن موقف الذل احجما

ارى الناس من داناهم هان عندهم   ومن اكرمته عزة النفس اكرما

وما كل برق لاح لى يستفزني   ولا كل من لاقيت ارضاه منعما

واني اذا ما فاتنى الامر لم ابت   اقلب طرفي اثره متنـــدما

ولكنه ان جاء عفواً قبلته   وان مال لم اتبعه لولا وربما

وأقبض خطوى عن امور كثيرة اذا لم انلها وافر العرض مكرما
واكرم نفسي ان أضاحك عابساً وان أتلقى بالمديح مذمما
ولو ان أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أدالوه فهان ودنسوا محياه بالاطماع حتى تجهما
أأشقي به غرساً وأجنيه ذلة اذن فاتباع الجهل قد كان احزما

ومنه

لا يحطن رتبتى سوء حالى آية الحسن في الجفون السقام
انا كالنار اطفأ القطر منها ولها بعد نفخة اغتلام

ومنه

أصبحت مثل السيف ابلى غمده طول اعتلاق نجاده بالمنكب
ان يعتليه صدا فكم من صفحة مصقولة للماء تحت الطحلب

ومنه

وأنت السيف ان تعدم حليا فلن تعدم فرندك والغرار
ورب مطوّق بالتبر يكبو بصاحبه وللرهج اعتبار

الفصل الثالث عشر

﴿في وصايا يستضاء بها فى ظلمات الفلاكة وبهذا الفصل نختم الكتاب ان شاء الله تعالى﴾

اعلم يا أخى في الوفا وأخوة المصطفى خصوصاً المفلوك مثلى ان فى الكمالات النفسانية لذة تزيد على اللذات الجسمانية فلا تستصغرن نعمة الله فيها متى زويت عنك الدنيا واستحضر قوله صلى الله عليه وسلم «ان الله يعطى الدنيا لمن يحبه ولمن لا يحبه ولا يعطى الدين الا لمن يحبه وان الانبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً وانما ورثوا العلم فمن أخذ منه فقد اخذ بحظ وافر» وانظر كيف يكون استجلاء لطائف العلوم شاغلا عن الاكل والوقاع أفتراه يكون دونها لذة وهو شاغل عنها وعليك من العلوم بالكتاب والسنة والتمتع بما

فيهما من النكات واللطائف واستمد منهما برد اليقين وثلج الصدور ولا تقنع بالعلوم العقلية فانها ملساء مزلة الاقدام واصحابها يضطربون فيها اضطراب الارشية ـ هذا الامام فخر الدين على جلالته وامامته يصحح فى بعض كتب ما يضعفه فى الآخر وابلغ من ذلك ان ابن الراوندي سامحه الله صنف رسائل في خلق الاعمال وفى قدم العالم وغيرهما ثم صنف هو نفسه رسائل في رد ذلك كما ذكره صاحب الفهرست ولا تجمع لنفسك بين قبح الظاهر وهو الفقر وقبح الباطن وهو الجهل وسع الناس باخلاقك ومعارفك ان لم تسعهم بمالك ومعروفك واجتنب الاساءة اليهم ان عجزت عن الاحسان لهم وخذهم بالرجاء لانه ايسر ولا تأخذهم بالخوف وان كانوا به اطوع لأنه أخطر وارض بيسورهم وعظم حقيرهم فلا يحصل للنفوس مقصودها الاخالقها فلا تطلب المقصود الامنه واجعل باطنك وحده لله وكن شديد الاستهانة بأمور الدنيا ضرا ونفعاً عطاء ومنعاً حصولا وفواتاً سلامة وآفاتاً وانظر الاصلح لنفسك من ذلك قبل وقوعه وبعده فتوخه واجتهد فيه ولا تكن وكلا بل متحركا كيساً ورقع خرق عجزك وفلا كتك بحيلتك ومصارتك والتعرض لتنفيسات الدهر والوثوب عند الفرصة ولا تيأس من روح الله قال صلى الله عليه وسلم «ان لله فى أيام دهركم نفحات الا فتعرضوا لها» قال تعالى «انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون» قال الشاعر

والعاجزان الغالبان ، معاقبٌ   لا ينتهى ومعاتبٌ لا يخجل

(وقال)

ثِبْ على الفرصة في موضعها   فهى لا تبقي ولا تُستكسَبُ

واقطع بان ذرة من حظ خير من قنطار عقل وان جزءاً واحداً من المال خير من أجزاء كثيرة من الكمالات النفسانية ولله درّ من سمى المال كمال الكمالات وتحقق ان المعاصى كالسموم يضر قليلها وكثيرها مع الاستخفاف بها ومع تعظيم ارتكابها وجليها وخفيها فلا تغتر بالتستر والحيلة فان لله عيوناً من الملكوت ناظرة اليك وان للطاعات عبقاً وشذا تفوح على أهلها وان كتموها وللمعاصى نتناً وذفراً تفوح على أهلها وان أخفوها (واذا نزعت عن الغواية فليكن لله ذاك النزع لا للناس)[62] وخذ الناس الى

أغراضك بمصالحهم تحقيقاً أو توهماً فان النفوس تنخدع بالباطل كما تنخدع بالحق ولا تأخذهم بغرضك المحض فقلما يساعفونك به الا عوضاً عما سلفتهم من غرض لهم سابق وكن تواباً رجاعاً أواباً الى الله عظيم الالتجاء اليه والاستعانة بقوته و باهر قدرته متملقاً له خاضعاً لجلاله وكن كثير الدعاء والالفاظ[63] باسمائه تعالى وله الحمد فان الدعاء نسبته الي استجلاب المطالب كنسبة الفكر الى استدعاء المطلوب العلمي قال صلى الله عليه وسلم «أَلِظُّوا بـ(ياذا الجلال والاكرام)[64]» قال تعالي «قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم» واياك اياك من التعويل على واحد بخصوصه من البشر والقاء الشراشر[65] عليه فان من ألقى شراشره على غير الله وكله وما اختاره لنفسه وأنهاك أنهاك عن التوقيف على بواطنك وخفاياك وآمرك آمرك بسد طريق العلم بذلك جهدك وتكثيف حجابه ما أمكن وكن مع الناس بلسانك وظاهرك من كمالاتهم الدنيوية التي يعتقدونها كمالا فان الدنيا قد صارت مخارق بلا حقائق وثم أمور لا يمكن التصريح بها ولا تتم بالتلقين وأنا أسأل الله أن يوفقك لها و يوقفك على حقيقتها

(هذا) آخر ما تيسر لى كتابته فى هذا الغرض مما سهل مما حضر وفي النفس من معاودته و بسط القول فيه فان هذا الكتاب انما وضعته مسودة وانموذجاً و برنامجاً في هذا المطلوب وفتحاً لباب عسى أن يلج فيه من حركه الله لذلك ولم أدخر فيه مما حضرنى الا ما خفت على الكتاب من كساده به لغموضه وكونه من الحكمة الضرورية أو من مشكلات غيرها من العلوم فيعسر فهمه أو ينتقده من لا يقف على حقيقة معناه أو لكونه تاريخاً محضاً فيصير الكتاب به أدبياً لا علمياً ولم تتسع المادة بمجانس لما أوردته ازيد مما ذكرته لاني زحمت به بالخاخلة ولززت به لزاً بين عوائقى النفسانية وشواغلى البدنية مع قلة الكتب وعدمها وما احق هذا المقام بقول القائل

ولست بأول ذي همة دعته لما ليس بالنائل
يشمر للجّ عن ساقه و يغمره الموج فى الساحل

وانا أستغفر الله تعالى واتوب اليه مما لعله فيه مما هو من قبيل الشقشقة والطنطنة او من قبيل التمويه والسفسطة او من حكم لم يصادف الحق او قول لعله لم يوافق

مرضاته سبحانه وله الحمد أو من نية لعلها لم تخلص لله أو مقصد مزج بغير ارشاد شرعى أو من تعليل الامور بالمقاصد الدنية الدنيوية وأستقيله العثرة فى ذلك كله وأستوهبه المعذرة وأستمنحه المغفرة وأبرأ اليه من ذلك كله لا اله الا هو ولا غافر سواه

﴿ اللهم ﴾ يا رحمن يا رحيم يا واسع يا عظيم ياذا الفضل العميم والمنّ الجسيم يا معطياً قبل السؤال وعالماً بالحال اسألك بأسمائك كلها وصفاتك اجمعها و بكل ما اذا دعيت به اجبت ان تكشف عنا ضر الفلاكة والاهمال والحرمان وان تصرفنا عن مواقع الشر والخذلان وان تحفظ أسنتنا وقلوبنا من الشيطان وان تكلأنا بالتوفيق وتؤيدنا بالتكلان يا رحيم يا رحمن لا حول ولا قوة الا بك يا علىّ يا عظيم (اللهم) اني اشكو اليك ضعف حيلتي وقلة قوتى وهوانى على الناس رب المستضعفين ور بي الى من تكلنى ان لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى الكن رحمتك أوسع لي (اللهم) اقبل معاذيرى وتجاوز عن تقصيري ولا تتركنى حقيرا ولا تسلط علىّ تغيراً واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً (اللهم) قد رفعت يدىّ اليك فلا تردها صفراً (اللهم) ضع فيهما من خيرك و بركتك

ما أنت بالسبب الضعيف وانما نجح الامور بقوة الاسباب
فاليوم حاجتنا اليك وانما يدعى الطبيب لساعة الاوصاب

(اللهم) انقطع الرجاء الا منك وحصل اليأس الا من رحمتك لاتعكس ظناً قد عول على فضلك لا تخيب أملا طال تعلقه بك أعتق عنقاً مدّ اليك من رق غيرك وفك اسيراً لا يملك فكاكه الا أنت (اللهم) ليس على عطائك عائق ولا يعجزك شئ فلك القدرة الكاملة والرحمة الواسعة والحكمة البالغة وكلتا يديك سخاء ولا ينقص فيضك العطاء ونستحي من تخييب آمليك غاية الحياء وعلمك قد أحاط بما فى الارض والسماء وبما فى الظواهر والضمائر من الجلاء والخفاء انظر الينا منك بنظرة رحيمة ربنا مسنا ضر نفوسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين سمع الله نظر الله سبحان الله آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ملحق فى تفسير بعض الألفاظ
والتعريف ببعض الأعلام

(1) كلمة **(الغرَض)** : الأولى معناها : موضوع القول ، و **(الغرض)** الثانية معناها : الهدف .

(2) **السَقَط** : الردىء الحقير من المتاع والطعام ، ومعناها هنا : الخطأ فى القول والفعل .

(3) يقصد كلمة **(مَفْلُوك)** فهى على وزن (مَفعُول) .

(4) هذا **عُجز بيت للنابغة الذبيانى** ، من قصيدة فى مدح النعمان بن المنذر والاعتذار إليه . والبيت بتمامه :

ولا أرى فاعلاً فى الناس يشبهه
ولا أحاشى من الأقوامِ من أحَد

وكلمة (أحاشى) هنا فِعْل بمعنى (أستثنى) . ويرى المؤلِّف أن هذا الفعل (أحاشِى) مشتقّ أو مستمدّ من (حاشَى) أو (حاشَ) الاستثنائيّة التى تعدُّ فى بعض استعمالاتها حَرْفًا .

(5) **إمام الحرمين** : (٤١٩ - ٤٧٨ هـ) هو : ضياء الدين أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجوينى . فقيه أصولىّ متكلم مفسّر أديب . له كثير من الكتب فى الفقه وأصول الدين وتفسير القرآن [معجم المؤلفين].

(6) **أبو الحسين البصرى** :(ت ٤٣٦ هـ) هو : محمد بن على بن الطيّب البصرى المعتزلى ، متكلِّم أصولىّ كثير التصانيف ، منها : المعتمد فى أصول الفقه ، والانتصار فى الردّ على ابن الراوندى .

[معجم المؤلفين]

(7) **أبو الحسن الأشعرى** : (٢٧٠ هـ - ٣٢٤ هـ) هو : على بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل ، ينتهى نسبة إلى أبى موسى الأشعرى ، متكلم تُنسب إليه فرقة الأشاعرة . له مؤلفات كثيرة من أشهرها : مقالات الإسلاميين [معجم المؤلفين] .

(8) **القاضى أبو بكر الباقلّانى** : (٣٣٨ - ٤٠٣ هـ) هو محمد بن الطيّب بن محمد بن جعفر ابن القاسم البصرى ، متكلّم على مذهب الأشعرى ، له مؤلفات كثيرة من أشهرها : إعجاز القرآن .

(9) **فى الأصل** : (البخار) وهو خطأ صوابه (النجّار) وهو : الحسين بن محمد النّجار زعيم الفرقة النجارية وهى إحدى الفرق المنسوبة إلى المعتزلة على خلاف بينهم فى التفاصيل . [انظر الملل والنحل للشهرستانى ١/ ٨٨]

(10) **الأبهرى** : هو سيف الدين أحمد الأبهرى ، ذكره صاحب (كشف الظنون) ضمن من شرحوا كتاب (المواقف)، وهو كتاب فى علم الكلام للعضُد الإيجى (ت ٧٥٦) . ويبدو أن صاحب (كشف الظنون) لم يقف على تاريخ وفاته ، إذ ترك مكانه فارغًا ، وإن كان من الراجح أنه لاحق على تاريخ وفاة العضد صاحب الكتاب المشروح .

(11) **الآمدى** : (٥٥١ - ٦٣١ هـ) هو سيف الدين على بن أبى على بن محمد بن سالم . . فقيه أصولىّ متكلمّ منطقىّ . . من تصانيفه : غاية المرام فى علم الكلام والإحكام فى أصول الأحكام وغاية الأمل فى علم الجدل [معجم المؤلفين ٧/ ١٥٥] .

(12) **الإخالة** : هى الفِراسة وبعد النظر ، أَخَلْتُ فيه خالاً من الخير . . أى : رأيتُ فيه مَخيلَتَه ، أى دلالته .

(13) **الوِقاع** : الجِماع .

(14) **يقصد كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالى .**

(15) **المُعْيِل** : الكثير العِيال .

(16) **الصُفَّةُ** : الظُلَّة ، والبهْو الواسع ، وهى هنا : مكان مظلَّل فى مسجد المدينة كان يأوى إليه فقراءُ المهاجرين ، وهم أصحاب الصُفّة ، حيث كان الرسول ﷺ يشملهم برعايته .

(17) **مَجِلتْ يدُهُ** : تقرّحتْ من العمل .

(18) **العُروض** : جمع عَرْض ، وهو المالُ من المتاع والسِّلع وكلّ شىءٍ سوى الدراهم والدنانير. **والعيْن** : المالُ الحاضِر من الدنانير والدراهم المضروبة . **والنّاضُّ** من المال : هو ماتحوّل عينا بعد أن كان متاعًا ، أو هو الدّيْن المستحقّ للدائن ، فهو مال ولكنّه غيرُ حاضر لاعينا ولا عُروضًا .

(19)**كاتب الواقدى** : (١٦٨ - ٢٣٠ هـ) أبو عبد الله محمد بن سعد المشهور بكاتب الواقدى محدث حافظ ، حدث وروى وكتب الحديث والفقه ، من آثاره (كتاب الطبقات الكبير) [كحالة ١٠/ ٢١] .

(20) أى : من **الآفات التى تنشأ عن الفلاكة** . وقد انقطع السياقُ اللغوى بالحديث عن تكليف هارون الرشيد خلفَ الأحمر بتأديب ولده الأمين . والقصة ليست بعيدة عن السياق المعنوى ، ولذلك قلنا إنّ الذى انقطع هو السياق اللغوى لبُعد معاد الضمير .

(21) **النُّقل** : ما يُتَسَلّى بتناوله مع الشراب وفى مجالس السمر من فاكهة وكوامخ ومسلّيات مثل الفستق والبندق واللّوز . والمقصود أن يصبح الطعن فى الأعراض من جانب المفلوك عادة مألوفة وسهلة ومتكرّرة .

(22) **المقصود بالشيخ** : الشيخ الرئيس أبو علىّ الحسين بن عبد الله بن الحسين بن على بن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ) .
والمقصود بـ **(الإشارات)** كتابه : الإشارات والتنبيهات (فى المنطق والحكمة) .

(23) **الإسنوى** : (٧٠٤ - ٧٧٢ هـ) جمال الدين أبو محمد عبد الرحيم بن الحسن بن على بن عمر . . . الإسنوى ، الشافعى ، نزيل القاهرة ، مؤرّخ ، مفسّر ، فقيه ، أصولىّ ، عالم بالعربيّة والعروض . و **(الطبقات)** المشار إليه هو كتابه **(طبقات الفقهاء)** .

(24) **الزمخشرى** : (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ) هو أبو القاسم ، جار الله محمود بن عمر بن محمد ... مفسّر ، محدّث ، متكلّم ، نحوى ، لغوى ، بيانى ، أديب. من تصانيفه : الفائق فى غريب الحديث ، والمفصل فى صنعة الإعراب ، والكشّاف عن حقائق التنزيل .

[معجم المؤلفين ١٢/١٦٨] .

(25) **ابن فضلان** : (٥١٧ - ٥٩٥ هـ) أبو القاسم يحيى الواثق بن على بن الفضل بن هبة الله بن بركة البغدادى . برع فى الفقه والمناظرة ، وكان حسن العبارة ، وقد جرت بينه وبين المجير مناظرات عنيفة .

[سير أعلام النبلاء ١٥/٤٢٠ ، ٤٢١] .

(26) **المجير البغدادى** : (٥١٧ - ٥٩٢ هـ) أبو القاسم مجير الدين محمود بن المبارك بن على بن المبارك . برع فى الفقه والكلام والأصول ، كما اشتغل سرًّا بالمنطق ، وكان كثير المناظرة لابن فضلان . [السّير للذهبى]

(27) **الإخالة** : الفراسة وبعد النظر .

(28) **بنوبرمك ، أو البرامكة** : أسرة فارسية مشهورة فى تاريخ العبّاسيين ، ينتسبون إلى جدّهم الذى كان سادِنا لأحد معابد النار عند المجوس ، ولقبه (بَرْمَك) ، وقد عمل أبناؤه الحسن وسليمان وخالد فى خدمة العبّاسيين ابتداءً من ظهور دعوتهم ومحاربتهم للأمويّين . واشتهر منهم يحيى بن خالد وولداه الفضل وجعفر ، واجتمع الثلاثة - مع أفراد من أسرتهم وأتباعهم - فى خدمة الخليفة العبّاسى هارون الرشيد الذى بسط نفوذهم فى كلّ أرجاء دولته ثم عاد فنكبهم فى سنة ١٨٧ هـ واستمرّ حتى قضى عليهم .

(29) **علىّ بن مقلة الوزير** ؛ صوابُه : **أبو على** محمد بن الحسن بن مقلة (٢٧٢ - ٣٢٨ هـ) صاحب الخط المشهور المنسوب إليه ، أديب شاعر ، حسن الخطّ . ولِىَ الوزارة أكثر من مرة لأكثر من خليفة عباسى وتعرّض أكثر من مرة للضرب والتعذيب ، وانتهت حياته فى السجن بعد أن قُطعت يدُه اليمنى ثم لسانه .

(30) المعتصم : هو الخليفة العبّاسى أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد ، ولى الخلافة سنة ٢١٨ هـ بعد أخيه عبد الله المأمون ، وتوفى سنة ٢٢٧هـ .

أما عمورية : فهى إحدى مدن الرّوم افتتحها المعتصم وأحرقها بعد أن هزم الروم هزيمة منكرة فى رمضان سنة ٢٢٣ هـ وذلك ردّا على اعتداء الروم على (زبطرة) إحدى المدن الإسلامية ، وقد مدح الشعراء ، وعلى رأسهم أبو تمام ، المعتصم ونوهوا بانتصاره وفتحه لعموريّة .

(31) المكتفى : هو الخليفة العبّاسى المكتفى بالله على بن الخليفة أبى العباس أحمد المعتضد بالله . بويع للمكتفى بمدينة السلام سنة ٢٨٩ هـ بعد أبيه المعتضد وتوفّى سنة ٢٩٥هـ .

أما القرامطة : فهم فرقة من الباطنيّة جمعت فى مبادئها أخلاطا من الضلال والكفر عمادها أفكار المجوس ، وكانوا يؤمنون بالنجوم والنبوءات التى زعموا أنها تخبر بها ومن بينها أنهم يسيطرون على العالم ويحكمونه فى وقت معيّن حدّدوه فى إحدى نبوءاتهم بنهاية حكم المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) وبداية حكم المكتفى (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) ولكن ماحدث هو أن جيوش المكتفى هزمتهم وقضت على تلك النبوءة الكاذبة .. (وهذا هو موضع استشهاد المؤلف بما وقع بين المكتفى والقرامطة).

(32) الحاكم بأمر الله : سادس الخلفاء الفاطميين ، وكان يلقب قبل توليه الخلافة بأبى على المنصور . ولد سنة ٣٧٥ هـ ، وولى الخلافة سنة ٣٨٦ هـ ، وعرفت تصرفاته بالشطط والظلم . اختفى سنة ٤١١ هـ .

(33) المَغايِر ، أو المغائر : جمع مغارة ، مثل منارة ومنائر ، ومفازة ومفائز .

(34) ابن تيميّة (٦٦١ - ٧٢٨) : شيخ الإسلام تقىّ الدين أبو العباس ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السّلام بن عبد الله .. الحرّانى ثم الدمشقى ، الحنبلى . من مؤلفاته : مجموع فتاويه ، السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ، منهاج السنّة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية [معجم المؤلفين لكحّالة] .

(35) **ابن قيّم الجوزية** (٦٩١ - ٧٥١): شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الدمشقى ثم الحنبلى . فقيه ، أصولى مجتهد ، مفسّر ، نحوى ، محدث . من تصانيفه : روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، زاد المعاد فى هدى خير العباد ، تهذيب سنن أبى داود [معجم المؤلفين] .

(36) **الفارابى** : (٢٦٠ - ٣٣٩) أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان ، رياضىّ ، طبيب، موسيقى متفلسف، لُقّب بالمعلم الثانى، من مؤلفاته: آراء أهل المدينة الفاضلة، المدخل إلى صناعة الموسيقى، إحصاء العلوم. كما لخّص وشرح عددًا من كتب أرسطو التى ترجمت إلى العربيّة .

(37) **ابن سينا** : (٣٧٠ - ٤٢٨) أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على بن سينا ، ويلقّب بالشيخ الرئيس ، فيلسوف ، طبيب ، شاعر ، مشارك فى أنواع من العلوم . من تصانيفه : القانون فى الطبّ ، وكتاب الشفاء والقصيدة العينيّة وكتاب الحدود .

(38) **الدّكّ** : الدّفع .

(39) **الكَيْسُ** : العقل والفطنة ، والرّجل الكيّس : العاقل الفَطِنُ .

(40) **السّبكى** : (٧٢٧ - ٧٧١) هو قاضى القضاة تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب ابن على بن عبد الكافى الشافعى ، فقيه ، أصولى ، مؤرّخ ، أديب ناظم ناثر . و(**جمع الجوامع**) هو أحد مؤلّفاته ، وهو فى أصول الفقه ، وهو مختصر مشهور يشتمل على زبدة مافى شرحيْه على مختصر ابن الحاجب والمنهاج .

(41) **السَّفْسَفة** : اللؤم والمماحكة .

(42) **الإمام فخر الدين الرازى** (٥٤٣ - ٦٠٦): أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الشافعى ؛ مفسّر ، متكلّم ، فقيه ، أصولىّ ، حكيم ، أديب ، مشارك فى كثير من العلوم الشرعية والعربيّة والحكميّة والرياضيّة ، من مؤلفاته : (مفاتيح الغيب) فى تفسير القرآن ، (والدلائل فى عيون المسائل) فى علم الكلام .

(43) الرّافعى : هناك أكثر من مصنّف يحمل هذه النسبة ، ولم يقدّم المؤلف مايشير إلى أحدهم ، ونرجح أنه : أبو القاسم عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الرافعى القزوينى الشافعى (٥٥٥ - ٦٢٣): فقيه ، أصولىّ ، محدّث ، مفسّر ، مؤرّخ . له : فتح العزيز على كتاب الوجيز للغزالى ، وهو فى فروع فقه الشافعى ، شرح مسند الشافعى فى مجلدين - الأمالى الشارحة على مفردات الفاتحة .

(44) النّووى : (٦٣١ - ٦٧٧): محيى الدين أبو زكريّاء يحيى بن شرف النووى ، الدمشقى ، الشافعى . محدّث ، حافظ ، لغوىّ . له : الأربعون النوويّة ، (روضة الطالبين وعمدة المتقين) فى فروع الفقه الشافعى ، تهذيب الأسماء واللغات ، والتبيان فى آداب حملة القرآن .

(45) ابن الجوزى : (٥١٠ - ٥٩٧) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على . . القرشى ، التّيمْى ، البغدادى ، الحنبلى . محدّث ، حافظ ، مفسّر ، فقيه ، واعظ ، أديب ، مؤرّخ . من مصنفاته : المغنى فى علوم القرآن ، وبستان الواعظين ورياض السامعين ، والمنتظم فى تاريخ الأمم ، وذكر له مؤلّف الكتاب كتابه المسمّى **(تلقيح فهوم أهل الأثر فى عيون التاريخ والسير)** .

(46) النّضرُ بن شُميل (- ٢٠٣): هو أحد علماء اللغة والرواية ، وكان من أهل البصرة عالما بغريب اللغة وبالشعر والنحو والحديث وأيّام العرب والفقه . أما الكلام عن الفرْق بين (السَّدَاد) - بفتح السين - و (السِّداد) - بكسرها - فوارد فى سياق كلام دار بين النّضر والخليفة المأمون وردتْ فيه الكلمةُ فى حديث نبوىّ ، فنطقها المأمون بفتح السين وصحّحها النضر فكسر السّين ، ليسأل الخليفةُ - الذى راعه أن يخطئ فى لفظ الحديث - عن الفرق بينهما ، فيتولىَ النضر توضيحَ الفرق . والقصة واردة فى (البصائر والذخائر) للتوحيدى و (نزهة الألبّاء فى طبقات الأدباء) لكمال الدين عبد الرحمن الأنبارى ، و (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) لياقوت الحموى . وهذا هو نصّها موفَّقًا فيه بين المصادر الثلاثة :

« قال النّضر بن شميل : كنتُ أدخل على المأمون فى سَمَره ، فدخلتُ عليه ذات ليلة وعَلَىَّ قميصٌ مرقوع ، فقال [أى

المأمون] يانَضْرُ ، ما هذا التقشّف ؟ أتدخل على أمير المؤمنين في هذه الخُلْقان ؟ فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، أنا شيخ ضعيف وحرّ مَرْوَ [أي مدينة مَرْو] شديد ، فأتبرّد بهذه الخُلقان ، قال : لا ، ولكنكَ قَشِفٌ [أي متقشّف] : وأجرينا الحديثَ ، فجرى ذكرُ النساء فقال [أي المأمون] : حدثنا هُشَيْم عن مجالد عن الشّعبيّ عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : إذا تزوج الرجلُ المرأةَ لدينها وجمالها كان فى ذلك سَدَادٌ من عَوَز . فأورده بفتح السّين ، قلتُ [القائل هو النّضر] : صدق أميرُ المؤمنين ، حَدّثنا عَوْفُ بن أبى جميلة عن الحسَن عن على ابن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إذا تزوّج الرجلُ المرأةَ لدينها وجمالها كان فيها سِدَادٌ من عَوَز . وكان المأمون مُتّكئًا فاستوى جالسًا وقال : السَّدادُ عندك لحنٌ [أى خطأ] يانضر ؟ قلت : نعم ها هنا يا أمير المؤمنين ، قال : أوَ تلحّنُنى ؟ قلتُ : إنما لحن هُشَيْم - وكان لحّانا - فتبع أميرُ المؤمنين لفظه . فقال : ما الفرق بينهما ؟ قلتُ : السَّداد : القَصْد فى الدينِ والطريقة والأمر . والسِّداد : البُلْغَةُ [أى مايكفى الحاجة] وكلّ ماسددت به شيئا فهو سِداد . قال [المأمون] أوَ تعرف العرب ذلك ؟ قلت : نعم ، هذا العَرْجىُ [شاعر أموىّ] يقول :

أضاعونى وأىَّ فتًى أضاعوا
لِيوم كريهةٍ وسِدادِ ثَغْر

قال [النضر] : فأطرق المأمونُ مليًا ثم قال : قَبّحَ اللهُ مَنْ لا أدبَ له ، ثمَ وصلنى بخمسين ألفِ درهم » .

هذا وللقصة بقية فى بعض رواياتها الأخرى . وهى دالة على تقدير الخلفاء فى الصدر الأول للعلم والعلماء ، وعلى حرصهم على التزوّد بالمعرفة ، ثم هى أحد الشواهد على ما قاله المؤلف عن الفترة التى كان فيها الحكّام من أهل العلم .

(47) **الخبر عن إجراء عبد الله بن طاهر لأبى عُبيد القاسم بن سلّام (ت ٢٢٥)** معاشا قدره عشرة آلاف درهم فى كلّ شهر لتأليفه كتابه فى غريب الحديث ، ودلالته على احترام أصحاب السلطة للعلماء وارد فى : نزهة الألباء .

(48) **على بن محمد بن الفرات** : هو أحد من استوزرهم الخليفة المقتدر بالله العبّاسى (٢٩٥ - ٣٢٠) وذلك فى سنة ٢٩٩ ، وقد استمر فى الوزارة ثلاث سنين وتسعة أشهر إلى أن سخط عليه ، [مروج الذهب ٤/ ٢١٣] .

(49) **أصل معنى النَّفاق** - بفتح النون - هو : الزّواج والانتشار ، والفعل منه : نَفَق . . ينفُقُ . . نَفاقًا . أما النِّفاق - بكسر النون - فهو إظهار الإنسان خلافَ مايبطن ، وهو خُلُق ذميم . والفعل منه : نافق . . ينافق . . نِفاقًا . **ونَفاق العلماء** معناه : علوّ مكانتهم ، وكرامتهم على المجتمع والحكام وكثرة الرجوع إليهم ومشاورتهم والاهتداء بهديهم .

(50) **الياساق** :اسم كتاب وضعه جنكيزخان الزعيم المغولى يتضمّن عددًا من القوانين التى وضعها لتنظيم أمور رعاياه . جاء فى (صبح الأعشى) فى سياق الكلام عن عقيدة جنكيزخان وأتباعه فى الديانة «ثم الذى كان عليه جنكيزخان فى التدين ، وجرى عليه أعقابُه بعده الجرى على منهاج (**ياسة**) التى قررها ، وهى قوانين خمّنها من عقله وقرّرها من ذهنه ، رتَّب فيها أحكاما وحدّد فيها حدودًا ربّما وافق القليلُ منها الشريعةَ المحمدية ، وأكثرها مخالف لذلك ، سمّاها (الياسة الكبرى) ، وقد اكتتبها وأمر أن تجعل فى خزانته تُتوارث عنه فى أعقابه ، وأن يتعلمها صغار أهل بيته»

[صبح الأعشى ٤/ ٣١٠ ، ٣١١] .

(51) **يُرمّقون العيش ترميقا** : يقولون : رمَّق فلانًا بشىء ، أى : أمسك به رمَقَه ، أو : أعطاه مايمسك به رمقَه ، ورمَّقَ فى الشىء : لم يبالغ فى عمله ولم يحسنه ، ورمَّق الكلامَ : لفّقه شيئًا فشيئا . ويشير السياق إلى أن ترميق العيش هنا يعنى ممارسة الحياة بأدنى مستوى لها ، أو معاناة العيش فى عُسْر وضيق .

(52) **السِّكَةُ** : من معانيها : السّطر المصطفُ من النخيل والشجر ، والطريق المستوى . وحديدة منقوشة تضرب عليها النقود . وحديدة المحراث التى يُحَرث بها . ويبدو أنّ المعنى الأخير هو الذى قصد إليه صاحب الكتاب . وإن كان الأمر كلّه يحتاج إلى المراجعة والتأكّد من صحّة الحديث ومعناه فى سياقه الأصلىّ ومناسبته .

(53) **أئمّة الفلاكة وهَيُولاَها** : الهَيُولَى كلمة يونانيّة ، وتعنى الأصلَ الماديَّ للمحسوسات قبل أن تلحقها أيّةُ صورة ، ويقصد المؤلّفُ أن أصحاب المعاش غير الطبيعىّ هم أصل الفلاكة وجوْهرُها ، على سبيل المبالغة .

(54) **عنوان (معجم الأدباء)** وعنوان **(إرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء)** هما عنوانان لكتاب واحد ، ولكن يبدو أن فى العنوان الثانى تداخلا مع عنوان كتاب لابن الأنبارى هو **(نزهة الألبّاء فى طبقات الأدباء)** . أما العنوان الصحيح لكتاب ياقوت فهو **(إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)**.

(55) **فى (سير أعلام النّبلاء) للذهبى** - الذى ينقل عنه صاحب (الفلاكة) - جاء الاسمُ : ابن مَخمُويه . وقد تكررت كتابة الإسم هناك على هذه الصورة .

(56) **فى (إرشاد الأريب) لياقوت** ، و (سير أعلام النبلاء) للذهبى أنّ سنة وفاته هى ٥٦٥ هـ .

(57) **فَيْد** : مكان ، وجاء فى (الصّحاح) أنه نُزُلٌ بطريق مكة ، وجاء فى القاموس المحيط أنه قلعة بطريق مكة .

(58) **الشّقيقَةُ** : ألمٌ ينتشر فى نصف الرأس والوجه .

(59) **عبارةٌ مُجَمْجَمةٌ**: عبارة خفيّة غير واضحة .

(60) **سَيَّبُوه** : بمعنى : تركوه وخَلَّوْه . والفعل فصيح مستخدم فى العاميّة بنفس معناه فى الفُصحى .

(61) **المعنى فى البيت على ماذهب إليه مؤلّفُ الكتاب** ، ويبقى الخلافُ فى كلمة (يتصَدّق) وما إذا كانت - كما قال المؤلف - بالبناء للمجهول مع حذف كلمة (عليه) أى (يُتَصدَّقُ عليه) وهو ما أراه تقديرًا بعيدًا . وقد جاء فى (الصّحَاح) للجوْهرى قوْلُه - مادة صدق - « ومررْتُ برجل يسألُ ، ولا تقل : يتصدّق ، والعامّة تقوله ، وإنما المتصدّق : الذى يعطى . فهل هى لغةٌ عاميّة استعمل الشاعر فيها كلمة (يتصدّق) بمعنى يسأل ؟ قد يكون . أم أنها لغة قديمة فصيحة جاءت فيها (يتصدّق) بمعنى : يسألُ الصدقة وهو ما يؤيّده معنى البيت ؟.

(62) **الجزء المحصور بين قوسين** عبارة عن بيت شعرى ينسب إلى أبى نواس وصورته حسب كتابة الشعر كالآتى :

وإذا نَزَعْتَ عن الغَواية فليكنْ

للهِ ذاكَ النـزْعُ لا لـلـنـاس

(63) **الإلغاط** : معناها هنا : رفْعُ الصوت بالدّعاء والمبالغة فيه .

(64) **أَلِظُّوا** : أى الزموا وداوموا ، والإلْظَاظُ : لزوم الشىء والمثابرة عليه ، ومعنى (أَلِظُّوا بـ (ياذا الجلال والإكرام) أى الزموا ترديد هذا الدعاء والمثابرة عليه .

(65) **الشراشر** : مفردها : شُرْشُرَة : جاء فى (الصّحاح) : ألقى عليه شراشره ، أى نفسَه ، حرصًا ومحبّةً . والمعنى : حَصَر كلَّ آماله فيه .

صدر من هذه السلسلة

٢٣ - تجريد الأغانى (المجلد الخامس)

٢٤ - تجريد الأغانى (المجلد السادس)

٢٥ - الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة مج ١ تحقيق : هنس وير

٢٦ - الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة مج ٢ تحقيق : هنس وير

٢٧ - حلبة الكميت للنَّواجى

٢٨ - البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ (المجلد الأول)

٢٩ - البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ (المجلد الثانى)

٣٠ - رسائل ابن عربى (المجلد الأول)

٣١ - رسائل ابن عربى (المجلد الثانى)

٣٢ - منامات الوهرانى . مراجعة د. عبد العزيز الأهوانى

٣٣ - الكشكول (المجلد الأول)

٣٤ - الكشكول (المجلد الثانى)

٣٥ - أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول

٣٦-٤٨ - بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس (فى ثلاثة عشر مجلدًا)

٤٩ - فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (المجلد الأول)

٥٠ - فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (المجلد الثانى)

٥١-٥٤ - المواعظ والاعتبار (فى أربعة مجلدات)

٥٥ - سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق : محمد كرد على

٥٦ - مجموعة مصنفات شيخ إشراق للسهروردى (المجلد الأول)

٥٧ - مجموعة مصنفات شيخ إشراق للسهروردى (المجلد الثانى)

٥٨ - اتعاظ الحنفا للمقريزى (المجلد الأول)

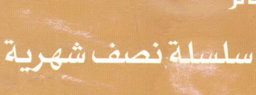
٥٩ - اتعاظ الحنفا للمقريزى (المجلد الثانى)

٦٠ - اتعاظ الحنفا للمقريزى (المجلد الثالث)

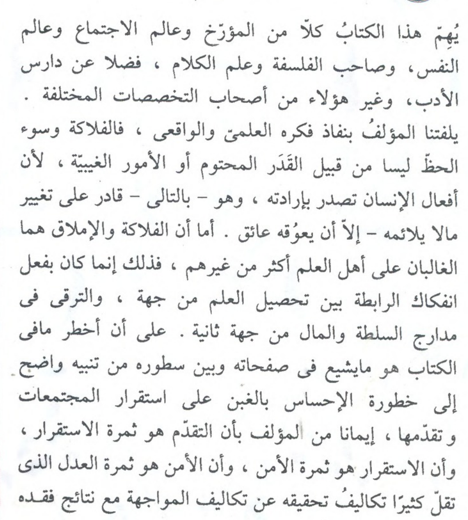
٦١ - مقالات الإسلاميين للأشعرى ، صحّحه هِلموت ريتّر
٦٢-٦٥ - ديوان أبى نواس (٤ مج) تحقيق : إيفالد ڤاغنر وغريغور شولر
٦٦ - ولاة مصر تأليف محمد بن يوسف الكندى ، تحقيق د. حسين نصّار
٦٧ - المنتخب من أدب العرب (الجزء الأول)
٦٨ - الهوامل والشوامل لأبى حيان التوحيدى ، ومسكويه ، تحقيق : أحمد أمين والسيد أحمد صقر
٦٩ - المنتخب من أدب العرب (الجزء الثانى) جمعه طه حسين وآخرون
٧٠ - نوادر المخطوطات تحقيق عبد السلام هارون (المجلد الأول)
٧١ - نوادر المخطوطات تحقيق عبد السلام هارون (المجلد الثانى)
٧٢ - طبقات فحول الشعراء لابن سلام (مج ١) تحقيق : محمود محمد شاكر
٧٣ - طبقات فحول الشعراء لابن سلام (مج ٢) تحقيق : محمود محمد شاكر
٧٤-٨٠ - الحيوان (فى سبعة مجلدات) تحقيق : عبد السلام هارون
٨١ - الأشباه والنظائر للخالديين (جزآن فى مجلد واحد) تحقيق د. السيد محمد يوسف
٨٢ - سيرة صلاح الدين لابن شداد تحقيق د. جمال الدين الشيّال
٨٣ - الإمتاع والمؤانسة (ثلاثة أجزاء فى مجلد واحد) تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين
٨٤ - ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى تحقيق محمد حسن الأعظمى وآخرين
٨٥-٨٨ - البيان والتبيين (فى أربعة مجلدات) تحقيق عبد السلام هارون
٨٩ - المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد الأندلسى (القسم الخاص بالفسطاط) تحقيق د. شوقى ضيف وزميليه
٩٠ - الفتح القسى فى الفتح القدسى للعماد الأصفهانى تحقيق محمد محمود صبح
٩١ - ديوان ابن سناء الملك تحقيق د. محمد إبراهيم نصر
٩٢ - السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد تحقيق : فهيم محمد شلتوت
٩٣ - معجم الشعراء للمرزبانى تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج

٩٤ - فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء تحقيق د. محمد رجب النجار
٩٥ - أساس البلاغة للزمخشرى ج ١ عن طبعة مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية
٩٦ - أساس البلاغة للزمخشرى ج ٢ عن طبعة مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية
٩٧ - مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصفهانى ج ١ تحقيق السيد أحمد صقر
٩٨ - مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصفهانى ج ٢ تحقيق السيد أحمد صقر
٩٩ - الصاحبى لابن فارس تحقيق السيد أحمد صقر
١٠٠ - التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . تحقيق : محمد بن تاويت الطنجى
١٠١ - عيون الأخبار لابن قتيبة . المجلد الأول ، عن طبعة دار الكتب المصرية
١٠٢ - عيون الأخبار لابن قتيبة . المجلد الثانى ، عن طبعة دار الكتب المصرية
١٠٣ - عيون الأخبار لابن قتيبة . المجلد الثالث ، عن طبعة دار الكتب المصرية
١٠٤ - عيون الأخبار لابن قتيبة . المجلد الرابع ، عن طبعة دار الكتب المصرية





سلسلة نصف شهرية



هذا الكتاب

يُهِمّ هذا الكتابُ كلّا من المؤرّخ وعالم الاجتماع وعالم النفس، وصاحب الفلسفة وعلم الكلام ، فضلا عن دارس الأدب، وغير هؤلاء من أصحاب التخصصات المختلفة . يلفتنا المؤلفُ بنفاذ فكره العلميّ والواقعى ، فالفلاكة وسوء الحظّ ليسا من قبيل القَدَر المحتوم أو الأمور الغيبيّة ، لأن أفعال الإنسان تصدر بإرادته ، وهو - بالتالى - قادر على تغيير مالا يلائمه - إلاّ أن يعوُقه عائق . أما أن الفلاكة والإملاق هما الغالبان على أهل العلم أكثر من غيرهم ، فذلك إنما كان بفعل انفكاك الرابطة بين تحصيل العلم من جهة ، والترقى فى مدارج السلطة والمال من جهة ثانية . على أن أخطر مافى الكتاب هو مايشيع فى صفحاته وبين سطوره من تنبيه واضح إلى خطورة الإحساس بالغبن على استقرار المجتمعات و تقدّمها ، إيمانا من المؤلف بأن التقدّم هو ثمرة الاستقرار ، وأن الاستقرار هو ثمرة الأمن ، وأن الأمن هو ثمرة العدل الذى تقلّ كثيرًا تكاليفُ تحقيقه عن تكاليف المواجهة مع نتائج فقده



الكتاب القادم : كتاب التحدث بنعمة الله
(السيرة الذاتية والعلمية لجلال الدّين السُّيوطى)

